



# علم الدين

لمحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقاً

الجزء الاول

طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

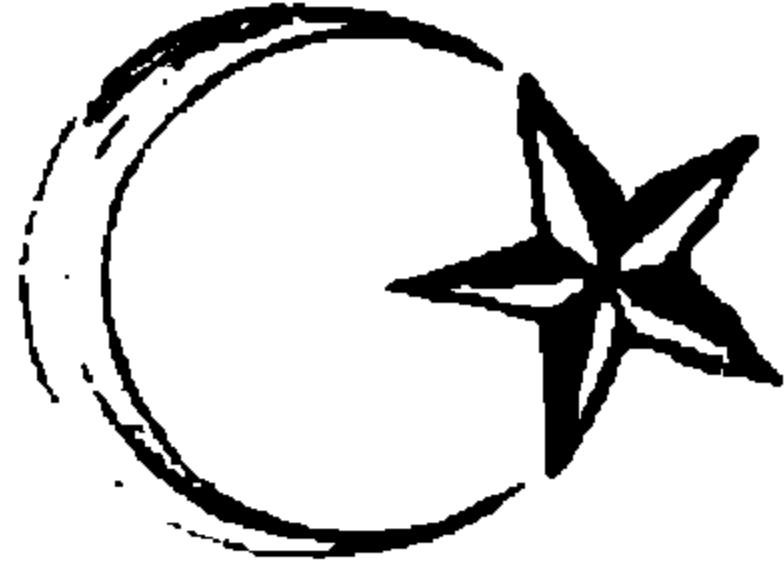
١٢٩٩

هــ

١٨٨٢







# عَلَمُ الدِّينِ

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقاً



الجزء الاول



طبع في مطبعة جريدة المهرسة بالاسكندرية

١٢٦٦

سنة

١٨٨٢



## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مصور الأكوان ومديرها ومقدر الأحوال ومسيرها وصلى الله على سيدنا محمد شمس الضحى ونور الهدى وعلى اله وصحبه مهديين الدجى وكل من ينورهم اهتدى ويهداهم اقتدى وسلم تسليماً كثيراً دائماً وأبداً

وبعد فمن نظر في هذا العالم وسير أحواله وتدبير قوانينه التي فطر عليها الخالق جل اسمه بقدرته ودبرها بحكمته وجد بين أفراد كل نوع من أنواعه وبين كل نوع وغيره من العالم وكل جنس وآخر من اجناسه ارتباطاً تاماً يستدعيه كمال نظامه كما انه يجد هذا الارتباط بين العالم السفلي والعالم العلوي ايضاً الا ترى ان الشمس تشرق على الارض بانوارها فتنبث اشعتها في انحاءها واجزائها فينفضل بواسطة الحرارة بخار يرتفع لحقته على الهواء فينعقد حباتاً في جو السماء تثبره الرياح فتسبره الى حيث شاء الله من الاماكن القاصية والدانية فيتراكم ويسقط على الارض ماء تخرج به الارض انواع النبات والثمار رزقاً للعباد كما قال الله سبحانه وجعلنا سراجاً وهاجاً وانزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لتخرج به حياء ونباتاً وجنات الفاانم يرى ان كل مخلوق حصل على شيء من هذا العالم ايا كان ما ينزل من السماء او يخرج من الارض صار ذلك الشيء شبه بدين في ذمته مجبور على وفائه قضت عليه الحكم الازلية والاحكام العلية بتعويضه وادائه بعد حين الى الارض او السماء بواسطة التحليل والتركيب المتبادلين المتعادلين لاستمرار النظام وبقاء هذا الكون الى ان يشاء الله

فاذا علمنا ذلك في الامور الفطرية والاحوال القسرية ناسب ان نراعيه كذلك في احوالنا الارادية وافعالنا الاختيارية

فكل خير حصلنا عليه في هذه الحياة الزمنا انفسنا القيام بتعويضه ومقابلته بالمجمل على قدر الامكان وهل جزاء الاحسان الا الاحسان

مثلاً نحن قد تربينا في هذا الوجود حتى صرنا على حالة من احوال

الكمال وصلنا اليها ولم نكن نشأنا عليها فترتب علينا ان نربي غيرنا حتى يصلوا الى نحو ذلك ثم هم يربون غيرهم وهكذا ومن اعظم ما نرى انفسنا مدينين له مطالبين من جهته مغرورين بحقوقه المقدسة هذا الوطن الجليل الذي نشأنا به وعشنا فوق ارضه وتحت سمائه ونعشنا بهوائه وروينا بمائه واغذينا بنباته وحيوانه وانتفعنا بماء اجزائه وهو في كل آن يمدنا ويغذيها ويعطينا ويزيدنا كما كانت صنيعه مع ابائنا واجدادنا السابقين وكذلك يكون شأنه مع ابائنا واحفادنا اللاحقين فلزمنا ان نشكره حق قدره ونأتي على اخر جهدها واستطاعتنا في منفعة وخيره ولا شيء انفع له واجاب للخير والبركة اليه من تعليم ابائنا وبحث المعارف والفنون النافعة فيهم حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا بدار واحدة في نفعه وخدمته وايصاله الى غاية ما يمكن ان يصل اليه من النجدة والسعادة والرفعة وعلو المكانة وبذلك تزداد خيراته وبركاته عليهم وعلى نسلهم وغنيهم وخلفهم من بعدهم وهذا لا يكون الا بالعلم والمعرفة وحسن التربية فان الجاهل لا يحسن نفع نفسه فضلاً عن نفع غيره لانه لا يميز بين المنفعة والمضرة واول عرف المنفعة لا يعرف الطرق الموصلة اليها ولو عرف لا يهتدي لاحسنها واقر بها المقصود واسلمها من الآفات والمخدور بل طال ما اراد ان يتنفع فضر وطلب الخير فاجتنب الشر فان الجاهل اعمى ولو كان بصيراً فهو يتخبط في ظلمات التي والحيرة لا يبصر الحقيقة ولا يهتدي الى الصواب ولا يدري حاله وما عليه ولا يعلم حقوق نفسه ولا يعرف حقوق غيره وان وقع على الغرض فبالصدفة والاتفاق رمية من غير رام وصاحب الفضل والمعرفة يسير في اعماله مستهتراً بصباح علمه فيميز الخير من الشر والمليح من القبيح ويرى الصواب واضحاً فيقصد ونهج الحق نيراً فيسلكه ويعرف قدر نفسه وغيره وما له على غيره وما لغيره عليه ويرى حقوق وطنه فيأخذ نفسه بقضائيا وحسن القيام بها عارفاً ان نفعه لوطنه مع كونه حقاً بقضيه ودينياً بؤديه انما هو في الحقيقة نفع لنفسه لما لا ربية فيه عندك من ان خير بلاده وخصبها وبركتها وتقدمها ورفعته شأنها كل ذلك فائدة له وعكسه بعكسه فلذا كان نفع وطنه نفع نفسه كصاحب الارض

مثلاً يتنفع بخبراتها ويحني ثمراتها فيرتب عليه بازاء ذلك ان يقوم بخدمتها وإداء ما يلزمها وينفعها ويصلح شأنها من تليب وتصبب وتهيد وتسميد وري وطى ونحو ذلك فاذا فعل ما ذكر فقد أدى ما عليه من جهتها في نظره ما انتفع به منها وبذلك تصلح الارض وتحسن وتعلو قيمتها فتدرّ عليه خيراتها وتنمو حاصلاتها فتعود عليه بتنفع اخر وترى خيرا وهام جرّاً

هذا واني لمعترف بفضل هذا الوطن العزيز عليّ فقد نشأت في ظله وتعلّيت في مهده وتربيت في حجر كفالاته وتعمد حتى صرت من ابناءه المعدودين ورجاله المعروفين وتمتعت صغيراً وكبيراً بكثير من خيراته وثمراته ولا ازال متنعماً بطيباته فاجدني وان استوفيت الجهد وقضيت العمر في خدمته لم اقم بعشر معشار ما عليّ من واجباته وحقوقه ولكن عرفاني لذلك واعتراضي به لا يعني من بذل جهد المقل والانتها لغاية الاستطاعة ولهذا التزمت في كل ما تقلدت من الاعمال وجميع ما تقلبت فيه من الاحوال ان اخدم وطني بكل ما ناله يدي وبلغه امكاني مما اراه يعود عليه بالفائدة والنفع قل او جل كالسعي في استكثار المكاتب والمدارس وتعميم التربية والتعليم ونشر الكتب المفيدة اما بالاشتغال في تأليفها بنفسي او بالحث والتحريض عليها لمن ارى فيه اهلية القيام بها

وقد رأيت النفوس كثيراً ما تميل الى السير والقصص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة فقد تعرض عنها في كثير من الاحيان لاسباب عند السامع والمال من كثرة الاشتغال وفي اوقات عدم خلو البال فحداني هذا ايام نظارتي لديوان المعارف الى عمل كتاب اضمته كثيراً من الفوائد في اسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها الى مطالعتها ويرغب فيها رغبته في ما كان من هذا القليل فيجد في طريقه تلك الفوائد ينالها عنوا بلا عناء حرصاً على نعيم الفائدة وبث المنفعة

فشرعت في جمع هذا الكتاب مستمداً من عناية الله مستعيناً في تهذيب عبارته وتحسين اشارته ببعض جهابذة الاساندة لاسيما العالم الفاضل السيد الاجل عبدالله باشا فكري وكيل ديوان المعارف فانه صرف عناية الى تنقيح

ما اطلع عليه من هذا الكتاب وليس بالقليل فهدب معانيه وشذب مبادئه وقرب مجانيه فجاء كتاباً جامعاً اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المتفرقة في كثير من الكتب العربية والافرنجية في العلوم الشرعية والفنون الصناعية والارار الخليفة وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر وما تقلب نوع الانسان فيه من الاطوار والادوار في الزمن الغابر وما هو عليه في الوقت الحاضر وما طرأ عليه من تقدم وتقهتر وصفاء ونكدر وراحة وهناء وبؤس وعناء الى غير ذلك من الشؤون يتقلب الدهور وتصرف الامور مع الاستكثار من المقابلة والمقارنة بين احواله وعاداته في الاوقات المتفاوتة والاشياء المتباينة ليطالع مطالعه على ما يشعذ خاطره وينبه قريحته ويستنهض فكرته وبدرجه لاعمال عقله وامعان نظره واستعمال بصر بصيرته في نقد الامور وسبرها وتدبرها ومقارنتها والموازنة بينها والتميز بين الخير والشر والنفع والضر ونخير النافع والانتفع والحسن والاحسن منها على نمط يسود عن السامة ولا يبيل الى الملاة مفرغاً في قالب سياحة شيخ عالم مصري وسم بعلم الدين مع رجل انكليزي كلاهما هيان بن بيان نظهما سمط الحديث لتاني المقارنة بين الاحوال المشرقية والاوروبية

وكل ما وقع تحت نظر الناظر وقرع السمع وشغل البال وحرك قوة من قوى النفس مدة السياحة يحج الناظر في الكتاب مستوفي البيان مشبعاً فيه الكلام بحسب المقام وقد قسمته الى مسامرات يتنقل فيها القارئ تنقل المسافر ويجد فيها فكاهة المسامر كما يتنفع به المعلم والمتعلم فيكون للاول مفكراً منجهاً وللتاني معلماً مفقهاً والله المستول ان يعم النفع بهذا الكتاب وان يجعله ذخيرة عند ليوم المآب







بِكَ اسْتَعِين

المعلم الاول  
الحنر

حكى انه كان بقرية من قرى مصر فيما سلف من العصر  
رجل من فقهاء الريف كان يصلي بالناس في جامع القرية  
ويعلم اطفالهم كتاب الله عز وجل وكان من اهل الفضل  
والصلاح رزقه الله على الكبر بولد سماه علم الدين تفاؤلا بان  
يكون من اعلام العلماء المجتهدين ثم انه رباه في كتابه وآدبه  
بحسن آدابه الى ان ترعرع الغلام وحفظ عن والده كتاب الله  
العظيم وبعض متون صغيرة ومبادئ فنون يسيرة فرأى فيه  
والده اثار الذكاء ومخائل النجابة وحسن التريجة ومحبة العلم  
والقبول لما يلقي عليه والقابلية لما يساق اليه فاراد اكمال تربيته  
وتعليمه في اوان شببته حتى يلحق برتبة اكابر العلماء فقد قال  
الحكماء علموا اولادكم صغارا تتفعول بهم كبارا وقالوا من لم يتعلم  
في صغره لم يتقدم في كبره وقال الشاعر



قد ينفع الادب الاحداث في صغر

وليس ينفع بعد الكبرة الادب

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت

ولن تلين اذا قومتها الخشب

فوقع في نفسه ان يوجهه الى الجامع الازهر لما يعرفه في تلك البقعة الطاهرة من المحاسن الزاهرة والبركات الطاهرة فانه منبع الفضائل ومجمع الافاضل وموضع حسن التعلم والتعليم ومرجع طلاب العلم من الاقاليم فاراد ان يكمل فيه ولده دراسة العلم الشريف بملازمة دروس عظمائه من افاضل علمائه لينال ببركتهم الاثر ويكتسب بصحبته العلم والادب وكان الشيخ قد تقارب عمره ولم يكن له ولد غيره فاستخار الله تعالى على هذه النية فانشرح لها صدره ومال خاطره فركن اليها وصم عليها واعد لولده ما يلزم من الزاد والذخيرة وان كانت يسيرة وكتب معه مكتوباً الى صديق له في مصر القاهرة من مشاهير تجارها واعيان مشاهيرها يرجوه ان يكون لولده في جميع مهماته كالوالد وان يكون واسطة في اجتماعه على الصالحين من العلماء الاماجد ويقربه منهم ليسمعوا بتهذيبه ويذلو النصيحة في تاديبه واوصى ولده بالطاعة والامثال لمعلمه فيما يعود نفعه عليه وان يصرف جميع اوقاته في تحصيل ما يرشدونه اليه وان يجنب المناهي واماكن الملاهي وان يكون في الغدوة والرواج مع اهل الصلاح ومن



لم شهرة بفعل الخير وحسن السير فقد قال العلماء اصطف  
من الاخوان ذا الدين والحسب والراي والادب فانه رء لك  
عند حاجتك وركن عند نائبتك وانس عند وحشتك وزين  
عند عافيتك وقال الشاعر

تخير من الاخوان كل ابن حرة

يسرك عند النائبات بلاؤه

وقارن اذا قارنت حراً فانما

يزين ويزري بالفتى قرناؤه

وقال عدي بن زيد

اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم

ولا تصحب الاردي فتري مع الردي

عن المرء لانسال وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي

ويحكى ان جماعة من اللصوص وقع القبض عليهم فاخذوا

الى السلطان فامر بقتلهم جميعاً فتقدم احدهم وقال انا لست منهم

وانما كنت مغنياً لهم ولم افعل افعالهم فقال السلطان فغن حتى

نسمع فلم يجري على لسانه غير البيتين المذكورين لعدي بن زيد

فغنى بها فلما بلغ الى قوله ( فكل قرين بالمقارن يقتدي ) قال

السلطان سبحان من انطقك وانا اول من صدقك ثم امر به

قتل معهم وهذه عاقبة من يصاحب الاشرار ويخالط الفجار



فانه ان لم يفعل كافعالهم نسب الى احوالهم ثم ان الشيخ رحمه الله  
 ختم وصيته لولده علم الدين بتعليمه وظائف طالب العلم وما  
 يلزمه من الاداب التي يتوقف عليها كمال الوصول الى المطلوب  
 والحصول على تمام المرغوب فقال اعلم يا بني ان آداب المتعلم  
 كثيرة يطول تعداد تفاصيلها ولكن اختصرها لك في عشر جمل  
 تنقيتها عن المشايخ تكون لها كالاصول يتفرع عنها ما عداها

### الوظيفة الاولى

تقويم النفس من رذائل الاخلاق ومذموم الاوصاف  
 كالغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر وامثالها فكلها من  
 موانع التحصيل وقواطع السبيل

### الوظيفة الثانية

ان يقلل المتعلم علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الاهل  
 والوطن فان العلائق صارفة وشاغلة وما جعل الله لرجل من  
 قلوبين في جوفه ومهما توزعت الفكرة فصرت عن ادراك الحقائق  
 ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك والفكرة  
 المتوزعة على امور متفرقة كجدول تفرق! ماؤه فنشفت الارض  
 بعضه واختلطت الحرارة بعضه فلا يبقى منه ما يجمع ويبلغ  
 الزرع



ان يداوم في تحصيل العلم على الاجتهاد والجهد ويصبر على المشقة والكد ويبدل غاية الوسع والجهد ويطرح الكسل والملل ولا يقطع الامل ولا يترك العمل ولو طال الامل وبعد المدد فقد حكى عن بعض المشايخ انه اتى في اول امره الى الجامع الازهر لطلب العلم فمكث فيه مدة لا يصل الى فائدة ولا يحصل على عائدة حتى كلت قوته وفترت همته وادته الحال الى قطع امله وتغزم على ترك الطلب والرجوع الى بلده واهله فقام ليخرج من الجامع تاركاً للتحصيل قاصداً للرحيل فلما قرب من بابه اتفق انه رأى دويبة من حشرات الارض تحاول الصعود في محل من حيطان الجامع وكان المحل صعب المرتقى عليها عسر الصعود بالنسبة اليها فصعدت مقداراً يسيراً ثم زلقت ارجلها فوقعت ثم قامت وصعدت مرة ثانية فوصلت الى ارفع مما كانت قد وصلت اليه أولاً ووقعت ولم تزل كذلك تقع وترتفع مراراً حتى وصلت الى اعلى المكان حيث ارادت فقال في نفسه والله لا اكون اعجز من هذه الدويبة الضعيفة فهذه من الله لي اشارة لطيفة ولحمة ظريفة فانها لما صبرت على مداومة العمل ظفرت بغاية الامل ثم انه عاد الى الطلب والتحصيل بنشاط جديد وهمة قوية وعزيمة ثابتة ونفس صابرة فما زال يجتهد ويكد الى ان صار وحيد اوانه وفريد اقرانه وشيخ الاسلام في زمانه وصار حديثه عبرة لاولي



الالباب وقد قال الله سبحانه انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب

#### الوظيفة الرابعة

ان لا يتكبر على العلم ولا يتامر على المعلم بل يلتقي اليه زمام امره في التعليم ويدعن لتصحيحه اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق وينبغي ان يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من اخلاق المؤمن التلق الا في طلب العلم فلا ينبغي لطالب العلم ان يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم ان يستنكف من الاستفادة ممن يراه خامل الذكر عديم الشهرة ولا يرغب في التعلم الا من المشهورين واصحاب المظاهر وهوعين المحاقة فان العلم سبب النجاة والسعادة ومن يطلب مهرباً من سبع ضارٍ يفترسه لم يفرق بين ان يرشده الى طريق النجاة رجل مشهور او خامل وضرر الجاهل اشد من ضرر السبع والحكمة ضالة المؤمن يفتن بها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها اليه كائناً من كان فلذلك قيل العلم حرب للفتى المتعالي \* كالسبل حرب للكان العالي فلا ينال العلم الا بالتواضع والقاء السمع قال الله تعالى ( ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او اتقى السمع وهو شهيد ) ومعنى كونه ذا قلب ان يكون قابلاً للعلم فهياً ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلتقي السمع وهو شهيد حاضر القلب يستقبل كلما



التي اليه بحسن الاصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنّة  
فيكون المتعلم لمعلمه كارض ممتنة نالت مطراً غزيراً فشربت بجميع  
اجزائها واذعنت بالكلية لقبوله وقد قال علي رضي الله عنه من  
حق العالم الا تكثر عليه السؤال ولا نعتته في الجواب ولا تلح عليه  
اذا كل ولا تاخذ بثوبه اذا نهض ولا تفشي له سراً ولا تغتابن  
احداً عنده ولا تطلبين عثرته وان ذل قبلت معذرتة وعليك ان  
توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ امر الله تعالى وان كانت له حاجة  
سبقت القوم الى خدمته

#### الوظيفة الخامسة

ان يحترز الخائض في العلم في مبدء الامر من الاصغاء الى  
اختلف الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا او من  
علوم الآخرة فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رايه ويؤيسه  
من الادراك والاطلاع بل ينبغي ان يتقن اولاً الطريقة الواحدة  
الحميدة المرضية عند استاذة ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب  
والشبه واختلف الاراء فان لم يكن استاذة مستقلاً باختيار راي  
واحد وانما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها على اختلافها فليحذر  
منه فان اضلاله اكثر من ارشاده فلا يصلح الاعى لثود العميان  
وارشادهم ومن هذه حاله يعد في عي الحيرة وتيه الجهل

#### الوظيفة السادسة

ان لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحموده ولا نوعاً من



انواعه ألا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم إن ساعده  
 العمر طلب التجرف فيه والأشغل بالاهم منه واستوفاه وتطرف من  
 البقية فان العلوم متفاوتة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في  
 الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس  
 اعداء ما جهلوا قال تعالى (واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك  
 قديم) وقال الشاعر

ومن يك ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ \* يجد مرّاً به الماء الزلالا

#### الوظيفة الحابعة

ان لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب  
 ويبتدىء بالاهم فان العبر اذا كانت لا تسع لجميع العلوم غالباً  
 فالحزم ان ياخذ من كل شيء احسنه فقد قال علي رضي الله  
 عنه وكرم وجهه العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كل شيء  
 احسنه وانشا يقول

ما حوى العلم جميعاً احد \* لا ولو مارسه الف سنة  
 انما العلم بعيد غوره \* فخذوا من كل علم احسنه

#### الوظيفة القائمة

ان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فان  
 العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق الى بعض والموفق من



راعى ذلك الترتيب والتدرج وذلك كترتب علم المعاني على النحو وعلم الهندسة على الحساب فمن خاض في فن وحاول تحصيله قبل ان يُعرف الذي قبله فقد أحبط عمله وإضاع وقته في الباطل ولم يخرج بطائل قال الله تعالى ( الذين اتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ) اي لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا وينبغي ان يكون قصده في كل علم يتجرأ الترفي الى ما فوقه

### الوظيفة التاسعة

ان يعرف السبب الذي يدرك به اشرف العلوم وذلك يراد به شيان احدهما شرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل فعلم الحساب وعلم الطب مثلاً اذا نسبتها لبعضهما وجدت علم الطب اشرف باعتبار ثمرته فان ثمرته حفظ البدن وثمره الحساب حفظ المال ووجدت علم الحساب اشرف باعتبار قوة ادلته فانها يقينية وملاحظة الثمرة اولى ولهذا كان الطب اشرف وان كان كثير منه بالتخمين والحساب مبني على اليقين وعلى هذا فاشرف العلوم علم الدين لان ثمرته حفظ الارواح ونجاتها من الوبال الابدی والشقاء السرمدی ولا ينبغي ان يفهم من هذا الاطراء والمدح لعلم الدين ذم غيره من العلوم ولا ينبغي ان ينظر اليها بعين الحتمارة كعلم النحو واللغة وغيرها من الفنون المدحوخة ولا يظن من تعظيم علم الدين وتفضيحه تهجين غيره من العلوم وتسيحها فان المتكفلين بالعلوم والقائمين عليها



كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله  
فمنهم المقاتل ومنهم المدد ومنهم الذي يجلب لهم المؤنة والذي  
يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهد لها ولا ينفك احد  
منهم عن اجر اذا كانت نيته حسنة وكذلك العلماء قال الله  
تعالى ( يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات  
وقال تعالى ( هم درجات عند ربهم ) والفضيلة نسبة وكون  
السلطان مثلاً اعظم من وزيره لا يدل على حقارة الوزير في ذاته  
وكذا من دون الوزير وهكذا وبالجملة فمن يعمل مثقال ذرة  
خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ومن قصد وجه الله  
وسبيل الخير بالعلم اي علم كان نفعه ورفعته لا محالة وينبغي ان  
لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين اصحابه فيه ولا  
بخطأ واحد او احاد فيه ولا بخالفتهم موجب علمهم بالعمل فتري  
جماعة تركوا النظر في العقليات والتقنيات متعللين فيها بانها لو  
كان لها اصل لادركه اربابها وتري طائفة يعتقدون بطلان  
الطب لخطأ شاهدوه من طبيب وطائفة اعتقدوا صحة التنجيم  
لصواب اتفق لواحد وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر  
والكل خطأ بل ينبغي ان يعرف الشي في نفسه فلا كل علم  
يستقل بالاحاطة به كل شخص ولذا قال علي رضي الله عنه  
لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرفه اهله

## الوظيفة العاشرة

ان يكون قصد التعلم التحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة والتقرب الى الله عز وجل والتوصل الى تحصيل المنفعة المحمودة لنفسه باكمل الوجوه واعظها واحسن الطرق واسلمها والنفع لاخوانه واهل وطنه وسائر عباد الله تعالى فان احب الناس الى الله انفعهم لعباده ولا يقصد بتحصيله المفاخرة والمباهاة والمحاسدة للناس ومزاحمة ارباب الوظائف في وظائفهم ومضايفتهم في مناصبهم فان هذه المقاصد ذميمة وطلب العلم وان كان مدوحاً في نفسه الا ان من قصده بنية ذميمة كان مذموماً بالنسبة له ففعل الصلاة مثلاً مدوح في نفسه وطاعة لله سبحانه وقربة ولكن اذا اراده شخص بنية الرياء والسمعة والفخر كان مذموماً بالنسبة لذلك الشخص وهكذا العلم فينبغي لطالبه ان يحسن نيته ويخلص طويته ويقصد وجه الله وطريق الخير ينفعه الله ويرفعه في الحال والمآل ويبلغه غاية الكمال

ثم ان الشيخ بعد ان اتم نصيحته وانهى وصيته جمع عشيرته الاقربين وفيهم زوجه والدة علم الدين وقال لهم وهو يسكنني قضيت جميع عمري في اداء ما فرضه الشرع علي في حق الوالدين والاقارب ومن اتى الي وقد من الله تعالى علي بولدي هذا في اخر عمري واود ان يخلفني ويكون لكم بفضل الله عوناً من بعدي وجاهاً قائماً بحق صلة رحمه عاملاً بامر الله العام واشوق الله الذي



نسالون به والارحام ويقول به تعالى وبالوالدين احساناً ولكن  
مقصودي هذا لا يتم الا بطلبه للعلم فانه الكاشف للبصيرة والمنور  
للسريّة والمأحي للجهل والمبلغ صاحبه درجة اهل الفضل وهو  
المؤنس في الوحشة والمحدث في الخلوة والجلّيس في الوحدة  
والصاحب في الغربة والدليل على السراء والمعين على الضراء  
والزينة عند الاخلاء والسلاح على الاعداء وبالعلم يبلغ العبد  
منازل الاخيار في الدرجات العلى ومجالسة الملوك والكبار في  
الدنيا ومراقبة الابرار في الآخرة ولذا قال الشاعر

لا تدخر غير العلو \* م فانها نعم الذخائر  
فالمرء لو ربح البقاء \* مع الجهالة كان خاسر  
قال الله تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا  
يعلمون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الدنيا  
والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل ثم انه التفت الى  
ولده في الآخر وخاطبه يقول الشاعر

العلم انفس شيء انت ذاخرة  
من يدرس العلم لم تدرس مفاخرة

اقبل على العلم واستقبل فوائده

فاول العلم اقبال وآخرة

ثم قال لمن عنده هذه قطرة من بحر ونقطة من قطر وللعلم  
من المزايا الفاخرة في الدنيا والآخرة ما لا يحاط بمجد ولا يدخل

تحت عد ولهذا قد استخرتُ الله تعالى وصميت النية على ارسال  
ولدي هذا الى محروسة القاهرة لطلب العلم وتحصيله في الجامع  
الازهر وتجدر فيه لينتفع به مدة دهره الى اخر عمره وفي يوم حشره  
وقد هيئت جميع ما يلزم لسفره فلا تحزنوا لفراقه وادعوا له عسى  
ان يفتح الله عليه ويحسن بتنوير بصيرته اليه فابتهلوا جميعاً بالدعاء  
له وان يفتح الله عليه ويتقبل عمله وكانت والدته من ذوات  
الحسب مصونة العرض اصيلة النسب قد اعتدت عليها الايام  
وصدعتها الامراض والاستقام فكف بصرها واختل امرها فرفعت  
راسها الى السماء وطلبت من الله القبول ونيل المامول وان يرده  
لبله في صحة وسلامة مجملاً باوصاف اهل الكمال متحلياً بجلال  
ارباب الجلال لينتفع به اهل بلدته وليكون رداً لاقاربه وعشيرته  
وتضرعت الى الله بصوت خاشع وقلب خاضع وأمن الشيخ وبقية  
الحاضرين ثم انهم ودعوا علم الدين وهم في نحيب وبكاء من  
حرقة الفرة وبعد الشقه ومشوا معه الى ان انزلوه في مركب كان  
متوجهاً الى مدينة مصر واوصوا عليه ارباب المركب ورجعوا الى  
منزلهم بعد ان قبلوه وودعوه وقبل هو ايضاً يدي والده ووالدته  
وسار على بركة الله تعالى





## المسامرة الثانية

## سفر وعودة

فكان في مبدء سفره تارة يبكي لفراق اهله وبلده ولم يكن فارقه من قبل وتارة يفرح لميل قلبه الى العلم والرغبة في تحصيله لانه كان حافظاً للقرآن وكان يرى في نفسه ان فيه استعداداً لاتساع دائرة معارفه ولذلك كان دائماً يطلب من والده ان يرسله لطلب العلم حتى تم هذا الامر وكان احياناً يتكرر خاطره بسبب ركوب البحر وما يخشى من اخطاره لانه لم تكن سبقت له عادة به الا انه كان يتاسى بغيره ممن كان معه في المركب ويتسلى باختلاطه بهم والمجاذبة معهم في اخبار مدينة القاهرة وما فيها من الغرائب فصار ينجلي ذلك الحزن عنه شيئاً فشيئاً حتى غلب عليه الفرح وطاب خاطره وانشرح خصوصاً وقد كان بالمركب في ضمن المسافرين رجل صالح لبيب من اهل القاهرة كان قد نزل الى الريف لقضاء بعض مصالح فقضاها ورجع وكان ذلك الرجل صاحب معرفة وتجربة يعلم من احوال الناس كثيراً لكثرة ممارسته لهم واختلاطه بهم فاتحد علم الدين معه وصار الرجل يصف له حال المدينة واهلها ويقفه بما يلزمه في الاقامة بها ويبين له كيف يكون سيره مع الناس اذا وصل وحاله اذا اخلط باهل الازهر واتصل ووعدته انه بعد الوصول الى مصر يزوره ورخص له في التردد عاياه اي وقت احب ووصف له منزله وحارته فتسلى

الولد بذلك وقر ناظره وطاب خاطره حتى انتقضت ايام السفر ودخلوا مصر آمنين فاخذ ذلك الرجل الى منزله واكرمه فبات عنده تلك الليلة وكان من جملة ما جرى بينهما من المحادثة ان حكى علم الدين للرجل ان معه مكتوباً لبعض اصدقاء والده وعرفه اسمه فوعده الرجل بان يده عليه فلما اصبح الصباح قام معه وتوجه به الى صاحب والده وسلماه المكتوب فلما قرأه فرح بالولد لان بينه وبين ابيه مودة عظيمة وصداقة قديمة فرحب به وتعهد له بان يكون له كوالده وامره بان يخبره بكل ما يحتاج اليه ليقضيه له وفاء بحق صحبة والده لانه من اعز الناس عليه فشكره علم الدين على معرفته وسأله ان يرشده الى كل ما يلزمه لانه مأمور من والده ان لا يخرج عن رأيه وطاعته فقال له لا تعجل ففي غد ان شاء الله اتوجه معك واسلك لاحد الاساتذة واوصيه بك واتكلم معه بما تعود منافعة عليك واتقيا على ذلك ثم ان الرجل صديق والده خيره بين الاقامة في منزله او في مكان قريب من المسجد فاختر الاقامة في مكان قريب من المسجد ليسهل عليه حضور مجالس العلم في اول اوقاتها فاستحسن صاحب والده رايه ورأى بذلك من الامارات على مزيد اجتهاده ورغبته في تحصيل العلم وحرصه عليه ولما جاء الغد مضى معه الى الجامع الازهر وجمعه على شيخ من مشاهير علمائه كان بينه وبينه صداقة ووداد وله فيه حسن اعتقاد فوصى به ورغب اليه في الفاء نظره



عليه ورعاية شأنه والعناية بأمره وإرشاده إلى سواء السبيل في  
امر الطلب والتحصيل وترجاه كثيراً في ذلك وذكر له ما بينه  
وبين والده من المودة الأكيدة فقبل الشيخ رجاءه وأمر علم الدين  
بمضور الدروس في أوقاتها وبين له سبيل التحصيل ونهاه عن  
الكسل والتعطيل فصار الولد من وقتئذ ملازماً للدروس طول  
نهاره وإذا جاء الليل ذهب إلى بيته وأقام غالب الليله يطالع  
الدروس المستقبلية ويتذكر الدروس الماضية ويحيي بعض الليل  
في تلاوة القرآن فما مضى عليه إلا قليل من سنين حتى بلغ في  
علوم اللغة والنحو والصرف والعروض وفروع الفقه مبلغاً لا  
يصل إليه غيره في سنين كثيرة ثم أخذ يتعلم علوم البلاغة  
والأصول والتفسير والحديث وهكذا كان يتقل من فن إلى آخر  
ومن درجة إلى ما فوقها حتى برع في العلوم العقلية والعقلية وصار  
يشار إليه بأطراف البنان ويضرب به المثل بين الأقران وما  
ذاك إلا بدعاء والديه ورضى مشايخه وإخوانه عنه وكثرة  
اجتهاده ونور بصيرته وقوة فؤاده وإمثاله أمر مشايخه وإخوانه  
وحرصه على كل ما سمعه من مشايخ زمانه وكان من ذوي  
الالباب كامل الأخلاق والآداب إذا قعد في مجلس لا يتكلم فيما  
لا يعنيه وإذا سئل أحسن الجواب وأصاب الصواب محباً لمجالسة  
اللطفاء ومجانسة الأدباء خيّد الخصال حسن الصفات والأفعال  
شاعراً أدبياً فصيحاً اللسان لبيباً محمود الخلق والخلق عند العام

والخاص يشهد له بذلك العلماء والأكابر والخواص وقد حاز جميع هذه الأوصاف الحميدة والمزايا الفاتكة الفريدة في مدة يسيرة وأعوام غير كثيرة لم يسافر فيها إلى وطنه ولم يحنّ إلى مسقط رأسه وعطنه إلى أن جاءه الخبر بموت والده ومن يعزّ فراقهم عليه فتوجه إلى البلد ليأتي بأخواته إلى مصر وكنّ ثلاثاً من البنات خلفن أبوه بعد سفره إلى مصر فاحضرهنّ معه وقد باع كل ما تركه أبوه على أهل البلد وكان شيئاً قليلاً وذلك بعض اعتر وحجارة وأنية فخار وشيء يسير من اثاث الدار فبلغ ثمن ذلك كله نحو أربعمائة قرش واشترى منه ما يحتاجه من الزاد ولوازم السفر وفي مدة إقامته في البلدة اجتمع عليه مشائخها ومشادوها والجيران وتكلّموا معه أن يقيم في وظيفة أبيه إماماً بجامعهم فشكر فضلهم وتحنّى عن ذلك قائلاً إني أحب أن أتم دراسة العلم وبعد ذلك إن شاء الله تعالى أعود لبلدي ومقر راسي فقالوا له جميعاً إن الذي حصلته انتب من العلم الآن أكثر مما كان يعلمه أبوك فقد درست النحو والقه وغيرها وبرعت في علوم كثيرة كما سمعناه من الناس كثيراً فضلاً عن حفظ القرآن وحسن تلاوته وكان أبوك لا يحسن غير تلاوة القرآن وشيء من العلم على قدر ما يلزم للإمامة وعقد النكاح بل انتب الآن فيك كفاية لأن تتولى نيابة القضاء في القرية فلو بقيت عندما توجهنا بك إلى قاضي الولاية وسعينا في توليتك نيابة القضاء في البلد والحول عليه فإني واعتذر لهم بأن القضاء يحتاج



الى معرفة علوم شتى غير التي حصلها وانه لا ينبغي ان تعرض  
للقضاء وفصل قضايا الناس الا من كان متبحراً في العلوم الشرعية  
متضلعا من اصولها وفروعها واثقا من نفسه بعدم الميل عن اتباع  
الحق في الحكم بين الخلق وانه لا يرضى ان يكون مسؤولاً يوم القيامة  
عما يحكم به خصوصا اذا كان بدون ثبوت فقد قال صلى الله  
عليه وسلم لياتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى ان  
لم يقض بين اثنين في ثمرة قط لاسيا وانه يخشى ان يغره الطمع  
وحب الدنيا فيقع في حبال الشهوات النفسية فيظلم ويحكم على  
خلاف الطريقة الشرعية والعمر يتقضي ومتاع الدنيا قليل فالأولى  
بالعقل ان يمسك بعرى التقوى فانها السبب الأقوى وامثال  
هذا الكلام فما كان يزيدهم تمنعه الا رغبة فيه فلما لم يجد له مخلصا  
من ذلك قال لهم عما قريب ان شاء الله تعالى يتم المقصود ويهدينا  
الله لما يريد وكان في المجلس رجل ضرير من اهل القرية يحفظ  
القران ووظيفته ان يلا ميثاة الجامع وكانوا بعد موت الشيخ  
جعلوه اماما لم في صلاتهم موقفا الى حضور علم الدين من الجامع  
الازهر وتوليهِ وظيفة والده فلما حضر وابى فرح الضرير بذلك  
في نفسه بسبب انه يصير حيثن مستقلا بهذه الوظيفة ولحقاتها من  
عقد نكاح وغيره وكان بعض مشائخ البلدييل الى الضرير فقالوا  
الشيخ سويلم يعنون الضرير رجل من الصالحين وحملته كتاب الله  
ونعرفته حق المعرفة فهو اولى من غيره فاتفقوا جميعا على تقليده هذه

الوظائف وقد كان ثم ان علم الدين توجه باخواته الى مصر  
واستأجر لهن بيتاً في ربيع وانزلهن فيه وصار كل يوم ياتيهن بجرايته  
المرتبة له بالازهر ولكنها لما لم تكن كافية لقوت اربعة نضايق  
فقصد بعض مشاهير اهل الازهر وشرح لهم حالة وحال اخواته  
ولكونه محباً اليهم ومقرباً لديهم سعلوا له في ترتيب جرایة اخرى من  
المحلول ومع ذلك لم يكن فيما رتب له من الجرايتين كفاية لنفقته  
ونفقة اخواته فضايق من ذلك صدره وتحير في تدبير المعيشة امره  
والبحاته الضرورة الى القراءة مع اولاد الليالي في الختمات وغشيان  
منازل اهل الخير والصدقات وقدر في نفسه ان ذلك وان كان  
فيه هتك المروات الا ان الضرورات تبج المحظورات فكان  
يذهب معهم في بعض الليالي لقراءة الختمات ويتبعهم في الذهاب  
الى بيوت الامراء لاختذ الصدقات فحصل له من ذلك بعض  
اتساع في احواله وتخلص بعض التخلص من ضيق القدر  
واحواله





## المسابقة الثالثة

## الزواج

ومضى على ذلك اربع سنوات يصرف نهاره في طلب العلم  
 وليله في قراءة الختمات لكنه لصغر سن اخواته وعدم من يعولهن  
 ويقوم باصلاح شأنهن كان دائماً مشغول البال بهن فرغب في  
 الزواج ليستربح فؤاده من جهتهن ويتفرغ لطلب العلم والسعي في  
 تحصيل معيشتهم الا انه كان اذا تفكر في امر الصداق وكلفة  
 الزفاف ونفقة الزوجة وما يتبع ذلك من حقوق الزوجية وفي  
 ان ما يرد له في هذه الحالة لا يفي بذلك كله قلت رغبته  
 وضعفت نيته واذا ذكر قوله تعالى ( وما من دابة في الارض الا  
 على الله رزقها ) وقوله صلى الله عليه وسلم من تزوج يريد  
 العفاف فحق على الله عونته ) وقول عمر بن الخطاب اني لا قشعر  
 من الشاب ليست له امرأة ) كثرت في الزواج رغبته وقويت  
 نيته وهكذا فكان يتردد بين الامرين ولا يكشف له وجه الصواب  
 عن احد المحالين ثم انه قال في نفسه اين انت من الاستخارة وما  
 ورد فيها كقوله صلى الله عليه وسلم اذا هم احدكم بامر فليستخر  
 ربه فيه سبع مرات ثم لينظر الى الذي يسبق اليه قلبه فان فيه  
 الخبز ) وقول بعض الصحابة كان صلى الله عليه وسلم يعلمنا  
 الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن ) فهلا استخرت او ذهبت الى

بعض المشائخ فاستشرت فاستخار واستشار وتبين له ان الزواج هو الصواب ثم طرأ له تحير اشد من الاول ولم يدري على ماذا يعول وهو انه هل يتزوج بفقيرة او غنية وهل الصواب ان تكون ثيبا او بكرا قال فكنت ذا قلب معذب وعزم مذبذب لا اهتدي الي صواب ولا اميز بين التبر والتراب فنظرت في كتب الاداب وما قيل فيها من هذا الباب فرأيت لكل مزية وليست واحدة منها عما يحذر منه عرية لان البكر وان كانت درة مخزونة وبيضة مكنونة لم يدنسها لامس ولا استغشاها لابس ولا مارسها عابث ولا وكسها طامث الا انها ابية العنان بطيئة الاذعان مؤنتها كثيرة ومعونتها يسيرة تقول انا اابس واجلس واطلب من يطلق ويجبس واما الثيب فهي وان كانت الصانع المدبرة والفتنة المختبرة عجالة الراكب وانشوطة المحاطب الا انها اللباس المستبدل والوعاء المستعمل دأبها كنت وكنت وطالما بقي علي فنصرت وشتان بين اليوم وامس واين القمر من الشمس وامثال هذا مما قرأته في الاسفار وطالعت من منشور الاخبار ومنظوم الاشعار ورايت ان الفقيرة وان كانت ترضى بالقليل وتقنع باليسير الا ان ما يرد لي من الصدقات والجراية وقراءة الختمات انما يكفي لاقواتنا على قدر اللازم فلا يفي بما يزيد لاجل الزوجة من اللوازم وان الغنية وان ساعدت زوجها في امر المعيشة الا ان لوازمها كثيرة ويجب لها من الحقوق ما لا يجب



لغيرها لاغنياءها على السعة في بيت أهلها وربما كانت المساعدة التي تحصل منها لا تقابل بعض ما يجب لها خصوصاً وغالب من أراه من اغنياء مصر في هذا العصر لا يقوم علم الزوج عندهم مقام غناه بسبب جهلهم وربما قصد العالم الفقير بعضهم فردوه واستهزؤا به ولم يريدوه لأن الإنسان عدو ما جهله ومن جهل شيئاً عاداه وما زلت ألقب في مثل هذه الأفكار والخواطر وأتردد بين الموارد والمصادر فأزداد لي التخيير وتشعبت عليّ طرق التخيير ووقعت من الحيرة في ليل بهيم ولم أدر في أيّ وإداهم فرجعت إلى كتب الحديث والأخبار وما ورد عن السلف الصالح من الآثار فقرأت ما ورد عن جابر رضي الله عنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أتزوجت قلت نعم قال أبكراً أم ثيباً قلت ثيباً قال هلاً بكراً تلاعبك وتلاعبها وإمثال هذا الحديث فرجعت البكر على الثيب ثم قرأت ما رواه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة فقلت الفقيرة بالنسبة لعمالي أيسر مؤونة وبالنسبة لعمالي أكثر معونة وأقرب للقناعة بقليل ما لديّ وأبعد عن الترفع والتعظيم عليّ فصممت النية على البكر الفقيرة بعد أن استخرت الله تعالى وكان لي صديق له اخت فقيرة بالغة اسمها ثقية فخطبتها منه فاجاب وسميت له ما تيسر من الضداق فرضي به وما عاب فاحضرت الشهود وأولمت على قدر

## الموجود وعقدنا العقد وميزنا بين المؤجل والنقد



### المصاهرة الرابعة

#### العيلة

قال الناقل فلما استقرت عنده وحلت بالمكان الذي  
اعده وجدها ذات ذكاء وبهاء راضية بما قسم الله لها تشكر على  
القليل ولا تنسى الجميل فبلغ علم الدين بها مناه وحمد الله سبحانه  
على ما اولاه حيث كفته المؤنة في تربية اخواته وتفرغ هو لطلب  
العلم وقراءة ختماته وكانت صاحبة فطنة تدبر بها منزلها وتحسن  
التصرف فيما عليها ولها وتعرف بعض صنائع كالخياطة والتطريز  
وكب التحرير وكلما تسر لها من ذلك تصرفه في لوازم المنزل  
من غير اسراف ولا تبذير ولما رأت ان اخوات زوجها لم يعرفن  
شيئاً من اللوازم المنزلية التي لا يستغني عن معرفتها النساء شمرت  
عن ساعد الجيد واخذت تعلمن جميع ما يلزمهن اذا تزوجن  
فاخذن في التعلم وصرن لها كبناتها فحسن بخدمة المنزل وتفرغت  
هي لصنائعها وكلما تسر تصرفه في مساعدة زوجها فحسن حاله  
وراق باله ومكثوا على هذه الحالة اياماً متطاولة وليالي متوالية  
لا يخطر لهم اله ببال ولا يحدث بينهم قيل ولا قال ثم انه وجد  
عندها ميلاً لتعلم العلم فصار يلقيها منه قواعد الدين شيئاً فشيئاً



ويعلمها الكتابة . فكتبت وحفظت القرآن وتعلمت من العقائد ما  
تحتاج لمعرفته ثم سألته ان لا يكتم عنها شيئاً مما يعلمه فعلمها  
العلوم الادبية والفقه والحديث والتفسير الى غير ذلك من  
المعقول والمنقول وهي مع ذلك مؤديةً جميع ما يجب عليها من  
حقوق الزوجية فكان اذا دخل المنزل كانت له احسن جليس  
والطف انيس واذا خرج تفرغت لاشغالها وللمطالعة في مطولات  
الكتب من التفسير والحديث والادب والفقه والاثار وقصص  
المتقدمين والახبار حتى جارتها في كل مضمار واخذت معه في  
اودية العلم حيثما سار ولم تنزل سالكة طريق السداد حتى رزقهم  
الله باربعة من الاولاد فتعظلت عن مساعدته في امور المعيشة  
بسبب تربيتهم واشتغالها بخدمتهم لصغرهم وكثرتهم ومع هذا فكان  
يرى ان نعم الله عمته واحساناته غمرته فكان دائم الشكر لمولاه  
حامداً له علي ما اولاه الا انه كان يرى ان ما يرد له من الجحراية  
والقراءة شيء قليل بالنسبة لكفاية العائلة لا يبرئ لهم غليلاً ولا  
يروى لهم غليلاً لانهم صاروا تسعة هو واخواته الثلاث واولاده  
الاربعة وزوجته فيخشى الوقوع فيما فر منه والعود لما نزع عنه  
ويتأمل في الحكمة الالهية والقسمة الربانية من كثرة العيال وضيق  
الحال ولا يجد لتفريج ما به من الضيق سبباً ولا للعلم باسرار الحكمة  
الالهية مطلباً ولكنه كان لورعه وتقواه يفوض امره الى مولاه ويقول  
مخاطباً لنفسه اذا كان بقسمة الله تجري الامور فالصبر عليها

مشكور مستوجب الاجور ومن غرس الصبر اجثنى الظفر والصبر على الغصه ربما أدى الى الفرصه ومن فوض امره لمولاه كفى مؤنة بلواه وعدم الرضا معاداة للقضا ويتذكر قول شهاب الدين في تهذيبه الجامع وتصنيفه النافع اذا لم يمش الزمان معك على ما تريد فامش معه على ما يريد فان الانسان عبد الزمان الى غير ذلك من التواعظ التي مرت به والحكم التي تلقاها ايام طلبه وعند ذلك يرضى بحاله ويصبر على ابتلائه بكثرة عياله ولكن كان اذا مر باسواق المدينة ورأى الفواكه على ارجائها صفت واصناف المأكولات والمشروبات باكتافها اخفت او دخل بيتاً من بيوت جهلة الاغنياء والاوزاد الاغنياء ورأى ما لديهم من النعم والتوسع في المشرب والمطعم تذكر عياله وفقره واضمحلاله وكانت زوجته ايضاً بهذه الحاله الا انها كانت تبالغ في كتمان امرها وتحذر من افشاء سرها خوفاً على تشويش خاطر زوجها كما كان هو كذلك يكتتم امره ولا يبدي سره واذا لاح له منها امارات الضجر سالها تطيباً لخاطرهما عن اسباب ضجرها فتعلل بان ذلك لامر حدث بين اخيها وزوجته او بينه وبين بعض قرابته فياخذ الكلام على ظاهره ولا يدقق عليها خوفاً من ان تخبره بالحقيقة فيزيد تشويش فكره بلا فائدة الى ان دخل عليها مرة فوجدها في بكاء ووله لم يسبق في العادة لها وله فلم يسعه الاّ الاحاج عليها في طلب الافصاح عن سبب بكائها ووجه حزنها وعنائها واقسم عليها

بالمودة التي بينه وبينها ان تخبره عن اسباب تغيرها والبكاء الذي  
 اضرّ بها وقال لها ان كان ذلك عن امر حصل مني اعتذر اليك  
 منه وانت تعلمين اني لا اريد غير ما يرضيك عني ومعاذ الله  
 ان اكون دنست في عشرتك او قصدت غير مسرتك فان كان  
 ذلك لامر فرط مني ولم اعلمه اعتذرت اليك منه وان كان من  
 طبع لي كرهته نفسك بذلت غاية جهدي في التباعد عنه فاماطت  
 عن مكنون سرها الجلباب وتضت عن مستر ضميرها الثقاب  
 وقالت

### المعامرة الخامسة محاورة

استغفر الله لي ولك واسأله ان يصلح عملي وعملك وينجح املي  
 واملك واقول لك الحق وامحضك الصدق ان البكاء الذي  
 عراني والنحول الذي اعترانني ليس لك فيه سبب وانما هي امور  
 جلبتها الى نفسي وخواطر اذهبت راحة عيشي وانسي فقال وكيف  
 ذلك قالت نظرت باقر حالنا وكثرة عيالنا فاسفت من ضيق  
 عيشهم في حياتنا وخفت من سوء حالهم بعد مماتنا وذهلت عن



قول الله تعالى ( وما من دابة في الارض الا على الله رزقها )  
فهذا الذي اجري عبرتي واضرم نار لوعتي وارجوك ان لا تواخذني  
في ذلك فانك تعلم ان النساء اكثر من الرجال شفقة واعظم  
منهم رافة ورقة فقال لها ان الذي قام بفكرك قد اوقعني الشيطان  
فيه من قبلك فاجدني لا ادخل ولا اخرج الا حو قلت ولا ارى  
سوقا ولا بيتا مزخرفا الا استرجعت وسجلت لما اراه من ضيق  
دويرتنا وشدة عيلتنا وارى الكثير من المتعمين في الدنيا وشهواتها  
مجردين عن العلوم الشريفة وادواتها وغالب اهل العلم والكمال  
في معزل عن السعة والمال فاجد العلم مقرونا بالفقر والجمل  
ملازما للسعادة واعتقد ان الصواب ما ورد في الكتاب من قوله  
تعالى ( وبشر الصابرين ) وامثال ذلك لكن الحواس لا ترى  
الا ظواهر الاشياء والعقل ان لم تدرك صاحبه الطاف ربه بحكم  
بما شاهدته وشهدت به فهذا الذي كان يعتريني فكنت اجتهد  
في اخفائه عنك واسأل الله دواء هذا الداء فانه وهن عظمي  
وارهي جسدي وشغل فكري وحيرني في امري فقالت وانا ازيدك  
على هذا ان شئت ولا تواخذني ان اسأت فقال هاتِ قالت ان  
اكابر الفضلاء والمتقدمين من الحكماء قد اطالوا القول في مدح  
العلم واهله وربما جملوه بابا للرزق واصله حيث قالوا انه نور  
تستضيء به حواس الانسان فينظر بها الى ان تنكشف له مخدرات  
حقائق الاكوان فيكسر صاحبه حائل الجمال والهيبة والاجلال

وان الجهل يطمس بصيرة صاحبه ويهوي به في ظلمة الغي  
ومعاطبه ويحجبه عن مشاهدة الاسرار الربانية ويمنعه عن ادراك  
ما اودع في الاكوان من اللطائف الخفية ويقوده الى وادي الخيال  
ويكسوه ثوب المهنة والاذلال فلا يرى الا ظواهر الاشياء فيحكم  
عليها باحكام باطلة واوهام عاطلة فيكون بمعزل عن الارادة  
الربانية والحكم الالهية فلا يميز على الحقيقة ما ينفعه مما يضره ولذا  
يقال في الامثال ( الجاهل عدو نفسه ) ومن كان عدو نفسه  
كان عدو ربه ومقتضى القياس الذي حرره اهل الميزان وقرروا  
والمفهوم الذي استتجوه من هذا المثل وقدره ان يقال العاقل  
حبيب نفسه ومن كان حبيب نفسه كان حبيب ربه وذلك لان  
من عرف نفسه عرف ربه الى غير ذلك مما لا يعول في استخراج  
نتائجه الا عليك ولا سند لي فيه الا اليك ولكن اذا تقرر هذا  
ففيه اشكال اريد ان استمد فيه راياك واستطلع ما عندك قال  
وما هو قالت اذا كان العالم حبيب نفسه وحبيب ربه والجاهل  
عدو نفسه وربه كما قلنا وراينا الغنى والسعة عند اهل الجهل  
والفقر والقلة مع اهل العلم والفضل كما تقول فما الحكمة في ذلك  
وكيف يكون الحبيب محروماً من نعم حبيبه المتقلب فيها عدو  
فقال هذا قضاء الله السابق في مكنون علمه وهو الفعال لما يريد  
لا يسأل عما يفعل ولا معقب لحكمه وانما علينا الصبر والرضا  
بكل ما يجري به القضا لكي لا نحرم الثواب في الآجل اذا حرمتنا

بعض المطلوب في العاجل فقالت مهلاً فهذا شيء عرفناه قديماً  
 وفرغنا منه تعلماً وتعليماً وأنا لا ريب عندي في ان الصبر سبيل  
 كل عاقل فضلاً عن الكمل الافاضل كما اني لا ارتاب في  
 ان كل شيء بقضاء الله وقدرته وحكمه ومشيئته ولكن مع ذلك  
 اعلم ان الله علت كلمته وجلت حكمته لا تخلو افعاله عن اسرار  
 غلبة وحكم خفية او جليلة فان الانسان من خلقه اذا اتاه حظاً  
 عظيماً من العقل وقدرًا وافراً من الحكمة وولاه جانباً من حسن  
 البصيرة والنظر في حقائق الأحوال وعواقب الأمور والاطلاع  
 على غوامض الأشياء نجده ترفعت نفسه عن الباطل وتنزهت  
 أفعاله عن العبث وخلت أموره عن اللغو حتى لا يكاد يخلو  
 حال من أحواله شيء من أقواله وأفعاله عن حكمة يريد بها  
 ونكته يقصدها اذا أمده الله بالعصمة وايده بالتوفيق لمقتضى الحكمة  
 فما ظنك بالصانع القدير الحكيم الخبير الذي لا يغرب شيء عن  
 علمه كما لا يشذ شيء عن أمره وحكمه أيجوز ان رزق لمحة من الفضل  
 اولمعة من العقل ان يظن به جل جلاله وتقدس كماله ان  
 يتطرق العبث الى ساحة شيء من أمره او يخلو عن الحكم الجليلة  
 شيء من قضائه وقدره حاشا وكلاً ثم حاشا وكلاً نعم نعم مع  
 ذلك ان عقل العاقل وان جل أمره وعظم قدره لا يمكنه  
 الوصول الى الاحاطة بحكم الله كلها ولا جاهها وانما يصل الى  
 معرفة اقلها فان حكم الله المنظوية في تضاعيف المقدور المبثثة في



تصاريف الامور تابعة لما علمه بعلمه المحيط بكل شيء قل او اكثر  
خفي او ظهر حضر او غبر اذ لا يخفى عليه شيء من صغير او كبير  
الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير وعقل العاقل انما يحكم  
بحسب ما يراه في الاشياء الحاضرة من ظواهرها او ما يقرب الى الظهور  
من بواطنها وسرائرها فاما بواطنها المستكنة وسرائرها الغامضة  
ومستقبلاتها الغائبة التي لا سبيل اليها ولا دليل عليها فهو بعيد منها  
ومعزول عنها فمن اين له علمها وكيف يتألى له فهمها ومصدق ذلك  
اننا نجد في بني نوعنا من آثاره الله علينا بمزية مزيد العقل ونور البصيرة  
وكثرة التجربة فاذا تقدنا جميع احواله وانتقدنا كل افعاله ظهر لنا السر  
والحكمة في بعض اموره وخفي علينا ذلك في البعض الاخر من اعماله  
وربما رايانا بعضها خلوا من الحكمة في بادىء النظر ثم يظهر لنا اخر  
الامر ما كان قد خفي علينا اولاً من حكمته وانه فهم بكثرة عقله  
ما لم نفهم وعلم بمزيد تجربته ما لم تعلم فان كان لنا حسن ثقة بعقله  
وفضل اعتماد على فضله بسبب كثرة موافقة الحكمة فيما علمنا سره  
من فعله لم يحملنا عدم معرفة السر والحكمة في امر من اموره على  
سوء الظن به والتدحج في حكمته او الجزم بخلو ذلك الامر عن  
الحكمة والسر في نفس الامر بل نحمل ذلك على قصورنا عن  
درجته وعدم وصولنا لما وصل اليه بكثرة معرفته وطول تجربته  
وقد يشير علينا بالشي من هو اكثر منا عقلاً وتجربة فنسفه رأيه  
ونخالف قوله اذا لم يكن لنا فيه من الثقة مثل ما ذكر ثم نندم

على مخالفته ويظهر لنا بعد ذلك انه كان قد اشار علينا بما هو الصواب وظهر له ما خفي علينا فإخطأنا بمخالفته وإمثال هذا في كل عصر مما لا يدخل تحت حصر وكثيراً ما يتفاوت الناس في الآراء والانظار والاقوال والافكار فيرى الواحد منهم بفضله وتجربته ما يخفى على غيره لجهله وقلة خبرته ولولا ذلك لتساوى الفضلاء والجهلاء واتبقت الآراء والاهواء وقد يامر الرجل العاقل البصير ولده الصغير بشيء ينفعه ويعود عليه بعظيم الفائدة في حاله أو استقباله فتكره ذلك الشيء نفس الصبي وينفر منه طبعه ولا يعلم له حكمة ولا فائدة لتصور عقله عن عقل والده هذا ولا شك ان نسبة عقل الصبي الصغير الى عقل الشيخ الكبير وعقل الغر الجاهل الى عقل الفطن البصير اعظم واجل من نسبة عقل العبد الذليل الى علم الرب الجليل بكثير فان الصبي الصغير والغر الجاهل لم يخرجوا عن كونهما من جنس الشيخ الكبير والفطن البصير ومن نوعهما وان قلّا في درجة العقل عنهما بخلاف العبد وربّه الذي ليس كمثل شيء فلا شبه ولا مناسبة بينهما فظهر ان العقل وان انكشف له بعض الحكم الالهية واطلعه الله سبحانه على شيء من اسرارها فلا سبيل له الى الاحاطة بجميعها ولا باكثرها فله عز شانه حكم مصونة واسرار مكنونة تتلشى انظار البصائر دونها وتثفاني هم الاكابر عليها فلا يصلونها الا ان له مع ذلك حكماً ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار لا تخفى على احد من

ذوي الابصار فلا مجهلها غير صبي او من يقارب منزله من فاقد  
البصيرة غبي وبين ذلك حكم واسرار ليست كهذه في الظهور  
ولا كالاولى في الاستتار فمنها ما يعرف بيسير من التفكير ومنها ما  
يتوقف على كثير من النظر والتدبر ومنها ما ينكشف بالرياضة  
والمجاهدة والتقوى والعبادة ومنها ما يظهر لبعض الافهام دون  
بعض الافهام وما يظهر للخواص ويخفى على العوام يشهد لذلك  
المشاهدة والتجربة بما يغني عن اطالة الكلام في تفصيل المقام وكل  
ما ظهر لنا من ذلك فمن فيض الله وفضله وما طواه عنا فحكيمه  
وعدله فاذا كان ذلك كذلك فلا يحسن بنا اذا لم يظهر لنا  
السرف في شيء من افعاله جل جلاله باديء بدء ان تقطع الامل  
من معرفته ونياس من روح الله في الوصول الى حكمته بل  
نطلب الحكمة على قدر الاستطاعة باشغال الفكر واعمال البصيرة  
والالتجاء اليه بحسن السيرة والسريرة حتى يعلمنا ما جهلنا خفاياه  
ويفيض علينا من بجار عطاياه فما افاض علينا علمه من ذلك  
شكرناه عليه وما لم يظهر لنا سره صبرنا على الطلب حتى نصل  
اليه فيحصل لنا بذلك مزيد الاجر والثواب من وجوه اما اولاً  
فباستعمال النظر والفكر في مصنوعات الله سبحانه وتعالى والتماس  
حكمته فقد امرنا بالنظر والتفكير في مصنوعات الله كما نهينا عن التفكير  
في ذاته وقد تقرر ان اليسير من فكر الجنان افضل من كثير من  
عمل الاركان واما ثانياً فبالشكر على ما يفيض علينا والله



سبحانه يقول ( ولئن شكرتم لازيدنكم ) واما ثالثا فبالصبر على  
الطلب وقد قال ( انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب )  
ونستفيد مع حسن الاجر والمثوبة في الآجل ما ينكشف لنا من  
المعرفة والحكمة في العاجل وذلك نعيم الروح ولذة النفس ونزهة  
الخواطر ومسرة السرائر ولا ريب في ان معرفة الحكمة او شيء منها  
فيما يتأني للعقول البشرية ان تصل الى سر حكته الزاهرة من  
افعال الله وعجائب مصنوعاته الباهرة ادعى الى تعظيم الله سبحانه  
ومحبته والخضوع له والاتجاه اليه والتقرب من حضرته والاعتراف  
بحسن حكمته واجلب لسكون الخاطر وإطمئنان القلب وراحة  
السر ومزيد التسليم وحسن الرضا بالقضا وكل ذلك لا يخفى ولم  
يكن ما ارتكبت من اطالة المقالة قصدا الى تفهيمك فان كل ما  
عندي ليس الا من ثمرات تعليلك ولكني لما سألت ذلك السؤال  
واوردت ما اوردت من الاشكال خفت ان يتطرق اليك سوء  
الظن في اعتقادي فاردت ان اعرفك بحقيقة ما انطوى عليه  
فؤادي ولهذا اطنبت فيما قررت ورجع حاصل ما ذكرت الى  
خمس امور الاول اني اعلم ان كل شيء بقضاء الله وقدره الثاني  
ان افعال الله سبحانه لا تخلو عن حكمة وسر الثالث ان العقول  
البشرية لا يتأني لها الاحاطة بجميع حكم الله سبحانه وانما يمكن  
لها الوصول الى بعضها الرابع ان حكم الله سبحانه كما ان منها ما  
لا تصل اليه عقولنا كذلك منها ما هو في غاية الظهور والوضوح

لا يحتاج الى طول نظر وتدبر ومنها ما هو بين هذا وذاك الخامس  
انا اذا لم يظهر لنا السر والحكمة في امر من اوّل وهلة فلا تقطع  
بالياس منه بل ننظر فيه ونلتبس بالحكمة له بقدر الاستطاعة  
وحيثئذ فلا ياس بنا في النظر فيما اخذنا بصده من المقام الذي  
بسببه انساق هذا الكلام وهو البحث عن الحكمة في ضيق عيش  
الفضلاء وقر حالهم ورغد عيشة الجاهلاء وكثرة ما لهم فان كان  
عندك في ذلك وجه حكمة فمك نستفيد والا فلينظر كل منا  
بعقله حتى يفتح الله بما يريد فقال الشيخ احسنت فيما ابنت وتطولت  
بما طولت ولكن بقي عليك شيء كان يستدعيه استيفاء البيان  
واتمام الكلام ذلك انا اذا نظرنا في شيء من الامور الواقعة  
بقضاء الله وقدرته والتمسنا له وجه حكمة وسر استنبط بواسطة  
العقل على حسب ما يصل اليه الادراك ويتغذ فيه الفكر فهذا  
لا يخلو من مزية بالنسبة اليها من سكون الخاطر وارتياح النفس  
كما قلت ولكن لا ينبغي لنا ان تقطع القول به ونجزم بان ذلك  
الوجه الذي لاح لنا هو في الواقع ونفس الامر عين الحكمة التي  
ارادها الله تعالى بذلك الامر والسر الذي بني عليه وقدر بل  
يقول الانسان اظن الحكمة في هذا الامر كذا او لعل السر فيه  
كذا وكذا ويجوز ان يكون له في هذا الامر اسرار وحكم اخر  
وربما كانت الحكمة غير ما ذهبنا اليه بالكلية اذ لنا معصومين  
من الغلط والوهم والخطاء فقطّع القول في ذلك ونجزم به ان لم

يرد به دليل شرعي ونص قطعي اقدم على الحكم على مرادات الله سبحانه بالتخمين وهذا ينافي ادب العبودية اما الاخبار باننا نظن كذا فلا باس به لانه اخبار بالواقع وهو صدق لا محذور فيه مع تفويض علم الحقيقة الى العليم الخبير واما ما سالت عنه فللناس فيه اقوال كثيرة منها ان الله لما رزق العلماء ما رزقهم من كمال العقل والمعرفة والفضل جعل للجهلاء في مقابلة ذلك ما منحهم من رغد العيش وسعة المال وكثرة الغنى فكان الغنى للجاهل في مقابلة الفضل للفاضل لتعدل القسمة ويساوى الفريقان في الحكمة ولذلك قالوا : ذكاء المرء محسوب عليه . ومنها ان الله لما رزق الجاهل سعة المال تأتي للعلماء ان يتكسبوا من بعض اموالهم بواسطة علمهم وعقلهم واحتياج الجاهل اليهم للانتفاع بعلومهم ولو في بعض الاحيان ولو كان الامر بالعكس وكان المال مع اهل العلم والفضل ما كان للجهال وجه يتالون به من اموالهم فينخل الحال ويهلك الجاهل والله ذرأني تمام حيث قال

ولو كانت الارزاق تأتي على الحجي

هلكن اذا من جهلين البهائم

ومنها ما يحكي عن بزرجمهر انه قال وكل الله الحرمان بالعقل والرزق بالجهل ليعلم ان لو كان الرزق بالخيالة لكان العاقل اعلم بوجوه مطلبه والاحتيال بمكسبه فدل على ان الامور تجري بقضائه وقدرته لا بصنع ابن آدم وفكرته فكانت الحكمة في



هذا الهداية الى الله والدلالة عليه وارشاد العقول الى ان الامر كله منه واليه

نكد اللبيب وطيب عيش الجاهل  
قد ارشداك الى حكيم كامل  
وما ينسب للشافعي رضي الله عنه  
لو كان بالحيل الغنى لوجدتني  
بنجوم اقطار السماء تعلقب  
لكن من رزق الحجي حرم الغنى  
ضدان مفترقان اي تفرق  
ومن الدليل على القضاء وكونه

بؤس اللبيب وطيب عيش الاحق  
فقلت هذه وجوه خطابية ونكات ادبية يستانس بها في  
بعض المقال ولا تطرد في جميع الاحوال فكم راي الناس من  
عالم غني وفقير عني والذي يخطر بالبال ان العلم ليس من  
اسباب الفقر ولا الجهل من اسباب الغنى ولا ملازمة بين هذه  
الامور بل القضية على العكس والعلم احد موجبات الغنى والسعة  
والجهل احد اسباب الفقر والضعة لولا عوارض واسباب اخر  
غير العلم وغير الجهل وذلك ان الله سبحانه لما جعل هذه الدار  
موضع الكسب والمسعي والاختبار ربط الامور فيها باسباب عادية  
تحصل عندها وتوجد معها كحصول الشبع والرّي بالاكل والشرب

وامثال ذلك مما أُجريت به العادة في خلقه ومن ثم امرنا بالسعي والعمل لا البطالة والكسل كما قال تعالى ( فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ) وامثال هذا مما يطول بيانه ولا يخفى عليك تفصيله وبهذا يتضح ان الاخذ بالاسباب والتقلب في طلب الرزق والتشبث بوجوه تكسبه امثال لامر الله تعالى واتباع لجاري سنته وطلب منه بلسان الخيال والافعال وهو اصدق من لسان المقال فهو اقرب الى القبول فكأن التشبث بالاكل طالب من مولاه بلسان حاله وفعله افاضة الشيع والتشبث بالشرب طالب كذلك للري والمصطلي طالب للدفع وهكذا الآخذ في اسباب الرزق طالب للرزق والله سبحانه جواد كريم فياض مطلق لا يخل عنده ولا ضيق فيما لديه فهو يفيض على كل احد ما طله بلسان حاله وفعله الذي لا يدخله ما يدخل لسان القول من الكذب واذا تمهد هذا الكلام وتقرر الغرض في هذا التمهيد قلت لك ان اهل العلم ممن لا مال عندهم لما قصروا جل افكارهم وعلقوا متهمي انظارهم على العلم والتشبث بوجوه تحصيله وكان ذلك طلباً له واستدعاء لافاضته كما ذكرناه افيض عليهم كما ان من لا علم عندهم من اهل الغنى لما سعوا في تحصيل المال واخذوا باسبابه وكدوا في طلبه افيض عليهم ذلك . نعم قد يرزق القاعد ويحرم الساعي المجتهد لاسباب اخر واسرار وحكم قد تعلم وقد لا تعلم الا ان كلامنا في العموميات والكليات لا في الخصوصيات والحزبات فحق كل

فريق من هذين الفريقين اذا اسف على حرمانه مما عند الآخر  
 الا يوجه اللوم الا على نفسه ويرحم الله من يقول  
 وعاجز الراي مضياع لفرسته

حتى اذا فات امر عاتب القدرا

فقال الشيخ اراك قد سقت الكلام الى حد اردت به توجيه  
 الملامة علي واتهامي بالتقصير في الطلب وان ما نحن فيه من قلة  
 المال وضيق الحال انما هو من تقصيري في الاخذ بالاسباب  
 قالت ينبغي ان لا يكون في هذا ارتياب وها انت قد حصلت  
 من العلم ما تعلقت به امالك ووصلت فيه ما لم يصل اليه امثالك  
 وانت الان بحمد الله في صحة من جسمك وقوة من عقلك فماذا  
 عليك لو اخذت لنا فيما يكون فيه حسن الحال وراحة البال من  
 الرزق الحلال ففي علمك ان للعبد ذنوباً لا يكفرها صلاة ولا  
 صيام يكفرها السعي على العيال فقال الشيخ ومتى قصرت في  
 الطلب وكيف لنا بتحصيل الارب فقالت طرق الوصول الى  
 الرزق غير محصورة واسبابه غير محظورة فمنها ما يوصل الى قلبه  
 ومنها ما يوصل الى كثيره على حسب تفاوت الناس واختلاف  
 درجاتهم وتباين حالاتهم وانما الصعوبة في معرفة احسن الطرق  
 الموصلة اليه بالنسبة الى الشخص والاهتداء لسلوكها فان الانسان  
 في حال صغره الذي هو وقت تعلمه لا يتاثر له معرفة ذلك  
 لضعف قوته العقلية كقوته الجسمية فهو اذ ذاك كل على اهله



مضطر للاتباع لم واتباع آرائهم فيوجهونه الى ما يوجهونه اليه ما يرونه نافعاً له وهو لا يدري افي ذلك خير له ام شر وعاقبته نفع له ام ضر فاذا ترعرع وكبر وبلغ اشدّه وملك زمام امره واخذ بحكم عقله في التميز بين ما هو نافع له او انفع وضار او اضر والترجيح بين ذلك والاخيار لما يراه خيراً له فحيث ان يوافق رايه راي اهله فيما ارادوه له واخذوه بسلوك سبيله او يختلف الراي فان خالف رايه راي اهله ولم يستحسن ما اخبروه من اجله كان يكون اهله قد اخبروا له من صغره صنعة الكتابة والزموا الاشتغال بتعليمها فلما كبر لم يستحسنها طبعه ورأى ان الاشتغال بصناعة الخياطة او الحياكة مثلاً خير له من الكتابة لكونه راي بعض المشتغلين بها احسن حالاً وانعم بالاً من بعض المشتغلين بالكتابة فاذا كان كذلك ضاع عليه ما قضا من عمره في تحصيل الكتابة وربما كان ما اخبره بالخياطة مثلاً وان كان انفع له في نفس الامر فرضاً يحتاج الى تعلم ويحتاج التعلم الى وقت قد لا يساعده عليه حاله ثم هو في وقت تعلمه الصنعة التي مال اليها هواه لا يمكنه التكسب منها فان ذلك لا يكون الا بعد اتيان معرفتها مع احتياجه في زمن التعلم الى النقطة وقد يشتغل بتعلمها مدة فيطول عليه زمن التعلم فيسأم ولا يجد فيها كسباً عاجلاً فيندم والحاصل انه يختل حاله ويتذبذب امره ويختار فيما يختار ويكون حاله كما يحكى عن الغراب في الامثال المضروبة انه لم تعجبه مشيته

الموروثة عن آبائه فاراد تقليد بعض الطير في المشية فاخذ يمرن نفسه على ذلك ففسي مشيته الاصلية ولم تحصل له المشية التي ارادها وبقي يجعل في مشيه كما نراه وهكذا حال من ذكرناه ممن خالف رايه راي اهله فيما علموه له في صغره فلا هو حصل الغرض مما اراده ولا انتفع بما كان قد تعلمه بل ربما نسيه بالكلية وضاع عليه ما قضاة فيه من عمره وساء حاله وتخير في امره وربما كان من الاغرار فينضم اليه جماعة من الاشرار فيلعبون بعقله ويزيدونه ضلالاً الى ضلاله وخيالاً على خياله فان كان عنده بعض مال ورثة عن آبائه احتالوا على فنائهم فذهبوا به من مكان الى مكان وانقلبوا معه من خان الى خان الى ان يصبح فقيراً معدماً نادماً سادماً وان كان من اصله فقيراً حسنوا له اموراً قيحة قل ان يحصل منها على الكفاية وربما آلت به الى الفضيحة وعلى كل حال يندم حيث لا يتفعد الندم ويبقى على اسوء الحالات الى ان يدركه العدم واما ان وافق رايه راي اهله واختار ما الزموه بسلوك سبيله فانه تعود عليه منفعة ما تعلمه ويحني ثمرته ولا يضيع عليه ما قضاة فيه من عمره ولا يفصل فاصل بين العلم والعمل وبهذا يحسن حاله ويبلغ الامل واذا تقرر هذا على وجه العموم فلنتقل الى الكلام على وجه الخصوص فنقول لا شك ان اهلك حين ارسلوك الى الجامع الازهر لم يقصدوا لك الا الخير فان كنت راضياً بالطريق الذي رسموه لك فلماذا عرضت عن

متصودهم وزهدت في مرغوبهم فقال لها وكيف ذلك فقالت  
 انت اخبرتني ان والدك المرحوم كان فقيها وامامًا بمسجد قريته  
 فبالضرورة اراد حين ارسلك الى الجامع الازهر ان تكون مثله  
 لتقوم مقامه فلا يخلو حالك الان من احد امور ثلاثة اما ان تكون  
 دونه او مثله او فقت عليه فان كنت دونه كان لك في الاقامة  
 وجه الا انك اذا قارنت ما مضى من العمر بما بقي منه وجدت  
 الباقي ليس وقت تحصيل وان كنت مثل الوالد او اعظم فلا وجه  
 للاقامة حيثذ بل الواجب عليك ان تقفوا اثره فيما كان عليه  
 وتبوع راي والديك فتخلص انت وعيالك من ضيق المعيشة  
 واقامتك في الارياض على اي حالة احسن لان النقة هناك اقل  
 والملوثة ايسر والهواء اتقى واحسن والصحة اكمل ومع هذا يتفجع منك  
 اهل البلد بتعليمك لم امر دينهم وتتفجع منهم انت بما تستعين به  
 على امور المعيشة مما يقسمه الله ويجريه لك على ايديهم وتستفيد مع  
 ذلك ثواب الله بتعليمهم ولا يخفى عليك مزيد ثواب التعليم وان  
 الله سبحانه كما امر العباد ان يتعلموا امرهم ان يعلموا غيرهم ( واذ  
 اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه )  
 وقد قيل العلم كالشجرة فكما ان الشجرة زيتها ثمرها كذلك العلم  
 زيتته العمل به وتعليمه وهذا الذي ذكرته لك مبني على انك راض  
 بما قصده لك اهلك فان كان الامر بخلاف ذلك وانك قصدت  
 متصداً لم يقصدوه ورغبت في امر لم يريدوه فقد ضيعت العمر في

الطلب ولم تدرك ثمرة التعب مع ان من واجب العلم تعليمه للغير  
والآ كان صاحبه كمن لم يعمل بعلمه وقد علمت الوعيد لمن هذه  
صفته نعوذ بالله من ذلك

فقال الشيخ انا بحمد الله لم اترك تعليم العلم من حين وجدت  
في نفسي القدرة على ذلك فاني مواظب على التدريس في الجامع  
الازهر لطلبة العلم مجتهد في تعليمهم على قدر الاستطاعة.  
قالت لا يخفى عليك ان احتياج اهل الريف للتعلم اكثر  
وليس فيهم مثلك يعلمهم واما طلبة العلم في الازهر فانهم  
يجدون كثيراً من العلماء يعلمونهم ولعل فيهم بعض مشائخك  
الذين تعلمت منهم فاهل الريف احوج اليك واولى بك فاقامتك  
بينهم انسب وتعليمك لهم اصوب واعلم انه اذا كان في يدك  
مال تريد ان تصدق به ووجدت رجلاً فقيراً بين قوم اغنياء  
من اهل الخير يوالونه بنفقاتهم ويبرونه بصدقاتهم وعلمت برجل  
اخر مسكين بين قوم فقراء لا يجد من يتصدق عليه بما يسلك  
رمقه ويحفظ حياته من القوت الضروري فمن مقتضى الحكمة  
وحسن الراي ان تؤثر بصدقتك هذا المسكين الذي لا يجد  
من يتصدق عليه وترجحه على ذلك الفقير المقيم بين اظهر المحسنين  
اليه وهكذا حال اهل الريف وطلبة العلم في الازهر من  
حيث الاحتياج الى التعلم وهب انك في مصر لا تفوتك هذه  
المزية من تعليم العلم الشريف فاين غيرها من باقي المزايا التي



## ذكرناها للاقامة في الريف

فقال لها قد اطلت في المقام واكثرت عليّ الملام ولكن  
 هناك اعدار واهوال واخطار لولا مناقشتك ما سمحت نفسي  
 باظهارها لك فقالت له هات ما عندك قال لو علمت حال اهل  
 الارياف وما هم عليه من الظلم والاحجاف لما رغبت فيه ولا رضيت  
 به فانهم لا يرحمون فقيراً ولا يوقرون كبيراً ولا يفهمون قبيلاً ولا  
 يهتدون سبيلاً فقهاؤهم دائماً تحت رايهم وامرهم ونهيمهم وان فهموا في  
 انفسهم غير ذلك فجهلهم وان وصل اليهم شيء من الدنيا فانما  
 يكون بالاحجاج وارقة ماء الحياء فهل يرضى بهذه الحالة والاقامة  
 مع اهل الجهالة من كان ذا فضل وعفة فان اارقة ماء  
 الوجه لا يرضى بها الا جاهل وكيف اعلم ثم ذلك واقع فيه  
 وكل ما اكتسبه منهم لا يقوم مقام بعض ما يضع مني بالاقامة معهم  
 لان العلم يزيد بالممارسة وينقص بعدمها فمع من تكون الممارسة  
 هناك ولا يوجد بقري الارياف الا صاحب ارض فلا يتكلم الا  
 في حرثها وبذرها وحصدها او نجار فلا يتكلم الا في انواع الاخشاب  
 وما يصلح منها للسواني والسقوف والابواب او صياد سمك فلا  
 يتكلم الا في شبكته وفي انواع السمك وبركته وهكذا دأبهم من  
 اول السنة الى اخرها فلا يقيم معهم الا من كان مثلهم فان اقام  
 عندهم عالم ضاع علمه وتبدلت صفاته المحمودة باضدادها لان الطبع  
 يسري كما قيل.

طبع الفتى يُسرق من طبع مَنْ \* يصحبه فانظر لمن تصحب  
 فقالت له اما ما ذكرته من سوء حال اهل الريف فهو حجة  
 لي عليك لا لك عليّ فان هذا ان كان كذلك فانما هو من  
 شدة جهلهم فهم اذا احوج الى مثلك يقيم بينهم فيقوم بتعليمهم  
 وتفهيمهم ما يجوز وما لا يجوز وتوقيفهم على ما ينفع وما يضر واما  
 قولك ان من يكون عندهم يضع علمه فحسبك في هذا قوله  
 تعالى ( واتقوا الله ويعلمكم الله ) واما ما ذكرت من ان من يقيم  
 معهم تسري اليه طباعهم ومساوي اخلاقهم وقد خفت ذلك على  
 نفسك فهذا ليس بالنسبة لك ولا مثالك الذين كملت نفوسهم  
 ورسخت في المعرفة اقدامهم واستنارت بنور اليقين بصائرهم وانطبعت  
 على الحق واهدى قلوبهم وانما يخاف من ذلك على الاحداث  
 والاغرار الذين لم يبلغوا من الفضل تلك الدرجة ولا وصلوا من  
 الكمال الى تلك الغاية اما الكاملون المكملون فلا يؤثر في حسن  
 طباعهم سوء طباع غيرهم بل يعلو حتمهم على باطل سواهم ويسطو  
 نور معرفتهم على ظلمات جهل غيرهم فان الريح العاصف اذا  
 اقتلعت الشجرة والمدرّة والصخرة فلا تقتلع الجبل الرايح ولا ترحزحه  
 عن مكانه وقد علمت ما علمت من حال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وغيره من الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم  
 اجمعين كيف اقاموا بين قومهم من الكفار والمشركين الضالين  
 المضلين يدعونهم الى الحق ويرشدونهم الى الهدى وياخذون بأيديهم

الى سبيل النجاة ويرشدونهم الى مكارم الاخلاق وينفرونهم عن  
 ذميم الاحوال وليس حال من احضك على تعليمهم واحثك على  
 الاقامة بينهم كحال اولئك الذين كان يقاسي منهم الانبياء ما  
 يقاسون وهم يدعونهم الى الله تعالى ويرشدونهم الى الخلاص من  
 الهلاك فقال الشيخ او نحن كالانبياء والمرسلين قالت قال الله  
 سبحانه ( لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ) وقال جل  
 شانه ( قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني ) وقال عز من قائل  
 ( قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني ) فكمال  
 اتباعه صلى الله عليه وسلم بالدعاء الى الحق وارشاد الخلق كما كان  
 دابه وديدنه طول حياته وقد اتبعه في ذلك من بعده جماعة  
 الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين فهدى الله كثيراً  
 من الخلق على يدهم فهم على الحقيقة ورثة الانبياء صلوات الله  
 وسلامه عليهم اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وعلى الجملة  
 والتفصيل فقد ظهر من قولك وفعلك مخالفة رأيك لرأي اهلك  
 فانك لو اقتصرت على ما كان حصل عليه الوالد من حفظ  
 القرآن الشريف وبعض خطب ومعرفة ما تدعو اليه الضرورة  
 ويكثر ميسر الحاجة اليه من فروع الفقه لتبعت رأيهم فيما قصدوه  
 ولكنك علمت اموراً جهلوا فكرهت ما احبوه وعدلت عما ارادوه  
 واذا لم تر ما رآه فاي طريق رضيت لنفسك وما هو المقصود  
 الذي تروم الوصول اليه فان كان مرادك من العلم امر الدنيا فيها

انت لم تحصل منه على الغرض وان كان مرادك الدين والتقرب الى الله سبحانه فقد قلنا ان تعليمك المحتاجين اشد الاحتياج للامور الضرورية من دينهم اولى واقرب الى الله واكثر ثواباً مما اراك تقضي فيه عمرك وتشغل به اوقاتك من البحث والجidal والتيل والقال والجواب والسوال والحلب والاشبكال واعترض واجيب وفيه نظر ويرد عليه وقد يقال ولا يقال ونحو ذلك مما انت عاكف عليه ومنهمك فيه ومقتصر على تعليمه لجماعة من الناس في موضع معين من الجامع الازهر لا تتجاوزه ولا تخطاه الى غيره كأنما جاء التنزيل والنص القاطع بان العلم لا يتجاوز ذلك الموضع من ذلك الجامع

قال الشيخ قد يوفق الله سبحانه من اعلمهم العلم في ذلك الموضع فيتعلمون وينشرون في الارض يعلمون الناس ويقومون بهذا المهم

قالت فما الذي يؤمنك ان الذين يتعلمون علمك يكونون مثلك ويسلكون سبيلك في الاقتصار على طائفة في ذلك المكان المخصوص فيبقى العلم منحصراً فيه والمطلوب انتشاره وتعميم النفع به وهب انهم لا يكونون على طريقته فاذا سلمت ان الذي اشرت به عليك افضل مما انت فيه فلم لا تختار الأفضل لنفسك وتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير

قال لا نسلم ان ما اشرت به افضل



قالت اسالك عن شيء واناشدك الله ان تقول الحق ولا تحاول في الجواب قال سلي عما شئت قالت اذا فرض رجل من العامة وقع بسبب جهله في عقيدة مكفرة لا يتم معها ايمانه فنيهته عليها حتى صحت عقيدته وتم ايمانه ورجل اخر منهم كان لا يحسن وضوءه مثلاً فصلاته بالضرورة فاسدة فعلته كيف يتوضأ فصار يحسن الوضوء الموقوف عليه صحة الصلاة ورجل من طلبة العلم كان يجهل مسألة من الصرف او النحو او البيان او المنطق مثلاً فعلته اياها حتى اتقنها غاية الاتقان فتواييك في اي واحد منهم اكثر وتعليم ايمهم عند الله افضل

قال الشيخ الحق احق ان يتبع اللهم اني ارى ان تعليم الاول افضل من الثاني ثم الثاني افضل من الثالث

قالت فاذا لم يبق بيننا نزاع في ان الافضل تعليم هؤلاء المساكين المحتاجين لمعرفة الاوليات المهمة من دينهم وانت ترى التاجر في السوق اذا خیر بين سلعتين من امور تجارته اخار ما يعلم انه اكثرها له رجاء وفائدة اذا كان له ادنى عقل فان كنت انت من تجار الآخرة فلم لا تفعل مثل ذلك ولم تخالف المعقول فتترك الافضل وتقتصر على المفضول حتى انك ترى كثيراً من جيراننا ومن حولنا من اهل هذه المحلة جهلاء بكثير من الامور الضرورية لهم في دينهم فمنهم من لا يحسن الصلاة ولا الوضوء ولا يفرق بين طهارة ونجاسة ومنهم من يعتقد بعض عتائد فاسدة مضرة ومنهم

من يقول كلامًا يكفر به وهو لا يشعر ولا ينجد من يعلمهم أو ينبيههم  
وتراهم على هذه الأحوال ولا تبالي بامرهم ولا تهتم بشانهم وهم جيرانك  
وأخوانك وانت تعلم انه لو قصد احدهم الازهر على الفرض  
والتقدير ووقف على دروس العلماء فيه فانه لا يعقل ما يقولون  
ولا يتفهم بما يقررون فانهم يتكلمون بما لا يفهمه من الالفاظ  
الاصطلاحية بل انت تعلم ان الواحد منهم لا يدري فساد عقيدته  
او عبادته حتى يسعى في تصحيحها فلو قصدت وجه الله سبحانه  
بعلمك وعملت بمقتضى محبة الله ورسوله واملته وامته لكنت تشفق  
عليهم وتنصح لهم وتواظب في وقت من اوقات الليل والنهار على  
مسجد محلتنا القريب من دويرتنا هذه فتعقد فيه بين المغرب  
والعشاء مثلاً وتعقد لمن تراه هناك منهم درسا تعلمهم به كيف  
يتوضأون ويصلون ويصومون وكيف يعبدون الله تعالى عبادة  
صحيحة وكيف يكون البيع صحيحاً وكيف يكون فاسداً ونحو ذلك  
من الامور الضرورية لهم في دينهم ودنياهم فمنهم من تنصلح على يدك  
عقيدته ومنهم من تصح بتعليمك عبادته ومعاملته وفي ذلك من  
الاجر والثواب والمنزلة عند الله سبحانه ما لا يقدر اللسان على  
وصفه وانت اعلم مني بقدره مع انه لا يقطعك عما انت بصدده  
فلم تعرض عنه وقد علمت ان الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة  
المسلمين وعامتهم فاعراضك عنه لا يظهر له وجه الا اذا قلت  
معتمة على حسن عفوكم مغترة بفرط حلمك راجية عدم المواخظة

من جهتك ان قصدك بالعلم مجرد التباهي به والتظاهر بالتجرف فيه  
والقدرة على التعمق في مسائله الدقيقة والخوض في بحاره العميقة  
فتقول لك نفسك ان تعليم هؤلاء العوام لا يحتاج الى كثرة علم  
وجودة فهم فلا يظهر به فضل الانسان وسعة علمه وحدة ذهنه  
فما لك به وليس لك فيه فائدة وامثال ذلك مع ان فيه اعظم  
فائدة من ثواب الله ورضاه ورحمته والتقرب من حضرته فلا هذه  
المنزلة وصلتها ولا مقاصدك من امور الدنيا حصلتها ولو اخلصت  
لله سبحانه النية والعمل لأنتك الدنيا من حيث لا تحتسبها  
وانقادت اليك عفوا على ان الاشتغال بامور الدين وابتغاء مرضاة  
الله لا ينافي الاشتغال بامور الدنيا من وجوه الحلال فاعمل  
لاخرتك ودنياك معاً وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس  
نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك وقد تربيت في  
كفالة اهلك في صغرك فعليك ان تعمل ذريتك وعيالك في  
كبرك وتسعى لهم بما يصلح حالهم وينعم بالهم من المعاش الطيبة  
بالكسب والسعي في طلب الرزق الحلال وابتغاء فضل الله سبحانه  
وقد قال جل جلاله ( فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل  
الله ) وقال ( وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل  
الله ) وقرأت في كتاب مرشد المؤمنين لمحمد بن عبد الكريم  
الحلي بخطه نقلاً من مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما  
قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من الذنوب ذنوباً

لا يكفرها الصلاة ولا الزكاة ولا الحج ولا العمرة ولا الجهاد يكفرها  
 اللهم في طلب المعاش وما ثقله منه عن ابي سعيد الخدري رضي الله  
 عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل الاعمال الكسب  
 من الحلال ومنه عن انس رضي الله عنه قال رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه  
 حتى يصيب منها جميعاً فان احداها بلغة الاخرى ومنه عن انس  
 ايضاً من لم يقم في امر معيشته لم يقم بامر دينه والنفس لا تكون  
 متفرغة للطاعة حتى يكون بكفها الكسرة التي تقوم بها فاذا استكملت  
 امور قوتها صدقت عند ذلك وسكنت وتفرغت للعبادة فاغدوا  
 وروحوا واطلبوا من فضل الله وامثال ذلك في الحديث الشريف  
 كثير . وروي ان عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال ما تصنع  
 قال اتعبد قال من يعولك قال اخي قال اخوك اعبد منك  
 وقال لقمان لابنه يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فانه ما  
 افتقر احد قط الا اصابه ثلاث خصال رقة في دينه وضعف في  
 عقله وذهاب مروءته واعظم هذه الثلاث استخفاف الناس به وقال  
 عمر رضي الله عنه لا يقعد احدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم  
 ارزقني فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وكان زيد ابن  
 مسleme يغرس في ارضه فقال له عمر رضي الله عنه اصببت استغن  
 عن الناس يكون أصون لدينك واكرم لك عليهم وكان اصحاب  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ويغرسون



ويعملون في نخيلهم وهم أئمة الهدى وبافعالهم يقتدى فما هذا التقاعد والتقاعد عن الكسب والسعي في طلب الرزق وما لك لا توسع على عيالك ومالي اراك تصرف جميع اوقاتك في المطالعة والبطالة وهلاّ قسمت وقتك قسمين قسم تصرفه في العلم والعبادة والقسم الاخر في طلب الرزق واذا كنت لا تطيب نفسك بالاقامة في الريف معاً ذكرت لك فلا بأس عليك اذا تشبثت هنا بالسعي على العيال والكسب من الحلال مع الاشتغال بتعليم الطلبة وبعض العوام من الجهال

فقال وأي سعي تريدني وما الذي تريته

فقلت العاقل من اقتدى باهل حرفته وامثاله وخرقته وقد علمت ان كثيراً من امثالك لم مرتبات ووظائف واقطاعات ولا أرى احدا منهم الا وهو ساعٍ في طلب الرزق ان كان فقيراً وفي زيادته ان كان غنياً فلو تصديت لهذا الامر وسعيت فيه فما اظن ان سعيك يضيع عليك فقد قيل من جد وجد ومن لج ولج فاقصد من تتوسم فيهم الخير من ارباب الكلمة وتودد اليهم وتعرف بهم فان عرفوا كنه قدرك ووقفوا على حقيقة امرك اعترفوا بفضلك وعظموك ووقروك ولا ارى في ذلك من محترم ولا مكروه بل ربما كان واجباً فانا مامورون بالسعي والناس جميعاً سنيهم وفقيرهم محتاجون لبعضهم وربما كان احتياج الغني الى الفقير اكثر من احتياج الفقير اليه لان الغني يغلب

عليه حب العظمة والترفع والترفع فلا يشتغل إلا بالامور المهمة الكلية ويكل أموره الجزئية لخصائمه الى غيره فيحتاج للفقير ليقوم له بها ثم ان كان ذلك الغني صاحب مرق ومعرفة انقطع الفقير اليه ولازمه وان كان بخلاف ذلك تركه ولاذ بغيره وهكذا حال الفقراء والاعنياء مع بعضهم

فقال لها هذا الكلام في ذاته لا شك فيه ولا زيب يعتريه ولكني قد امتحنت جميع الوظائف واصحابها واخبرت حالهم مع روائسها ونظارها فلم اجد وظيفة عارية عن الذل والاهانة ولو قام صاحبها فيها بالصدق والأمانة ولا يقيم فيها الا من عدل عن الحق واتبع أهواء الخلق فان كل صاحب وظيفة لا يخلو عن أحد أمرين أما ان يتبع هوى الخلق واما ان يتبع أمر الخالق فان اتبع الخلق فقد استوجب غضب الله عليه وان اتبع الخالق فقد تسبب في امتداد السنة الناس اليه فيكرهونه ويذمونه ويشنعون عليه ويتقولون عليه ما لم يقل وينسبون اليه فعل ما لم يفعل ولا يزالون به حتى يعزل ولا يخفى ان الم العزل أضعاف لذة المناصب . قال الشاعر .

سكر الولاية طيب \* وخمارها صعب شديد

كم تائه بولاية \* وبعزله يغدو البريد

فيأتي الحالتين ترضين واي الامرين تريدن وهل بعد هذا العمر وظهور الشيب يليق بي ان اذل نفسي واسعى فيما يوجب

لها غضب الله او اطلاق السنة الناس عليّ فتضيع دنيائي  
 واخوتي واظن ان الحال الذي نحن فيه أحسن الاحوال  
 لسلامتنا فيه من السنة الناس بالعزلة عنهم كما قيل  
 فان تجنبها كنت سلماً لاهلها

وان تجنبها نازعتك كلابها

فانا وان كنا في ضيق من العيش فثنا كثير وربما كنا  
 احسن من غيرنا وانا أعد نفسي من السعداء حيث زوجني الله  
 بك فكنت موافقة لي في العلم والعمل وفي الخبر من سعادة المر  
 الزوجة الصالحة فهذه الحالة عندي أفضل من الرتب الموقعة  
 في العنا والتعب واذا نظرنا الى غاية الأمر رأيناها في الحالتين  
 واحدة فكما يموت الفقير يموت الغني ولو تأملنا حال كل منهما  
 في الدنيا لرؤينا بالفقر فان الغني في الدنيا دائماً في معاناة رسوم  
 كثيرة غير مربوطة وملاحظة عوائد غير مضبوطة وحركاته  
 وسكناته مشهورة واقواله وافعاله ماثورة مذكورة يلتقطها  
 الناس ويحرفونها عن مواضعها ويحملونها على غير ما اريد بها  
 ويستنجون منها شراً وربما كان قد اراد بها خيراً فتنتلق  
 السنة العوام بسببه وذمه وعيبه وتصير سيرته في الازقة شائعة  
 وفي البلاد منتشرة ذائعة فلا يهناً بئام ولا يتم له نظام ولا يدخل  
 منزله الا وفكره مشغول قد آله السقم والم به التحول فيبيت  
 سمير الارق ندیم الوهم والقلق فاين هو ما نحن فيه الآن ومن ذا

الذي يرضى استبدال الله وعناء بلذة راحته وهناه  
فقلت له ان الذي قدرته بوجهك وتخليته بفهمك مسلم من  
جهة واحدة تعارضها جهات متعددة منها ان الدنيا كما علمت  
دار تعب فكيف ترجو الراحة فيها ومنها ان الغنى نعمة من نعم  
الله يخص به من يشاء من عباده فكيف يكون سبباً لدم  
صاحبه وصرف النظر عنه وذلك يؤدي الى البطالة المؤدية  
الى الفقر الموجب للذلة والمسكنة طول العمر واما قولك انا  
في سلامة من السنة الناس بالعزلة فجن ان سلمنا السلامة بهذه  
الحالة من السنة الناس فلا سلامة فيها من أسنة الفقر  
والافلاس وابن السلامة وانت تنظر كل وقت الى حالنا وضيق  
عيش عيالنا فكيف يطمئن قلبك بالعزلة واولادك يشكون الم  
الجوع والقلّة افلا يكون ذلك مشوشاً لفكرك مهيجاً لخاطرك  
فانك ان كنت مقطوعاً عن الخلق في منزلك فاموالهم واحوالهم في  
قلبك فليست العزلة مجرد حبس الاجسام كما ان الصوم ليس  
مجرد الامتناع من الشراب والطعام والا لكانت متبعة في اهل  
السجن والجرائم العظام وسأذكرها هنا مقدمة أهد بها للكلام ثم  
اخوض معك في حديث المرام فاقول ان كل انسان لا يرى  
الاشياء الا على حسب ما تظهر له فان وقف على حقيقة امرها  
واطلع على ما كمن من سرها ظهرت له من جميع جهاتها فحكم  
عليها بما يستحقه في ذاتها وبالنظر لعامة حالاتها والا ظهرت له



المسئلة من جهة واحدة فيحكم فيها بما تقتضيه تلك الجهة دون  
سائر جهاتها وقد قالوا ليس العلم الا ما كشف الغطاء عن  
الأسرار الربانية واطلع صاحبه على الحكم الالهية ولذا قال أسد  
الله الغالب علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لو كشف الغطاء  
ما ازددت يقيناً حتى انهم شبهوا صاحب العلم برئيس الجيش  
هذا يفتح القلاع بخيلة ورجله وذاك يملك القلوب برأيه وقوله  
ورئيس الجيش وان كان يكشف عن مكنون القلاع فالعالم  
يكشف عن حقائق الطباع ويغوص بحار اسرار المخلوقات  
ويستخرج ما استتر من عجائب المصنوعات فكما يستولي رئيس  
الجيش على الممالك بقوته فكذلك العالم يجذب القلوب بنور  
بصيرته فالخلق مفتقرة الى العلم في سائر البلاد كافتقار الظمان  
الى الماء والمسافر الى الزاد لانه لا دوام للملك الا بحسن التدبير  
ولا تدبير الا بالعلم فانقوة الحيوانية محتاجة للقوة الروحانية  
والاوى مأمورة وتابعة والثانية آمرة ومتبعة فامرر الدنيا لا تتظم  
الا بالعلم والعالم بالنسبة للعلم كاللسان بالنسبة لصاحبه فكما  
ان اللسان يترجم عما في القلب اذ لولاه ما علم احد ما في ضمير  
الاخر فكذلك العالم يفصح عن حقائق المعلومات وغرائبها ولا  
يحملها على غير ما اريد بها واظن ان غالب اختلاف الخلق من  
اختلاف نظرهم فمنهم من ينظر الى الشيء في اعم احواله فيحكم عليه  
بما يستحقه ومنهم من ينظر اليه من جهة فيحكم على كل جهاته بما

حكم به على تلك الجهة ومن ذلك الوجه كان ذمك للغنى فانك لم تنظر الا لما توهمته فيه من التعب والمشقة اما لكونك لم تله فلم تعلمه حق علمه واما لكونك لما حرمته كرهته فذمته وان كنت قد علمته ولو انك عملت بمقتضى علمك وما اعلمه من سعة فهمك لنظرت ايضا لما فيه من الفوائد الجمة والمزايا المهمة كالتوسعة على العيال والافارب ومواساة الجار والصديق والصاحب واغاثة الملهوف واعانة المحتاج وتنفيس كربة المكروب وايواء الغرباء وكفالة الايتام وإطعام الطعام والاعانة على نوائب الايام وغير ذلك مما ينفع الانام ويوجب خلود الذكر ومزيد الاجر على الدوام وانت ترى ما لكثير من الاغنياء الموقفين من الخيرات والصدقات والمبرات والمكاتب والرواتب والمصاطب والمدارس والمساجد والتكايا والمعابد ونحو ذلك مما يطول استقراؤه ولا يمكن استقصاؤه فلو نظرت الى الغنى من هذه الجهات لحكمت بتفضيله وسعيت في تحصيله ولكنك نظرت اليه من جهة واحدة فعبته من اجلها وتحاميته بسببها ومن كان هذا حاله فمثله مثل من يعلم ان النار من ضروريات المعيشة على الاطلاق ويمتنع من ادخالها بيته خوفاً من الاحراق فلو تحفظ مما يوجب سريان شررها لاستعملها وامن من شرها فكذلك الغنى فانه وان كان قد يؤدي الى بعض مضرات لكن نفعه اكثر من ضرره ولا ينكر ذلك الا متجاهل او جاهل وحاشاك وايس الغنى للعلماء

بدعا ولا تحصيلهم له متمنعا فان العلم بانواعه يستعان به على  
 مصالح الدين والدنيا وان الملك لا يستغني عن العلم واهله  
 وانما يلزم العالم اذا كان في وظيفة ان يكون مع المخلق كالطبيب  
 الماهر مع المريض فكما ان الطبيب يعاين احوال المريض ويامر  
 له بالدواء على حسب ما يراه حتى يحصل الشفاء له فيثني عليه  
 ويشكر فضله كذلك العالم الموظف يكون بين الناس ناظرا الى  
 ما تقتضيه طباعهم وامزجتهم وما يناسبها من الاحوال والافعال  
 فيعامل كلأ منهم على قدر عقله وعلى حسب حاله وما يليق  
 به من غير عدول عن الطريق القويم والصراط المستقيم فقد  
 قيل

احمل الناس على اخلاقهم فيه تملك اعناق البشر  
 فتبيل عند ذلك قلوبهم اليه ويصدقون بالاحسان عليه  
 ويقتدون بفعله وقوله ويخرج من مذمة من خالف علمه بعمله  
 وهناك يغفر الله وزره ويضاعف أجره لان العامل بعلمه ينفع  
 نفسه وينفع غيره وهو بين الناس كالغيث فكما ان الغيث يتنفع  
 به الحيوان والنبات كذلك العالم العامل تغذى به ارواح  
 المخلق ويتعلمون منه ما ينجيهم من غضب الحق ومن كانت  
 هذه حاله فالاحسان اليه مبدول ودعاؤه عند ربه مقبول  
 فقال الشيخ لا بأس بما تقولين ولا شك في كثرة فوائد  
 الغنى للعاقل البصير الموفق ولكن لو تسر لي سلوك سبيله ما

قشرت في تحصيله ولو لم يكن من فوائده إلا رضاك وإبتهاجك  
وحصول اغراضك لكان هذا لي كافياً في الرغبة فيه والإقبال  
عليه ولكن كيف السبيل اليه . وابن الثريا من يد المتناول .  
قالت السبيل الى ذلك ان تعمل بعلمك وتنفع الناس  
بفضلك وفهمك

قال الشيخ سبجان الله واي عمل خالفت فيه مقتضى العلم  
من أعمالي وانت أعلم بجميع أقوالي وأفعالي وأما التعليم فليس لي  
اشتغال إلا به ولا تعلق إلا بسببه وتعليمك انت أقوى دليل  
والله على ما تقول وكيل

قالت ما لهذا قصدت

قال وما الذي أردت

قالت من اخطأ الطريق ضل ومن عدل عن الصواب زل  
اذا ما اتيت الأمر من غير يابه

ضللت وان تدخل من الباب تهتدي

ومن عرف مقاصد العلم وصل الى مطلوبه وحصل على  
مرغوبه ومن لم يدر ما يراد من العلم وقع في عناء مستمر ولا  
يزال كذلك حتي يتقضي العمر فيلزم مرید اي علم ان يعرف قبل  
تعبه ثمرة علمه وطلبه والا كان كراكب البحر من غير دليل فان  
لم يغرق لا يصل الا بعد زمن طويل وقد علمت ان جميع  
المخلوقات تنقسم الى جوهر وعرض يقوم به ويدخل في العرض



الالوان والاحوال والافعال ويدخل في الجواهر الحيوان والنبات  
والمعدن وتحت كل منها أنواع وتحت كل نوع افراد كثيرة  
بالغة في الكثرة الى حد يغلب العد ولها في وجودها وبقائها  
وفنائها قوانين عمومية وخصوصية وروابط كلية وجزئية اجراها  
عليها الخالق الحكيم القادر جل شأنه ولكل منها في ذاته  
واحواله اللاحقة لثة والمتعاقبة عليه لفظ يعبر به عنه وخاصة  
تقوم به وحكم يحكم به عليه ولا يحيط بهذه الاشياء بجميع  
افرادها واحوالها كما هي عليه في نفس الامر الا العلم الخبير الذي  
خلقها وصورها ودبرها وقدرها وأودع فيها ما أودع من اسرار  
حكمته وغرائب صنعته وعجائب قدرته فعلمه هو العلم الحقيقي  
على الاطلاق لا يغرب عنه مثال ذرة في السموات ولا في الارض  
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وهذا الحد لا يمكن للعقول البشرية  
ان تناله ولا تقرب منه بل تتلاشى وتفصل دونه واما علمنا بها  
فهو قسمان القسم الاول علم حقيقي بالنسبة للانسان وهو معرفة  
ما يتأتى للعقول البشرية ادراكه ومعرفته من افرادها واحوالها  
الاصلية والطارئة عليها بالصناعة والتركيب والتحليل وطريق  
تحصيلها وكيفية استعمالها والانتفاع بها وخواصها واحكامها وحلالها  
وحرامها ويدخل تحت هذا القسم علوم التاريخ والرياضيات  
والكيمياء والطبيعة والطب والشرعية وفروعها . القسم الثاني علم  
ملحق بالحقيقي ووسيلة لثة ويسمى علم الآلات وهو علم اللسان

فیدخل فيه الصرف والنحو والبيان والعروض واللغات بأسرها  
 فمن اقتصر على العلم الملحق بالحقوقي لم يكن عالماً حقيقياً بل  
 يكون كمن اكتفى باسم الخبز عن ذات الخبز ومن علم العلم  
 الحقوقي كان له ان يجني الثمرة وينال البغية وانت بحمد الله قد  
 اخذت من كلا العالمين بنصيب وافر وبلغت الى درجة شريفة  
 فمن ذلك انك فقيه عارف بالمذاهب الاربعة مستحضر لاصولها  
 وفروعها وهذا علمك وفنك الذي كنت اكثر اشتغالا به فلا  
 اقول لك اترك الققه واتقطع الى الطب أو الهندسة أو الفلاحة  
 مثلاً بل اقول يلزم ان تكون موظفاً بوظيفة تعمل فيها بعلمك  
 وتنفع وتنفع فيها بجودة فهمك وشدة حزمك فهذا الذي اشرت  
 اليه وعولت عليه فتوكل على الله واجتهد في تحصيل وظيفة من  
 الوظائف من غير ان تلتفت الى مربوطها ومرتباتها فقد قالوا  
 وكاذب الفجر يبدو قبل صادق

وأول الغيث قطر ثم ينهل

فان اجتهدت في ذلك وسعيت ولم تصل فاعلم ان الذي  
 تعلمته غير ما كان يلزم ان تتعلمه او ان هذا البلد غير البلد  
 الذي ينبغي لك ان تقيم فيه فاما ان تغير الفن او تغير البلد  
 وغير ذلك لا اقول وفيما جري بيننا من المناقشة كفاية  
 قال الشاعر

على المرء أن يسعى الى الخير جهده  
 وليس عليه ان تم المطالب  
 وقال اخر  
 لا تيأسن اذا ما كنت ذا ادب  
 على خمولك ان ترقى الى الفلك  
 فينما الذهب الابرز مختلط  
 بالترب اذ صار اكليلاً على الملك  
 فقال لما دعيني اتفكر في اي الامرين اولى وهل ينشرح  
 خاطري لموافقتك ام لا

### المقامة السادسة السائح الانكليزي

وقام من عندها وتوجه الى الجامع كعادته وهو متفكر فيما  
 جرى بينه وبين زوجته وكان قلبه يميل لرغوبها لادخال السرور  
 عليها وعلى اولاده لكن لا يدري كيف يصنع وكان يقارن في  
 نفسه احوال احد الامرين باحوال الاخر ويقدر ما في كليهما  
 من منفعة ترجى او مضرة تحذر ثم ترجع عنده الرحيل عن البلد  
 وكنتم هذا الامر ولم يفشه لاحد واخذ في أسباب معرفة احوال

البلاد والاقطار تارة بالسؤال من اهلها وتارة بمطالعة كتب  
السياحات والاعخبار واقام ينتظر الفرصة فلم تمض الا ايام قليلة  
حتى اتفق ان رجلاً من مشاهير الانكليز المشتغلين في بلادهم  
بتعلم اللسان العربي وقراءة علومه حضر الى مصر القاهرة ولقي  
حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر واطلعه على بعض رسائله معه  
من الامراء والكبراء تتضمن التنويه به وطلب رعايته وانهى اليه  
انه من عشاق اللغة العربية وطلابه والمتعلقين باهدائها وان  
عنده نسخة من كتاب لسان العرب في اللغة للعلامة محمد بن  
المكرم ابن ابي الحسن الخزرجي الانصاري رحمه الله وانه لما  
راه في هذا الكتاب من كثرة فوائده وغزارة مادته وعظم نفعه  
وجمعه من متفرقات اللغة ما لم يجتمع في غيره من كتبها المتداولة  
يريد طبعه للتجارة فيه وتسهيل تناوله لطلابه فان تحصيله بخط  
القلم لا يتيسر الا للاغنياء واهل الثروة بسبب كبره وضخامته مع  
قلة نسخه وندرة وجوده وانه حضر الى مصر يقصد تصحيح النسخة  
التي معه من هذا الكتاب لاجل الطبع منها والنس من حضرة  
الشيخ ان يدلّه على استاذ من افاضل العلماء المتبحرين في تصحيح  
الكتب ويقرأ عليه بعض العلوم العربية ويجعل له في نظير  
ذلك راتباً كافياً يرضيه ويعوض تبعه فان اقتضى الحال في اثناء  
ذلك سفره من مصر الى بلاد الانكليز او غيرها استنصبه معه  
بشرط ان يضاعف له مرتبه ويتكفل مع ذلك بمؤنّة ونفقته

ولوازم سفره حتى يرجع الى مصر فذكر له الشيخ جماعة من افاضل العلماء المتفنين المعروفين بمجدة الذهن وجودة الفهم والتمكن في الدين والعلم ودله عليهم وقال له اجتمع بهم وتكلم معهم واسترضهم بما امكن فمن رضي منهم ففيه الكفاية وزيادة فاجتمع الانكليزي بعضهم وتكلم الشيخ ايضاً مع بعضهم فما سمع ذلك احد منهم الا امتنع واعتذر خصوصاً حيث يسمع بالسفر فمنهم من اعتذر بكبر سنه وضعف بدنه ومنهم من قال انه لا يطيق مفارقة اهله ووطنه ومنهم من رأى ذلك لا يجوز في الدين بظنه وكان الشيخ علم الدين في جملة من ذكرهم الاستاذ شيخ الجامع الازهر للرجل الانكليزي فسأل عنه واجتمع به في مجالس متعددة فرأى منه ما اعجبه وجذب قلبه من سعة اطلاعه وحضور ذهنه وجودة قريحته وحسن اخلاقه وكرم طبعه فشغف بحبته ورغب كل الرغبة في صحبته وكلمه ذات يوم في ذلك ورغبه في موافقته على قصده وكان علم الدين في اجتماعاته مع الرجل قد رآه مهذب الاخلاق حسن الصحبة سخي الطبع يتودد للمسلمين ويظهر ميله اليهم وتمنيه الخير لهم ومحبة العرب ولسانهم وعلومهم فانس به ولم ينفر من صحبته فلما كلمه في ذلك قال اني اجد نفسي لا تأبى ما ذكرته ولكن امهلي الى الغد حتى اتفكر في نفسي فان الراي اذا لم يبيت ويثبت فيه كان كالجنين المولود لغير وقت ولادته واريد ان استشير اهلي وبعض اصدقائي فاننا



مأمورون في ديننا بالاستشارة في أمورنا

فقال له الانكليزي لك ذلك وسترى مني ان رغبت في صحبتي كل ما يسرك ويرضيك ويعجبك وموعدنا الغد في هذا المكان وفي مثل هذا الآن ثم قام وتركه فجلس الشيخ علم الدين يفكر في نفسه ويضرب اخماساً لأسداس ويشاور من يثق برأيه ومحبتة له من الناس فترجع عنده موافقة الرجل على طلبته ووافقته على ذلك من استشاره من احبته وفي خلال ذلك أحس برغبته بعض طلبته وكانوا يحبون ان لا يفارقهم لكثرة افادته لهم وترددهم عليه ورجوعهم في حل ما اشكل عليهم من المسائل اليه فارادوا ان يحولوا رأيه ويصرفوا عن هذا الامر نظراً واجمعوا رأيهم على ان يئذل كل منهم غاية جهده في منعه وصدده عما هو بصدده فاجتمعوا اليه وجلسوا حواليه وقالوا أدام الله ايها الاستاذ تمكينك وحرس دنياك ودينك قد سمعنا من بعض الناس ان هذا الرجل الانكليزي قد استمالك الى موافقته على مراده ومرافقته الى بلاده وغير بلاده فاعظمنا ذلك وأكبرناه ورددناه وانكرناه وقلنا حاشا لله ان يخطر لسيدنا الشيخ ببال او يتصور له في خيال ان يرضى بخدمة رجل على غير دينه يعلمه علوم الشريعة طمعاً في المال او في حال من الاحوال لما نعلمه من زهدك وورعك واستقامة رأيك وسلامة طبعك وقد علمت قول الله سبحانه في التنزيل (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم

اوليآء تلقون اليهم بالمودة ) الى قوله ( ومن يفعله منكم فقد ضل  
سواء السبيل ) ثم لا يخفى عليك ما في مفارقة الاهل والاطوان  
وما جاء من ان حب الوطن من الايمان ولا ينكر ما في ركوب  
البحر من الخوف والخطر وما جاء من ان السفر قطعة من العذاب  
او العذاب قطعة من السفر ويقال الغربة كربة والثقل مثله لا  
سيما لذي قلة

ان الغريب الطويل الذيل ممتهن

فكيف حال غريب ماله مال

وقالوا عسرك في بلدتك خير من يسرك في غربتك

لقرب الدار في الاقتار خير \* من العيش الموسع في اغتراب

فقال الشيخ علم الدين اما الخدمة فليس مراد هذا الرجل ان

اخدمه وانما هو تصحيح كتاب يعي المسلمين نفعه اذا كان يتم طبعه

فان كثيرا من الناس انا من جعلتهم يمتنون ان يحصلوه ولا يتيسر

لهم ان ينالوه بسبب كبره واحتياجه استكثابه الى مدة كثيرة ونفقة

غير يسيرة فاذا طبع كثر تداوله وتيسر تناوله فانا انما اخدم العلم

والعلماء بذلك والاعمال بالنيات والله سبحانه مطلع على السرائر

واذا علمت الرجل شيئا من العلم فليس المعلم كالخادم فان من

شان المعلمين التكريم والتوقير ومن شان الخادمين الاهانة

والتحقير وليسوا سواء وربما كان في تعليم العلم لمن لم يكن على

ديننا فائدة فقد يقف على حقائق ديننا فيحبه ويميل اليه ويرجحه

على غيره فيسلم . فان لم يسلم وبقي على دينه كان في بلاده وابناء  
 وطنه كالوكيل عنا يدافع عن ديننا برد الاقاويل التي  
 يلقيها بعض علماءهم في حقنا وانا قد احسست في هذا  
 الرجل رغبة النظر في الادلة والاصغاء الى الحجّة والطلب للعلم  
 فلا ارى في تعليم مثله بأسا وقد قال الله سبحانه في سورة التوبة  
 ( وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم  
 ابلغه مأمنه ذلك بانهم قوم لا يعلمون ) وقد نزلت في المشركين  
 الذين تقضوا العهد فبذروا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم  
 عهدهم وامر بقتالهم فقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 لما خرج الى غزوة تبوك وتخلف المنافقون وارجفوا بالاراجيف  
 جعل المشركون يتقضون العهد فبذروا اليهم عهدهم وهذا الرجل  
 الذي تتكلم فيه من جملة المعاهدين لنا الذين لم تعهد تقضهم لعهدنا  
 فليس بمثابة اولئك المحاربين من المشركين ومع ذلك فقد جاز بمقتضى  
 هذه الآية الشريفة اسماعهم كلام الله عز وجل وهو منبع العلم  
 والدين قال الامام فخر الدين الرازي على هذه الآية في تفسيره  
 الكبير نقل عن ابن عباس رضي الله عنه ان رجلاً من  
 المشركين قال لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه  
 اذا اردنا ان ناتي الرسول بعد انقضاء هذا الاجل لسمع كلام الله  
 او الحاجة اخرى فهل نقتل فقال علي لا ان الله تعالى قال ( وان  
 احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ) قال

والمقصود من هذا الكلام بيان ان الكافر اذا جاء طالباً للمحنة والدليل اوجاء طالباً لاستماع القرآن فانه يجب امهاله ومحرم قتله ويجب ايضاله الى مأمنه ودل هذا على ان النظر في دين الله اعلى المقامات واعلى الدرجات فان الكافر المحارب الذي صار دمه مهبطاً لما اظهر من نفسه كونه طالباً للنظر والاستدلال زال ذلك الاهدار ووجب على الرسول ان يبلغه مأمنه ثم قال المذكور في هذه الآية كونه طالباً لسماع القرآن فنقول ويلحق به كونه طالباً لسماع الدلائل وكونه طالباً للجواب عن الشبهات والدليل عليه ان الله تعالى علل وجوب تلك الاجارة بكونه غير عالم لانه قال ( ذلك بانهم قوم لا يعلمون ) وكان المعنى فأجره لكونه طالباً للعلم مسترشداً للحق وكل من حصلت فيه هذه العلة وجبت اجارته ( انتهى ) وهذا كاف في جواب ما عرضتم به من الاعتراض على تعليمه واما الطمع في المال فالله سبحانه العليم بحقايق الاحوال المطلع على نيات القلوب وخفيات الغيوب على ان الحالة محرجة والعيشة محوجة وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم واما قوله تعالى يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء الى اخر الآية فقد نزلت في حاطب ابن ابي بلتعنة لما كتب الى اهل مكة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز للمفتح فخذوا حذرکم ثم ارسل ذلك الكتاب مع امرأة مولاة لبني هاشم يقال لها سارة كانت قد جاءت

الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها عليه السلام امسلة جئت  
قالت لا قال امهاجرة قالت لا قال فما جاء بك قالت قد ذهب  
الموالي يوم بدر ابي قتلوا في ذلك اليوم فاحتجت حاجة شديدة  
فحث عليها بني المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فاتاها حاطب  
واعطاها عشرة دنائير وكساها برداء واستحملها ذلك الكتاب الى  
مكة فخرجت سائرة فاطلع الله الرسول عليه السلام على ذلك  
فبعث علياً وعمرو عماراً وطلحة والزبير خلفها وهم فرسان فادركوها  
وسالوا عن ذلك فانكرت وحلفت فقال علي رضي الله عنه والله  
ما كذبنا ولا كذب رسول الله ولس سيفه فاخرجت الكتاب  
من عنقها شعراً فجاءوا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فعرضه على حاطب فاعترف وقال ان لي بمكة اهلاً ومالاً فاردت  
ان اتقرب منهم وقد علمت ان الله تعالى ينزل بأسه عليهم  
فصدقه وقبل عذره فقال عمر دعني يا رسول الله اضرب عنق  
هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم ما يدريك يا عمر لعل الله  
تعالى قد اطلع على اهل بدر فقال لم تعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم  
ففاضت عينا عمر وقال الله ورسوله اعلم فنزلت ويؤخذ من هذا  
دليل لما نحن فيه وهوان سارة هذه لما جاءت الى النبي صلى الله  
عليه وسلم ولم تكن مسلمة ولا مهاجرة امر باكرامها وحث عليها من  
كسوها وحملوها وزودوها ويعلم من سياق الحكاية ان المنهي عنهم  
في الآية المحاربون المسلمين لا كل من خالف دينهم كما يدل عليه



ما بعد هذه الآية من قوله تعالى ( لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤهم وتسقطوا اليهم ان الله يحب المتسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوك في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون ) وهذا الرجل وقومه لم يقاتلونا في الدين ولا اخرجونا من ديارنا ولا ظاهروا على اخراجنا بل حالفونا وعاهدونا ونصرونا على اعدائنا كما هو معلوم مشهور وسبب نزول قوله تعالى لا ينهاكم الله . الخ . كما روي عن عبد الله ابن الزبير ان اسماء بنت ابي بكر قدمت امها قتيبة عليها وهي مشركة فلم تقبلها ولم تاذن لها بالدخول فامرها النبي ان تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن اليها وفي تفسير الرازي قال اهل التأويل هذه الآية تدل على جواز البر بين المسلمين والمشركين وان كانت الموالاة منقطعة . ( انتهى ) وقد سئل المحافظ جلال الدين السيوطي في جملة اسئلة وردت عليه من بلاد التكرور هل يجوز صحة الكفار وتقبل هديتهم فاجاب بجواز ذلك وقد استوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث ابن كلدة طبيب العرب دواء فوصفه له وكان الحارث كافراً ومات على كفره كما نقل عن الاستيعاب لابن عبد البر واذا تقرر هذا قلت انكم لا وجه لكم في توجيه الملامة الي على الاجتماع بهذا الرجل وتعليمه بل اقول فضلاً عن ذلك لا باس بتعلم لسان هؤلاء القوم وغيرهم وان كانوا على غير ديننا ففي الحديث

الشریف من علم لسان قوم أمن من مكرهم وقد جاء ان النبي  
صلی الله علیه وسلم امر كاتبه زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية  
فتعلم قراءتها وكتابتها وجاء ( المحكمة ضالة المؤمن فليأخذها  
حيث وجدها ) وجاء ( اطلبوا العلم ولو بالصين ) ومعلوم ان اهل  
الصين كفار وامثال ذلك كثيرة وفوائد تعلمنا للغة هؤلاء  
القوم لا تنكر فانا بذلك يتيسر لنا الوصول الى ما وصلوا اليه  
من الفنون والصنائع الكثيرة المنافع وذلك لاننا بواسطة معرفة  
لغتهم يتأتى لنا التكلم معهم واستطلاع ما عندهم والوقوف على ما  
لهم في تلك الفنون والصنائع من الكتب والرسائل العديدة ثم  
نختار منها ما نراه نافعا لبلادنا ولازما لنا ولا بأس علينا في  
ذلك فقد جاء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اخبره سلمان  
الفارسي بان قومه وقد كانوا مجوسا يصطنعون الخنادق في بلادهم  
امر بعمل الخندق في الغزوة المعروفة به وعمل فيه بنفسه صلى  
الله عليه وسلم فلا يحسن بنا اذا رأينا عندهم امرا نافعا ان نتركه  
لمخالفتهم لنا في الدين بل ننتفع به وما علينا من دينهم فلذا ديننا  
ولهم دينهم واما ما يترتب على السفر من مفارقة الاهل والوطن  
ومكابدة الاهوال والمشقات فلا يعد مانعا منه بالنسبة لما فيه من  
الفوائد التي ذكرها العلماء والبلغاء في كل عصر ما لا يدخل  
تحت حصر . قال الشاعر

سافر تجدد عوضاً من تفارقه  
وانصب فان اكتساب المجد في النصب  
فالاسد لولا فراق الغاب ما افترست  
والسهم لولا فراق القوس لم يصب  
لا سيما اذا كان اكتساب الانسان في اقامته غير كافٍ  
للوازم معيشته . فانه يتزوج في حقه السفر على الاقامة اذا كان  
فيه رجاء الغنى والكرامة فالسفر مع العز والغنى حضر والمحضر  
مع القلة والذلة سفر قال الزبيدي  
الفقر في اوطاننا غربة \* والمال في الغربة اوطان  
والارض شيء كلها واحد \* والناس اخوان وجيران  
ولا ينال المني الا بالعنى ولا الراحة الا بالتعب ولا تدرك  
معالي الاحوال بمجرد الاماني والامال بل باقتحام الاخطار  
وبركوب الاهوال ويرحم الله ابا الطيب حيث قال  
تريدون ادراك المعالي رخيصة

ولا بدّ دون الشهد من أبر النخل  
وايضاً المسافر في حفظ الله وكفنه اذا كان متوكلاً عليه  
ومفوضاً اموره اليه طارحاً نفسه بين يدي قدرته فهو اراف به  
من نفسه

الله اكبر من ان تستعدّ له \* بعدّة او ترجي دونه سبباً  
اذا اصطفاك لامر هيئت لك له \* يد العناية حتى تبلغ الاربا

وكما يكون التعب او المرض في السفر يكون في الاقامة  
والحضر ومن يموت بعيداً عن بلده كمن يموت بين أهله وولده  
فجميع ارض الله جعلت لخلقه ورحمته وسعت كل شيء لا  
تخص بلداً دون بلد ولا بقعة دون اخرى بل ينبغي لكل عاقل  
ان يطوف ما استطاع من البقاع ليرى ما لاهلها من الاحوال  
والعادات وما يترتب على كل حالة وعادة من المنافع والفوائد  
ويقارن بينها وبين ما هو جار في بلاده وبين اهل وطنه  
وينبهم على ما رأى نفعه وما علم ضرره فاذا رأى اهل جهة من  
الجهات اعظم ثروة وقوة وراحة نظربعين التامل في منابع ثروتهم  
وموارد راحتهم وقوتهم فعرف بها اهل وطنه واذا رأى اهل  
صقع من الارض بعكس ذلك اجتهد في معرفة اسبابه بالنظر  
والتامل والمقارنة بين احوال ذلك الصقع وغيره حتى اذا علمها  
وتحقتها حذر منها اهل بلاده بقدر اجتهاده ويكون اذا اخبر بشيء  
من ذلك مخبراً عن عيان ويقين لا عن سماع وتخمين فيحصل  
بذلك على فوائد جلييلة منها زيادة علمه ومنها اتفان غيره بما  
يعلمه ومنها ما يكتسبه من المال ومنها وهو اعظمها رضا ربه  
ومزيد ثوابه بنفعه لعباده وأحب عباد الله الى الله انفعهم لعباده  
وكذلك باتعاظه باحوال الناس واعتباره بامورهم وإطلاعه في  
سياحه على الاسرار المكنونة والقوانين المدبرة المصونة التي دبر  
الله بها امر المخلوقات واحكم بها صنع الكائنات فمن وقف على

سر صنع الخالق زاد في تعظيمه وتقرّب اليه بالطاعة والامثال  
لاوامر ونواهي واستمسك بجمال حبه ومراضيه اذ كلما انكشف  
الغطاء وزالت ظلمة الجهل انكشفت الأسرار المودعة في الاشياء  
فبزيد تعظيم مودعها والاجتهاد في التقرب الى مبدعها فمن سافر  
واطلع على احوال غير بلاده كمن عاش زيادة على عمره لانه  
يعلم بالاسفار اضعاف ما يعلمه بالاقامة او بمطالعة الاخبار كما  
قالوا مثل ذلك فيمن طالع كتب اخبار البلاد واحوال اهلها  
فهذا أولى لان علمه بالمشاهدة والنظر وذلك علمه بالسمع والخبر  
واما ما ذكرتم من حبّ الوطن فليس حبه خاصاً بملازمته وعدم  
مفارقتة وليس المقام به دليلاً على حبه ولا الرحيل عنه دليلاً  
على بغضه فكم من مقيم ببلدة وهو لها كاره وراحل عنها وهو لها  
محب ومن احب الوطن حقيقة سعى في نفعه ونفع اهله بما امكنه  
سفره او حضرا وقد شرحت لكم بعض ما اراه في السفر من  
الفوائد الجميلة والمزايا الجليلة وفي علمكم كثير مما وقع للانبياء  
 والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء والصالحين من الثقلات  
والاسفار في القرى والامصار وما جاء في القرآن والاخبار من  
الحث على السير في الارض للنظر والاعتبار فكفوا عن الملامة والله  
الامر في السفر والاقامة فلما سمعوا كلامه وعلموا مرامه قطعوا  
أملهم من تحويله عن قصده وانصرفوا من عنده فقام من وقته  
ومضى الى بيته فدخل على زوجته وحكى لها ما صار من امره وما



دار في سره وسالها عما تراه

فقات اذا عزمت فتوكل على الله

يس ارتحالك في كسب الغنى سفرا

لكن مقامك في ضرر هو السفر

فقال لها اذا قبلت ما اشترطه هذا الرجل من السفر معه

الى بلده والى اي بلد اراد فقد تطول مدة السفر ويمتد امد

الفراق فهل يلزم تعيين المدة ام لا

ف قالت ارى ان تعيينها وعدمه على حد سواء وربما كان

عدم تحديدها اولى لانه متى حصل على ما يرغبه منك كانت

اقامتك معه في بلده او في غيرها موكولة لرأيتك وارادتك فان

كنما مدة الاجتماع على طبع حسن وخلق جميل مستحسن وفعلت

ما يجذب قلبه اليك ازداد حبه لك ورغب في طول عشتك

واجتهد في تفك فطول المدة وقصرها يتبع ما يقع بينكما في

مدة العمل من القول والفعل فان وجدت في الاقامة معه

خييراً فافعل ما تطول به المدة من تشويقه للعلم والاجتهاد

في تعليمه والصنع عن زلاته والاغضاء عما عساه ان يقع من هفواته

اذا كنت في كل الامور معاتباً

صديقك لم تلق الذي لا نعاتبه

فمن ذا الذي ترضي نعياباه كلها

كفى المرء نبلاً ان تعد معائبه

فمحسن المخلق تدوم المودة وبسوء المخلق تكون المباغضة  
والمباعدة قتل ما يرجح زنتك وافعل ما يجلب قيمتك فمن قوم  
لسانه زان عقله ومن سدّد كلامه ابان فضله كما هو معلوم  
لديك ولا يخفى عليك فاغتنم صفو الزمان وانتهر فرصة الامكان  
وان وجدت الخيرة في قصرها فافعل ما يوصلك الى المخلص  
من ضررها لكن يكون ذلك باللفظ والمعروف والظرف لا  
بالشدة والعسف فقد يدرك باللفظ ما لا يدرك بالعنف وكل  
ذلك لا يعلم الا عند الاجتماع ولا عبرة بما يؤخذ بالظن والسمع  
لان الحب كما علمت حالة للنفس تنبعث عند مشاهدة المطلوب  
وتضعف عند فوات الامر المرغوب لا سيما اذا وقع بين المتحابين  
ما يخل بمقام المحبة من قول او فعل ولو من احد الجانين وربما  
أدى الى بغض وعداوة واما ما يكون من امر الفراق فهذا علينا  
جميعاً شيء شاق لكن كما يقال الضرورات تبيح المحظورات واذا  
نظرنا لما يترتب عليه من المنافع فلا محذور فيه ولا مانع اذ ركوب  
الاهوال افضل من ذل السؤال والصبر درج يفضي بمن درج  
الى الفرج ومتى كانت مكاتبتنا متصلة والاخبار بيننا متواصلة  
دامت المحادثة واستمرت وحلت عيشتنا بعد ما مرت واطلع كل  
منا على ما في ضمير صاحبه وبذلك يحصل الاطمئنان ويستريح  
الخواطر وينشرح الجنان فقد قالوا ان المراسلة نصف المواصله  
ولا يخفى عليك ان البعد حالة تجدد في نفس المتحابين زيادة

شوق تؤدي الى انتشار الافكار وكثرة التذكار فيكون بين المتحابين حبل ودم متصل لا يقطعه بعد وعنوان ذلك هو المكاتبه  
 علامة القطيعة من الصديق ان يؤخر الجواب ولا يبتدي بكتاب  
 واوّد ان لا ترى في هذا كله غير ما ارى فافضل الرأي ما لم  
 يفوت فرصة ولم يورث غصة فاخلس الدهر اخلاصاً فطالما سرّ  
 ثم اسأ الى غير ذلك من المرغبات ثم قالت له اني ارى ان  
 تستصحب اكبر اولادك لتكون تربيته على يدك ويشاهد البلاد  
 التي تقصدونها وتمرون بها ويكون تحت نظرك فتحسن ادبه فقد  
 قيل من ادب ولده صغيراً سرّ به كبيراً وربما تحتاج اليه في  
 بعض امورك ولكن هذا انما يكون برأي صاحبك ورضاه فاعرضه  
 عليه وانظر ما يراه فسمع ذلك منها وقبله وباتاً ليلتها يتجاذبان  
 أهذاب المحادثة والنظر في اطراف هذه المحادثة الى ان ادبر الليل  
 واقبل النهار فقام ومضى لموعده الانكليزي فوجده في الانتظار  
 فاخبره بانه رضي بملازمته وصحبته فسرّ بذلك لما كان أشرب  
 قلبه من محبته ثم مضيا الى حضرة شيخ الجامع ليعرضا الأمر عليه  
 ويبرما الشروط بينها على يديه فمثلا عنده وقبله يده واخبراه بما  
 دار بينها أولاً وآخرًا من الكلام وانها يريدان اتمام الشروط على  
 يديه لهذا المرام

فقال لا بأس ولا ضير والله يقضي بكل خير ثم اثنى على الشيخ  
 علم الدين بحسن فضائله وعرفه بانه من اكابر علماء الزمان

وأفاضله وإن اللطف أخص خصائله والبراعة بعض شمائله  
 والبلاغة طوع لسانه وإنامله والعلوم العربية نصب ناظر والفنون  
 الأدبية رهن خاطر وإنه بين العلماء مرفوع المكانة معروف  
 بالصدق والاستقامة والأمانة لم يسمع فيه قدح قاذح ولا يبلغ ما  
 فيه مدح ماذح وقال للإنكليزي استوصي به لأجل خاطري  
 ولما يستحقه وكل ما وصفته به سيظهر إن شاء الله صدقه وهم  
 ما تريد ليقرر ويضبط بالكتابة ويحرر

فقال الإنكليزي أما أكرام حضرة الشيخ فعلى العين والرأس  
 وله عندي كل ما يسره ويرضيه وبجمله على الرغبة في دوام  
 صحبتي وإما ما وصفتم به حضرته فهو أهله ومحله فاني قبل أن  
 اجتمع به ما ذكرته لأحد إلا أثنى عليه غاية الثناء ومدحه باحسن  
 انواع المدح فلما اجتمعت به بعض مرات يسيرة ظهر لي فضله  
 وبراعته وجلالة قدره وإن كانت معرفتي بالعلوم العربية قليلة  
 فإن القليل يدل على الكثير والقدم يدل على المسير وأنا كنت  
 قد اقيمت في بعض بلاد المغرب نحو أربع سنين تعلمت فيها  
 طرفاً من العلوم العربية ثم حضرت الى هذه الديار المصرية  
 ولأن أكثر اقامتي في القاهرة والاسكندرية إلا اني في كل سنة  
 اتوجه الى بلادي او غيرها من البلاد الأوروبية اقضي فيها زمن  
 الصيف بسبب شدة الحرارة فيه في ارض مصر وارغب ان يصحبني  
 الشيخ في السفر والإقامة ففي مدة اقامتي بمصر يتردد على كل

يوم في وقت معين فاذا سافرت كان معي فان شاء تردد على  
 في اوقات معينة كحالنا بمصر وان شاء لازمني ولازمته ليلاً ونهاراً  
 حيث كان لا يعرف هناك احداً غيري وفي اوقات اجتماعنا يصحح  
 كتاب لسان العرب معي واقرأ عليه شيئاً من العلوم العربية  
 وله على في نظير ذلك مدة اقامتنا بمصر عشرون جنيتها انكليزياً  
 وفي مدة السفر اجعل له ضعف ذلك وهذا ما غدا مصاريف  
 التنقلات والسكنى والمؤونة فكلها على لا يلزمه منها شيء وقد  
 قرب وقت سفرنا فان الصيف قد حان اوانه فليتهياً له فارتضى  
 الشيخ بذلك وطابت نفسه به غير انه طلب ان يكون معه ابنه  
 في السفر فرضي الانكليزي وقال لا بأس بذلك وعلى مؤنته  
 ايضاً ففرح الشيخ علم الدين وقرّ ناظره وسرّ الانكليزي ايضاً  
 وطاب خاطره واتقيا على ذلك وكتبا بينهما المكاتب اللازمة وشكر  
 الشيخ علم الدين حضرة شيخ الجامع وقبل يده واظنب في الشاء  
 عليه وانشده

واحيت لي ذكري وما كان خاملاً

ولكنّ بعض الذكر أنه من بعض

ثم قام مع الانكليزي وتوجه به الى داره ليعرفها واتقيا على  
 تعيين الوقت فصار الشيخ يتردد عليه كل يوم في الوقت المعين  
 يقيم معه مدة من النهار في تصحيح الكتاب وقراءة بعض العلوم  
 العربية والمحادثة فيما تستدعيه المناسبة وما ينساق اليه الكلام مع



اللطيف والادب والكمال فطابت الصحة وزادت المحبة وتمكنت  
 الالة وارتفعت الكلفة وصار كل منهما يكثر التردد على الآخر  
 ويسال عنه اذا غاب ويأنس به اذا حضر وفي اثناء ذلك كان  
 الشيخ يستعد للسفر ويتدارك ما يلزم له ولولده ليسافر معه حسبما  
 اتقنا عليه الى ان قال له الانكليزي قد عزمنا على السفر في اليوم  
 الفلاني فارجوك ان تشرف داري صبح ذلك اليوم في الساعة  
 الفلانية وليكن معك ولدك الذي تريد ان يكون معك حسبما  
 اتقنا عليه تجديني في انتظاركما لتسير معاً فوعده الشيخ بذلك وعاد  
 بالمخبر الى زوجته

ف قالت له على بركة الله تعالى وفي حفظه ورعايته ودعت له  
 بالسلامة والعز والكرامة والعود اليها بالصحة والعافية والراحة  
 والرفاهية واكدت عليه في عدم انقطاع مكاتباته عنها ومكاتبات  
 ولده فوعدها بذلك ولما كان اليوم الموعود ودّعها وودع بقية  
 اولاده واخواته ووصاهم بتقوى الله والاعتماد عليه في كل امر وقراً  
 ( والعصران الانسان لفي خسر الا الذين امنوا وعملوا الصالحات  
 وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ) ثم اخذ ولده الاكبر معه وكان  
 اسمه برهان الدين فمضى به في الساعة المعينة الى دار الانكليزي  
 فوجده في انتظارها فسلم هو وولده عليه ثم توجهوا جميعاً الى محطة  
 سكة الحديد

## المحاضرة الحادية سكة الحديد

فلما وصلوا المحطة جلسوا برهة ثم ان الانكليزي اخذ الورق المعتاد بعد ان دفع الاجرة المقررة للسفر من مصر الى الاسكندرية في سكة الحديد ولم يكن سبق للشيخ ولا لابنه فيها سفر فلما دق الجرس اول مرة قال الشيخ ما هذا وما المراد به . قال الانكليزي هذا يدق ثلاث مرات للتنبيه على قرب وقت المسير ليستعد كل من اراد وياخذ محله حيث يريد ان يجلس وبعد الثالثة يسير يكون المسير ثم استصحب الشيخ وابنه ونزل بهما في عربة من عربات الدرجة الاولى فجلسوا فيها ينظرون من طاقاتها الى ان سارت فلما اشتد السير وزادت السرعة اضطرب قلب الشيخ بعض اضطراب وداخله شيء من الخوف لكونه لم يسبق له بذلك عادة كما قدمنا الا انه كان قد سمع بها ورأى معه غيره من الناس غير منزعين فعلم انها حالة معتادة فزال روعه وسكن قلبه وجلس مطمئنًا معتمدًا على خالق الورى وأشار للعربة يقول  
سيرى على اسم الله واسم الذي

علامة الايمان ان يذكر  
وكذلك برهان الدين ابن علم الدين في اول الامر كاد

يزعجه الحال لعدم اعتياده إلا أنه تأسى بوالده وغيره وتفرس فيه  
 أبوه المخوف فزال رعبه وسكن قلبه وقعدا ينظران فيما يليهما من  
 الشبابيك إلى ما يمران به من الجهات متفكرين في عجائب الكائنات  
 والانكليزي ينظر إليهما فاراد أن يعلم ما لديهما وقد عرف أنها أول  
 مرة فيها ركبا سكة الحديد ورأيا هذا الأثر الباهر والاختراع الجديد  
 فقال للشيخ أيها الأستاذ كيف ترى . قال وماذا أرى أرى أن  
 الأرض تطوى كطي السجل للكتاب وهذه العربات بما عليها كما  
 قال الله وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر من السحاب وهذا  
 الدخان قد انتشر في الجو كالسحاب إذا انفطرت وتطاير الشرر في  
 الهواء كالنجوم إذا انتثرت وكثر الزحام كالخلائق إذا حشرت وقد  
 فُتشت أوراق المسافرين كالصحف إذا نشرت فتذكرت بهذه  
 الأحوال أهوال القيامة فنسأل الله في الدنيا والآخرة حسن  
 السلامة قال ففيا تفكر

قال الشيخ اتفكر في هذه الباخرة الجارة لهذه العربات واتامل  
 فيما لها من الحركة العجيبة وشدة السرعة الغريبة التي جلت  
 الأغرار من بعض العامة على أن يقولوا إنها إنما تسير بقوة جماعة  
 من الجن والشياطين مسخرين لها بواسطة العزائم والسحر والطلاسم  
 وأمثال ذلك مما حلم عليهم غرابة الأمر وعدم علمهم بحقيقة السر  
 وقد عرفت أنها تسير بواسطة النار التي أرى كثرة دخانها وأفواج  
 شررها المتطايرة ورأيت قبيل ركوبنا رجلاً مشغلاً باضرارها

وتتقد امرها في تلك الباخرة ولكني لم اعرف صورة استعمالها في هذه الحالة وكيفية الانتفاع بها في تحريك تلك الآلة فانا اجيل في هذا الامر العظيم قدّاح التخمين واراني لا اصل في علم حقيقته الى محجة اليقين فاني ما رايت ولا اشتغلت به قبل هذه المرة بسبب اشتغالي بعلوم اللغة العربية واحكام الشريعة المطهرة وكان قد خطر لي ان اوجه السؤال في ذلك اليك لعلّي اجد علمه لديك ولكن خشيت ان اتعب خاطرك وما اريد ان اشق عليك

فقال الانكليزي اخبرك اولاً ايها الاستاذ ان لطفك وكرم اخلاقك وحسن معاملتك لي مع عظم فضلك ورفعة قدرك قد جعل في قلبي لك منزلة عالية ومحبة عظيمة تجعلني ابتهج بقضاء ما تريده والقيام بما تأمر به من غير ان اجد بنفسي ادنى خرج حتى لو كلفتني بما فيه مشقة في نفس الامر فارجوكم الاّ تكتم عني امراً تريده ولا تخشمن من شيء تسأل عنه لانك على سفر قد كلفتك به الى بلاد لا تعرفها ولا تعرف اهلها فانا اريد راحتك وانشرّاح خاطرك ففي ذلك سروري وراحتي وهذا الذي سالت عنه ليس في بيانه مشقة عليّ ولا كلفة وانا وان كنت لم اشتغل بهذا صناعة الا اني عاشرت المشتغلين به وقرأت بعض الكتب المصنفة فيه وصار لي به معرفة كافية لامثالي وهو فن واسع وفيه كتب كثيرة مطولة ولكني احكي لك منه على سبيل الاجمال والتلخيص ما لا يبل سماعه لتقطع به مسافة الطريق

وبعد هذا اذا عرفت لغتنا وتعلقت رغبتك بالتجرف فيه والتوسع في معرفته فالامر اليك

قال الشيخ قد سررتني شرك الله بما يجعل فيه اسعادك وكافاك على ما وجهت اليه فوادك فارشدني عما سالت عنه تولى الله ارشادك

قال الانكليزي انما تتحرك تلك الآلة بالنار بواسطة قوة بخار تحلله حرارة النار من ماء موضوع في اناء محكم ينقذ منه البخار في منافذ معلومة الى آلات مخصوصة فيحركها

قال الشيخ نعم اعلم ان الحرارة اذا سخنت الماء حلت منه اجزاء تكون بخاراً فترتفع منه وتختلط بالهواء وينقص بقدرها من الماء كما يشاهد عند غليان القدر وكما يعلم من تجفيف الثوب في الشمس فان حرارة الشمس تحلل منه الاجزاء المائية فترتفع في الهواء ويبقى الثوب جافاً ولكني اريد زيادة الشرح والايضاح

قال الانكليزي من المعلوم ايضاً انه اذا وضع مقدار من الماء في اناء محكم الغطاء من كل طرف بحيث لا يكون فيه منفذ وكان فيه جزء فارغ من الماء واوقد تحته النار تصاعد البخار المتحلل من الماء بجملة النار الى ذلك الفراغ الذي في اعلى الاناء سواء كان فراغاً محضاً اي ليس فيه شيء من الهواء الجوي او كان فيه مقدار من الهواء المذكور فاذا استمرت النار تحت ذلك الاناء فلا يزال يتجدد بخار يتحلل من الماء ويختلط بالموجود منه من



قبل وبازدياد البخار تزداد قوة تمدده حتى تصل الى حد معين بينه وبين درجة حرارة الماء نسبة معلومة فعند ذلك تثبت قوة البخار على ذلك الحد ولا تتجاوزه وينقطع تولد بخار جديد من الماء وهذا الحد الذي ذكرناه يسمى القوة النهائية للبخار عند اهل الفن ويقال حينئذٍ للفراغ المنحبس فيه البخار انه تشبع

قال الشيخ قد قلت في كلامك ان البخار يصعد الى ذلك المحل الفارغ من الماء سواء كان فراغاً محضاً او كان فيه شيء من الهواء الجوي وقد قيل في وجود الخلاء المحض وعدمه كلام كثير وخلاف طويل مذكور في المواقف وغيرها ليس هذا محله ولكن اريد ان اعرف هل وجود هذا الهواء له فعل واثر في القوة النهائية المذكورة ام لا

قال الانكليزي ليس لذلك الهواء اثر في القوة المذكورة وانما يضعف سرعة تحلل البخار ويجعله بطيئاً فاذا كان ذلك المحل الخالي من الماء فارغاً من الهواء الجوي فلا يجد البخار ما يزاحه ويصادمه فيتحلل بسرعة شديدة حتى يصل الى قوته النهائية في مدة قليلة بخلاف ما اذا كان به شيء من الهواء فان سرعة تحلل البخار تكون اقل من الحالة الاولى لان الهواء المذكور يضغط على وجه الماء فاذا تحلل البخار وطلب الارتفاع الى الاعلى وجد الهواء المذكور معارضا له فيدافعه ويعالجه حتى يتخلله ويدخل بين اجزائه فيتأخر بهذا السبب

وفي هذه الحالة يكون الضغط على الماء حاصلًا من البخار والهواء المذكورين معًا فاذا كان الاناء الذي فيه الماء وتحت النار مكشوفًا لا يصل البخار الى قوته النهائية اصلاً فانه كلما تولد منه مقدار انتشر في الجو واختلط بالهواء الموجود فيه فلا يبقى مقدار منه مجتمعا في محل واحد محفوظا به حتى يصل الى القوة المذكورة ثم كلما تحلل من الماء بخار وانتشر في الجو نقص بقدره من الماء الى ان لا يبقى في الاناء شيء ويشاهد في اثناء ذلك ان سرعة تولد البخار تزداد على حسب ازدياد الحرارة فتى وصلت الحرارة المذكورة الى حد تكون فيه قوة البخار الحاصل عنها قدر ضغط الجوّاي بقدر ضغط الهواء الجوّي كانت سرعة تحلل البخار اعظم ما يكون لان البخار حينئذ لا يعارضه مانعة من جهة الجوّ فينفذ فيه بغير عسر ويشاهد في الماء فقاع تعلو على وجهه وهذه الحالة هي ما يعرف بحالة الفوران او الغليان ومن هذا يفهم ان حالة الفوران للماء تحصل اذا كانت القوة النهائية للبخار المتأبلة لدرجة الحرارة ليست اقل من قوة الضغط الواقع على سطح الماء سواء كان هذا الضغط من الهواء او من البخار او منها معًا وقد علم ايضا ان البخار كلما انتشر وتفرقت اجزائه وتخلخل بسبب اتساع المخلب الموجود فيه ضعفت قوته وكلما انكس وانضم الى بعضه لضيق محله زادت قوته الى ان تصل الى القوة النهائية فاذا وضعنا مقدارًا من البخار في اناء ليس به ماء ورأينا قوته اقل من القوة

النهائية فصغرنا حجمه بان كبسناه وحبسناه في محل اضيق مما كان فيه زادت قوته ولا تزال تزداد قوته من تنقيص حجمه بتضييق محله الى ان يصل الى القوة النهائية فان كبرنا حجمه بتوسيع محله ضعفت قوته وهكذا فالحاصل ان قوته تكون بالنسبة العكسية للمحل المحبوس فيه فكلما زاد كبر المحل نقصت القوة وكلما نقص كبره زادت القوة الى ان تصل الى الدرجة النهائية وهكذا الغازات

قال الشيخ فاذا وصل البخار الى هذه القوة النهائية فصغرنا حجمه بتضييق محله بعد ذلك فهل تزيد تلك القوة

قال الانكليزي متى وصلت القوة الى تلك الدرجة فلا تتجاوزها بل تثبت عليها ولا تزيد عنها وانما اذا صغرنا الحجم بعد ذلك استحال جزء من البخار الموجود الى ماء فلو كبرنا الحجم بعد ذلك عاد ثانياً ذلك الماء بخاراً كما كان

قال الشيخ قد بنيت ما ذكرته على كون المحل المحبوس فيه البخار ليس فيه ماء فهل تغير تلك الحالة اذا كان فيه ماء

قال الانكليزي لا تغير القوة النهائية بوجود الماء وانما اذا استحال جميع الماء الموجود بخاراً فعند ذلك تزيد القوة بنقل الحجم وتنقص بزيادة كالغازات

وقد وقف اهل الفن بتجارب عديدة على تعيين القوة النهائية لبخار الماء المقابل لدرجات الحرارة من الصفر الى مائتين

وثلاثين درجة وجعلوا لها جداول ترجع اليها اربابها المشتغلون  
بالالات البخارية وعادتهم ان ينسبوا قوة البخار الى الجوف يقال قوة  
البخار الفلاني جو واحد واثنان او ثلاثة مثلاً وهكذا  
قال الشيخ وكيف ذلك

قال الانكليزي من المعلوم ان هذا الهواء الجوي الذي  
نعيش فيه ونستنشقه معدود من الغازات وهو موجود في جميع  
المحلات كبيرة وصغيرة مرتفعة ومنخفضة ومحيط بكرة الارض من  
جميع جهاتها ممتد فوق رؤسنا الى بعد عظيم الا انه محدود لا  
يزيد عن ستة وثلاثين الف متر وليست كثافة طبقاته وثقلها في  
درجة واحدة بل هي متفاوتة بحسب قربها من الارض وبعدها  
عنها فكل ما كان منها الى الارض اقرب كان اثقل واكثف  
بسبب ثقلها وثقل ما فوقها من الطبقات عليها وكلما كان منها  
عن الارض ابعد كان اخف والطف

وجميع الاجسام الموجودة في الهواء عليها ضغط من الهواء  
بحسب جرمها وقد قدر ذلك بالحساب وحرر فعلم ان كل مقدار  
سنتيمتر من سطح اي جسم عليه ضغط من الهواء الجوي بقدر ثقل  
كيلوجرام وثلاثة وثلاثين جراماً

قال الشيخ ما معنى سنتيمتر وكيلوجرام فهذه الفاظ  
لا اعرفها لانها ليست عربية

قال الانكليزي سنتيمتر هو جزء واحد من مائة جزء من

المتر اي عشر عشر المتر والمتر هو ذراع وثلث بالذراع المعاري المستعمل في مصر في مقاييس الابنية وكيلو جرام معناه الف جرام والجرام يقرب من ثلث درهم فكل مقدار ساتيمتر اي عشر عشر المتر من سطح اي جسم من الاجسام عليه ثقل ٢٤٤ درهم مصري من ضغط الجو وهو ثقل عمود من الزئبق قاعدته ساتيمتر واحد وطوله ستة وسبعون ساتيمتر او قدر عمود من الماء قاعدته ساتيمتر وطوله عشرة امتار وثلث لان الزئبق اثقل من الماء ثلاثة عشر مرة وستة اعشار مرة فلو ضربنا طول عمود الزئبق المذكور وهو ستة وسبعون من مائة في ثلاثة عشر وستة اعشار لحصل عشرة امتار وثلث

فاذا كان الضغط الواقع من البخار او الغاز على قدر ساتيمتر من سطح اناء مثلاً مساوياً للضغط الواقع من الجو على القدر المذكور يقال ان قوة هذا البخار او الغاز تساوي جواً واحداً واذا كان بقدر ضغط الجو مرتين قيل ان قوته جوان وهكذا ولسهولة الاعمال حرراهل الفن جداول يعلم منها درجة الحرارة المقابلة للقوة النهائية المقدرة بقدر معلوم من الجو فالجوا الواحد يقابله مائة درجة والجوان ( ١٢٠ ) درجة وستة اعشار وهكذا الى ثمانمائة وعشرين جواً يقابلها ( ٢٢٠ ) درجة وتسعة اعشار قال الشيخ قد يوجد في كتب القدماء بعض مسائل تتعلق بفعل الحرارة في الماء والاجسام وبعض احوال البخار لكننا لم نجد



ففيها كيفية استعماله بهذه الصورة البخارية الان وانما كان يستعمل قديماً قوة الانسان والحيوان في نقل الانتقال وإدارة بعض الآلات كالسواني والطواحين وكذلك استعملت قوة تيار الماء في إدارة بعض الآلات واستخدمت قوة الريح في سير السفن في البحر والأنهر وإدارة الطواحين الهوائية ونحو ذلك اما استعمال قوة البخار فيما ذكر بهذه الصورة فلا نعهد له ذكراً فيما وصل اليها من الكتب القديمة فهل تذكر تاريخ الاهتداء لاستعماله

فقال الانكليزي غاية ما امكن الوصول الى معرفته مما كان جارياً في ذلك بالاعصار القديمة ان اول من تنبه لاستعمال قوة البخار هارون الاسكندري المصري وذلك انه صنع كرة محبوبة تدور على محور افقي دورة رحوية وجعل فيها انايب على خط واحد حولها وجعل اطراف هذه الانايب معوجة الى جهة واحدة فتدور قوي البخار في جوف تلك الكرة خرج من تلك المعوجات فاجب حركتها فتدور على محورها كما تدور الرحا وهذا ايضا يحصل بالماء لو وضع في تلك الكرة بدل البخار هذا غاية ما امكن الاستدلال عليه ما حصل في الازمان القديمة

ثم في سنة ١٦١٥ من الميلاد اعني سنة ١٠٢٤ من الهجرة استعمل رجل من الفرنسيين قوة البخار في رفع الماء الى الاعلى وذلك بان صنع وعاء كروياً يعبر عنه بالدست والقران وجعل له انبوتين لكل منهما حنفية تفتح وتغلق على حسب الارادة واجدى هاتين

الانبوبتين في اعلى الوعاء ليصب منها الماء وهي قصيرة والثانية طويلة متصلة باسفله صاعدة الى فوق متصلة بحوض مرتفع حيث يراد اىصال الماء . فيوضع الماء في ذلك الوعاء الكروي من الانبوبة المعدة لصبه ولا يملا كله بل يبقى اعلاه فارغاً لاجل تجمع البخار فيه وتوقد النار تحت الوعاء فيتخلل منه بخار يرتفع الى ذلك الموضع الفارغ فاذا اشتدت قوة البخار ضغط على الماء فيندفع الى الانبوبة الطويلة المتصلة بالحوض ويرتفع فيها بسبب شدة ضغط البخار عليه حتى يصل الى الحوض العالي وينزل فيه وكلما نقص الماء في ذلك الوعاء الذي تحته النار وضع فيه ماء جديد وهكذا حتى يتلى الحوض

ثم في سنة ١٠٢٩ من الهجرة جعل احد الطالبانيين للدست الذي توقد تحته النار انبوبة ممتدة الى قرب طارة راسية لها كفات وان شئت قلت ريشات او الواح مثلاً كما في الطارة التي تشاهد في مراكب النار اعني الطارة التي يسير بها مركب النار ويقال لها جرخ وعجلة وتلك الانبوبة متوجهة الى الكفات المذكورة ولها حنفية تفتح وتغلق بالاخير فتوقد النار على الدست وفيه الماء فيتخلل منه البخار فاذا اشتدت قوته تفتح حنفية الانبوبة فيمشي فيها البخار ويخرج منها بقوته متوجهاً الى الكفة التي تقابله من كفات الطارة فيدفعها بقوته فتنزل وتاتي الكفة التي بعدها فيدفعها كذلك وهكذا فتدور الطارة بسبب ذلك . وتلك الطارة متصلة

بقضيب طلومبة موضوعة في بئر فيتحرك قضيب الطلومبة بواسطة دوران الطارة فيخرج الماء بواسطة الطلومبة من البئر الى اعلاه وذلك كان المقصود من هذه الآلة

وفي سنة ١٠٧٤ من الهجرة كتب بعض الناس نبذة ذكر فيها انه اخترع آلة تيسر بها رفع الماء من اسفل الى اعلى بواسطة النار وهي عبارة عن دستانين كرويين مركبين على فرن وفي كل منهما انبوبة واصلة الى قرب اسفله نافذة منه وكل من الانبوتين يتصل بانبوبة افقية وكل من الدستانين في اعلاه انبوبة قصيرة غير ما ذكر يضرب منها الماء في الدست ولها حنفية فاذا وضع الماء في احد الدستانين الى قرب نصفه مثلاً واوقدت تحته النار يتولد منه البخار ويضغط على الماء فيمضي في الانبوبة المتصلة باسفل الدست ويرتفع فيها الى اعلاه وهذه الآلة مثل الاولى التي استحدثت سنة ١٠٢٤ وانما هذه فيها دستان يستعملان بالتعاقب وفي كل منهما يستحيل جزء من الماء الى بخار يضغط على باقي الماء فيرفعه الى الاعلاه

وفي سنة ١١٠٢ من الهجرة استحدث رجل من الفرنسيين يسمى ( بابن ) آلة ذات مكبس يضغط عليه البخار فيرفعه وذلك ان هنالك وعاء على شكل الاسطوانة مفتوحاً من اعلاه مسدوداً من اسفله وفيه مكبس محكم مائل للوعاء المذكور قابل للحركة من اسفل هذا الوعاء الى اعلاه وعكسه وفي اعلى المكبس قضيب نعبر

عنه بالساق فيوضع في الوعاء الاسطواناني المذكور مقدار من الماء قبل وضع المكبس ثم يوضع المكبس ويتكأ عليه باليد فينزل الى ان يمس الماء الموجود في الوعاء فيخرج الهواء الموجود من ثقب في سطح المكبس يسد بعد ذلك وتوقد النار تحت الوعاء المذكور فيتولد البخار ويضغط على المكبس فيرتفع الى اعلى الوعاء ويرتفع معه ساقه السابق ذكره وفي راس هذا الساق حبل ربط به طرفه وهذا الحبل يمر فوق بكرتين وطرفه الثاني طويل بحيث يمكن ان يربط به شي ثقل يراد رفعه وغير ذلك فاذا ارتفع ساق المكبس كما ذكر يضبط في محله بمسامر يثبت به ثم تبطل النار من تحت الوعاء الاسطواناني المذكور فتحصل البرودة وينقطع البخار الدافع للمكبس فاذا رفع حيثئذ المسامر المسك للساق سقط المكبس الى اسفل الوعاء بسبب ضغط الهواء عليه وبسقوطه يسحب معه طرف الحبل المربوط به فيرتفع الثقل المربوط في الطرف الثاني من الحبل ونحو ذلك

ثم اشتغل الناس بتحسين هذه الآلة وغيرها من الآلات السابقة حتى صارت تستعمل في اعمال جسيمة كثيرة النفع واستحدثت آلات جديدة لرفع الماء احسن من الاولى بحيث صار الماء الذي يراد رفعه الى الاعلى يوضع في آنية غير التي تحتها النار فتميزت الآلات الجديدة على القديمة بهذه المزية ولكن مع هذا كان يصعب جز كثير من البخار يذهب سدى وذلك انة عند توجيه البخار الى

الماء ليضغط عليه كان يذوب في الماء جز كبير من البخار فكان لا يرتفع الماء إلا إذا تشبع بالحرارة بحيث لا يقبل ذوبان بخار جديد فيه وحينئذ يضغط عليه البخار الوارد ويفعل فيه بكل قوته فيرتفع وبهذا السبب كان يضع جزء كبير من البخار كما ذكر واستمر هذا المحذور الى ان اجتهد ( يابن ) المذكور في ازالته حتى ظفر بالغرض سنة ١١١٩ من الهجرة بان جعل البخار الوارد من الدست يضغط على مكبس كالسابق ذكره موضوع فوق الماء المراد رفعه فتم ضغط البخار على المكبس ضغط المكبس على الماء فيخرج في انبوبة مخصوصة يرتفع فيها الى حيث يراد رفعه

ولم يقتصر المذكور على ذلك بل احدث آلة تسمى آلة الامن تكون فوق الدست لمنع البخار من ان يصل الى شدة تمزق بها الدست الذي هو فيه وسيجي ذكرها

وزاد في تحسين الآلة المعدة لرفع الماء حتى جعلها تصلح للاستعمال في اعمال كثيرة وذلك انه بعد رفع الماء الى حوض موضوع على ارتفاع مخصوص جعل لذلك الحوض انبوبة ينصب منها الماء على طارة ذات كفات كالطارة السابق ذكرها في الآلة المستحدثة سنة ١٠٢٩ فتدور تلك الآلة بقوة وقع الماء الساقط على كفاتها وانتفع بدوران هذه الطارة في ادارة غيرها

ومن ذلك الوقت اخذت تلك الآلات في الاشتهار واشتغل خلق كثير في بلاد فرنسا والانكليز بتحسين امرها والزيادة فيها



وأكثر مزاياها حتى وصلت الى ما وصلت اليه من الحسن والجودة وكثرة المنافع ودخلت في كثير من الصنائع والمعامل والمصانع واستقاء المزارع والمحراث وطحن الحبوب والسفر بمراكب النار في البحر وعلى سكك الحديد في البر حتى صار البخار أكبر مساعد للنوع الانساني فزادت به قوته وسرعته حتى عمل به ما كان يعد من المتع عمل به بالوسائط الاولى

فقال الشيخ نعم قد عمل بواسطة هذا البخار اعمال كانت تعد من المتع في العادة ولا يتصورها احد من الناس فمن ذا الذي كان يتصور قبل ان يظهر هذا الامر انه يذهب من القاهرة الى الاسكندرية ثم يعود الى محله في يوم واحد . ولكن اريد من لطفك ان تخبرني عن اول وقت استعملت فيه هذه السكة الحديدية ان كان على ذكر منك ثم تم معروفك بان تشرح لي صفة الآلات البخارية المستعملة الان في سكة الحديد وغيرها مع بيان كيفية استعمالها على سبيل الاجمال والتقريب تميهاً للاكرام .

فاتم ما مننت به واحسن \* فما المعروف الا بالتام .  
قال الانكليزي حياً وكراماً اما استعمال السكة الحديدية اعني السفر بواسطة الات البخار فوق قضبان من الحديد توضع على الارض كما تشاهده فلم يكن الا منذ عهد قريب فان اول تجربة عملت في ذلك ونجحت كانت في سنة ١٨٢٥ للميلاد الموافقة لسنة ١٢٤٦ من الهجرة في بلاد الانكليز وقبل ذلك كانت جربت

آلة بخارية في سنة ١٢١٦ بقصد استعمالها في السير على الأرض المعتادة فلم تنجح وظهرت صعوبات كبرى من حصول الاحتكاكات الكثيره فتركت وبعد ذلك اشتغل الفكر بوضعها فوق قضبان من حديد واستعمالها في محاجر الفحم الحجري فظهر منها فوائد وثمرات كثيره ولكن كانت سرعتها قليلة لقله كفاية المقدار المتحصل من البخار فان كل دورة كاملة من دورات العجل تحتاج الى كمية من البخار تساوي ضعف حجم الاسطوانة البخاري فيها تأثير القوة الفعالة فلها بقيت سكك الحديد مدة لا تستعمل الا في نقل الفحم الحجري وبعض بضائع قليلة

وفي اثناء ذلك كان كثير من ارباب الفن يجتهدون ويتفكرون في استنباط طريقة تيسر بها زيادة مقدار البخار لما يترتب عليه من الثمرات الكبيرة والفوائد العامة فكان الفخر في ذلك لرجل من الفرنسيه استنبط بفكره طريقة حسنة موصلة الى هذا الغرض وذلك بوضع جملة انابيب في الدست متصلة ببيت النار تنفذ فيها النار والحجارة فيكثر بسببها تسخن الماء ويزداد بذلك مقدار البخار الى الحد المطلوب وعند ذلك عملت هذه الطريقة في آلة انشاها ( ستيفنسون ) الانكليزي في معمل له وجربت فنجحت . ومن وقتئذ اشتهرت وكثرت السكك الحديدية وصارت تزيد وتمتد في كل مملكة من الممالك الى ان صارت مستعملة في اكثر بقاع الأرض المعمورة وقد كانت الآلات التي

عملت من قبل لا تزيد سرعتها عن ثلاثة آلاف متر في الساعة الواحدة وكان ما يتقل من البضاعة في المرة الواحدة لا يزيد عن ثمانين طنًا ونعني بالطن ويقال له طونيلاته ايضًا ما يساوي مقدار اثنين وعشرين قنطارًا مصريًا وبعض كسر قليل من قنطار فثمانون طنًا تساوي ألفًا وسبعمائة وعشرين قنطارًا فهذا غاية ما كان يمكن نقله بواسطة الآلات القديمة مرة واحدة وإما الآن فلما دخل هذه الآلات من الاتقان والتحسين صار يمكن ان يتقل بها في المرة الواحدة لغاية ثمانمائة طن بسرعة عشرين ألف متر في الساعة الواحدة هذا في قطارات البضائع وإما قطارات المسافرين فيمكن لها لخفضها عن هذا المقدار ان تسير في الساعة الواحدة ستين ألف متر فاكثرا الى ثمانين ألف متر فان سرعة الآلات البخارية تزيد وتنقص على حسب الاثقال مثل الحيوانات فان كانت الآلة تجر ثمانمائة طن في سرعة عشرين ألف متر في الساعة الواحدة فلا تجر في سرعة ثمانين ألف متر مثلاً الا عشر هذا المقدار فاذا وصلت السرعة الى مائة وستين ألف متر مثلاً فانما تسير بنفسها ولا تجر حيث شئنا مطلقاً

وإما صفة الآلة البخارية في سكة الحديد وغيرها وكيفية استعمالها فاشرحها لحضرتكم على وجه التلخيص والاختصار والتقريب فاقول الغالب فيما عدا باخرة سكة الحديد من الآلات البخارية ان يكون الاناء المتولد فيه البخار منفصلاً عن الآلة وإما باخرة

سكة الحديد فيكون فيها اثناء البخار مع الآلة ويرى الجميع كشيء واحد ويقال له هنا وابور البر وهو الذي تشاهده امام القطار يمر هذه العربات على قضبان الحديد الموضوعة فوق الجسر على مقتضى قواعد معلومة تختص بتحديد سعتها وميلها واختلاف اتجاه سيرها على جسر واحد او جسور متعددة متصلة ببعضها موصلة الى بلاد مختلفة ولتتكم على باخرة سكة الحديد وغيرها

فاما غيرها من الآلات المستعملة لسير السفن وريّ المزارع وإدارة المعامل المعروفة بالورش ونحو ذلك فعمل البخار فيها ( وهو المعروف بالدست والقزان ) يكون موضوعاً فوق الفرن بحيث يكون أكثر سطحه مماساً للنار حتى يحصل مقدار كثير من البخار من غير اتلاف وإسراف في الوقود المستعمل وهو الفحم الحجري في الغالب ولا يكون شكل الدست والفرن كما اتفق بل يكون بمقتضى قواعد وقوانين هندسية لا بد من رعايتها والاجراء بموجبها لحصول التجاج فاذا اوقدت النار في الفرن تحت القزان غلي الماء الموجود فيه فيتولد منه البخار ويدخل في انابيب من المعدن مخصوصة يخرج منها الى اوعية اسطوانية من اجزاء الآلة تسمى الاسطوانات لكل منها غطاء محكم وفي باطنها مكابس محكمة على قدرها كالتى تقدم ذكرها ولكل مكبس ساق ممتدة نافذة من غطاء الاسطوانة الى خارجها فاذا دخل البخار في تلك الاسطوانات حرك ما فيها من المكابس الى جهة اتجاهه فاذا ورد من الاسفل الى من جهة

قاعدة الاسطوانة دفع المكبس الى اعلاها وإذا جاء من الاعلى اي من جهة غطاء الاسطوانة دفع المكبس الى اسفلها ففي الحالة الاولى يصعد المكبس من جهة قاعدة الاسطوانة الى قرب غطاءها وفي الحالة الثانية يهبط الى قرب قاعدتها وهكذا تستمر المكابس صاعدة وهابطة بتكرار ورود البخار عليها ودفعه لها من الاسفل الى الاعلى ومن الاعلى الى الاسفل وفي حركاتها هذه تعلو وتسفل معها سيقانها الخارجة من اغطية الاسطوانات كما مر ذكره انفاً وهناك قطعة مستطيلة ذات شكل مخصوص نسميها القب تشبيهاً لها بقب الميزان موضوعة بحيث يمكن ان تتحرك حول مركز وسطها كحركة قب الميزان يعلو احد طرفيها ويسفل الاخر ثم يعلو السافل ويسفل العالي وساق كل مكبس من المكابس المذكورة متصل راسها باحد طرفي هذا القب وقد رتب البخار الوارد على هذه المكابس بحيث يجعلها تتحرك على التعاكس بمعنى انه اذا كان احدها صاعداً كان الاخر هابطاً ثم يهبط الصاعد ويصعد الهابط وهكذا . وبحركة المكابس هذه الحركة التعاكسية يتحرك القب المذكور بالتبعية لحركة سيقانها المتصلة رؤوسها بطرفيه كما ذكر فيصعد طرف القب مع الساق الصاعدة ويهبط مع الهابطة وهكذا . وبحركة طرفه تتحرك معها قضبان ثابتة فيها متصلة بجوار موضوعة على الارض او غيرها فتوصل تلك القضبان حركة القب المذكور الى هذه المحاور فتجعلها تتحرك حركة دورية كحركة سهم الساقية فتدور بهذه الدورة



بأقي العدد الموجودة لما بينها من الاتصال ولكل آلة تركيب مخصوص موافق للغرض المطلوب منها ولها أشكال مختلفة وأنواع كثيرة بحسب ما يطلب منها فليس ما يطلب لأجل الغزل والحياكة أو صناعة الحديد مثلاً كالذي يطلب لسير السفن ولا ما يراد به إدارة عدد كثيرة وكبيرة كالذي يراد به إدارة عدد قليلة وصغيرة بل كل على حسب ما يلزم له

وأما بواخر سكة الحديد فيكون فيها الآلة والقران والفرن جميعها مجتمعة مع بعضها في هذا الدست المستطيل الأسطواني الذي تراه أمام القطار موضوعاً على فرش من المعدن فوق العجل بكيفية معلومة ليس هنا محل شرحها

فجهة المؤخر من الدست حيث يقف سائق الوابور فيها بيت النار وهو الفرن وهناك جميع الآلات التي تدل على قوة تمدد البخار والتي يوقف بها الوابور حالة سيره وعكسه وفي جهة مقدم الدست أي أوله من الجهة التي يسير إليها يوجد بيت الدخان وفوقه تلك المدخنة القائمة التي تراها ينبعث منها الدخان إلى الجيوب بين بيت النار وبيت الدخان المذكورين بيت الماء وفيه أنابيب من النحاس كثيرة يبلغ عددها مائة فأكثر إلى مائتين وثمانين وهي متصلة ببيت النار وبيت الدخان مرة من بيت الماء الموجود بينها كما ذكر

وهذه الأنابيب موضوعة بقرب بعضها وبينها أخلية صغيرة

يملاًها الماء فتصير الانابيب المذكورة مغمورة فيه  
ثم فوق الدست ما يلي جهة النار بيت البخار وهو الذي  
تراه نائماً فوقه كالحديدة على ظهره ويقال له طنبوشه  
فيوضع الماء في القزان اي في بيت الماء السابق ذكره ولا يملأ  
جميعه بل يترك جزء في اعلاه فارغاً من الماء ليتولد فيه البخار ومنه  
يصعد الى الطنبوشة المذكورة وتوقد النار في الفرن فيسخن بيت  
الماء المتصل به وتدخل الحرارة مع الدخان في تلك الانابيب فتسخن  
ايضاً وتشتد بها سخونة الماء لكونها مغمورة فيه فيتولد البخار بسرعة  
ويحصل منه مقدار كثير يكفي للطلب يجمع في الطنبوشة كما  
مر ذكره فتشتد قوته وفي اعلى هذه الطنبوشة من داخلها فم انبوبة  
طويلة تمتد منها الى بيت الدخان مرة من بيت الماء من اعلاه في  
الجزء الذي يكون فارغاً من الماء وضعت كذلك لئلا تكون في  
الماء فتبرد وتضعف قوة ما يكون فيها من البخار وجعل فيها في  
اعلى الطنبوشة لئلا يدخل فيه بعض الماء عند غليانه فاذا اجتمع  
البخار واشتدت قوته كما ذكر يدخل في تلك الانبوبة من فيها  
الذي في اعلى الطنبوشة فيسير فيها الى بيت الدخان وهناك  
ينفصل في انبوتين يصل منها الى اسطوانتين في جانبي بيت  
الدخان احدها جهة اليمين والاخرى جهة اليسار وفي كل منها  
مكبس فاذا دخل البخار في كل اسطوانة دفع المكبس الذي فيها  
فحركه الى جهة اتجاه قوته وبحركة المكبين تحرك عدد متصلة بهما

وإصلة الى محور العجل الكبير الذي في وسط الفرش فتحركها  
 حركة مستديرة على الحديد الموضوع فوق الارض فتسير الآلة كلها  
 عليه وتجر خلفها العربات المرتبطة بها وبعد ان يتم البخار فعله  
 المطلوب منه ينصرف من تلك الاسطوانات بواسطة انابيب توصله  
 منها الى المدخنة فيخرج منها بقوة وصوت تسمعه مدة سير الوابور  
 فتساعد تلك القوة على اشتعال النار لانها تجلب اليها الهواء وفوق  
 القزان آلة تسمى آلة الامن تبين تغير مقدار الماء الموجود فيه  
 للاحتراز من زيادة قوة البخار عن المقدار اللازم فان قوة تمدد  
 البخار تزيد وتنقص بحسب زيادة الحرارة وتقصها والقزانات انما  
 تعمل لتحمل قوة محددة اذا زادت عنها قوة البخار يتمزق القزان  
 وينكسر ويحصل خطر كبير وضرر عظيم ففائدة آلة الامن الاحتراز  
 من ذلك الخطر والضرر وبالقرب من سائق الوابور آلة اخرى  
 ينظر اليها في كل وقت يعرف بها مقدار تلك القوة التي هي الاساس  
 في سرعة السير فان كانت زائدة عن الحد خفها وان كانت  
 ناقصة فعل ما يقويها . ثم آلة اخرى يسد بها الانبوبة الموصلة  
 للبخار الى الاسطوانات حين يريد توقيفها ويفتحها حين يريد  
 تحريكها وجميع تلك الآلات لها مقادير محددة وابعاد معينة  
 بحسابات طويلة ولها اشكال موافقة لما يراد منها وتركب مع بعضها  
 على مقتضى اصول وقواعد مقررة طويلة الشرح يوجد بيانها في  
 كتبها الخاصة بها يطلبها من يريد التبحر في معرفتها وانما هذا بيان

اجمالي لصفتهما على قدر الكفاية لتصورها لمن لا يريد الاشتغال بها  
واتخاذها حرفة

وقد كان استعمال سكك الحديد وانتشارها في مبداء ظهورها  
قليلاً لجهل الناس امرها فكان الموجود منها سنة ١٨٢٩ من الميلاد  
اي سنة ١٢٥٥ من الهجرة في بلاد الانكليز ( ٢٢٣٣ ) كيلومتر  
وكل كيلومتر الف متر وفي فرنسا ( ٥٧٢ ) كيلومتر وفي باقي  
اوروبا ( ٨٢٤ ) كيلومتر وكان اكثر هذه السكك مستعملاً في  
نقل الفحم ثم اخذت في الاشتهار والانتشار بالتدريج ورغبت فيها  
اصحاب الاموال لما علم من كثرة فوائدها وثمراتها فانعقدت شركات  
بين كثير من الناس اجتمعت فيها اموال عظيمة واشتغلوا بها  
فكثرت واشتهرت فلما مضى عشرون سنة من ابتداء ظهورها  
كان الموجود منها في اوروبا وفي باقي الجهات ( ٧٠٠٠٠ ) كيلومتر  
وفي سنة ١٢٧٣ من الهجرة احصي وقدر ما حصلت المقاوله على  
انشائه وعقدت مشارطاته الى ذلك التاريخ فبلغت ( ١١٥٣٩٥ )  
كيلومتر منها في ايتازونيا من بلاد امريكا ( ٢٣٧١٠ ) كيلومترات  
وفي بلاد الانكليز ( ٢١٥٥٥ ) كيلومتر وفي بلاد فرنسا ( ١١٦١٥ )  
كيلومتر وفي المانيا ( ١٨٠٨٤ ) كيلومتر وفي باقي الجهات  
( ٣٠٤٢١ ) كيلومتر وكان الذي تم من ذلك واستعمل الى التاريخ  
المذكور ( ٧٧٣٣١ ) كيلومتر منها في بلاد الانكليز ( ١٤٠٢٥ )  
كيلومتر وفي امريكا ( ٣٩١٩٨ ) كيلومتر وفي المانيا ( ١١٩٧٥ )

كيلومتر وفي فرنسا ( ١١٦١٥ ) كيلو متر والباقي في سائر جهات أوروبا وغيرها ومن ذلك في القطر المصري ( ٥١٨ ) كيلو متر ثم بعد ذلك باقي ما عملت مشارطاته وزاد عليه كثير غيره وإذا قايستنا بين هذه المقادير وبين أهل الجهات المذكورة نرى أن كل مليون من الأهلين أي ألف ألف يقابله ٢٠٠٠ كيلو متر من سكك الحديد في بلاد أيتارونيا وألف كيلو متر في بلاد الأنكليز وخمسة كيلومتر في فرنسا وألمانيا وما من يوم الآن ويحدث فيه إنشاء سكك جديدة توصل بعض البلاد ببعضها فهي كل يوم في تجديد وكل وقت في مزيد

فقال الشيخ إن السكك الحديدية في مصر عملت على نفقة الحكومة وهي تقوم بما يلزم من مصروفها وتأخذ ما يتحصل من إيراداتها فهل التجاري في سائر الجهات مثل ذلك

فقال الأنكليزي التجاري في البلاد الأوروبية على خلاف ذلك فإن إنشاء سكك الحديد فيها يكون على نفقة شركات تتألف من شركاء قليلين أو كثيرين على حسب حالة السكة المطلوب أنشاؤها والتعود اللازم صرفها عليها فهم يصرفون عليها وياخذون اجرة ما يحمل فيها من المسافرين والبضائع التجارية وغيرها بمقتضى إقوانين موضوعة فيها حدود مقررة لا يقدر على تعديلها وذلك لأجل راحة الناس وعدم تمكن أرباب تلك الشركات من إطلاق التصرف بما يخجل بالغرض الأصلي وهو تسهيل أمر



النقل والسفر لجميع الناس مع الراحة والأمن باجرة أقل مما كانوا يصرفونه على ذلك في غير سكة الحديد

وقد قدر عدد المستخدمين في سكك الحديد في كل مبريا متر اي عشرة من الكيلو متر فوجد ٧٥ شخصا في بلاد الانكليز و٧٣ شخصا في بلاد المانيا و ٧١ في فرنسا فكل شركة من الشركات المشغلة بهذه الاعمال تستعمل في الاقل نحو ( ٢٧٠٠٠ ) شخص وذلك عبارة عن جيش كل افراده مستعملة في توسعة دائرة الثروة البشرية ومتعيشة في ساحة الشركات المذكورة فلو حسبنا مقدار جميع المشغلين بخدمة سكك الحديد التي ذكرناها لوجدناه يقرب من مليون اي الف الف من الناس

ولو نظرنا الى ما يصرف في هذه السكك لوجدناه يبلغ مبالغ تتجاوز حد المعهود فقد وجد متوسط ما يصرف في انشاء كل كيلومتر في بلاد الانكليز نحو ( ٢٢٧٣٠ ) جنيه انكليزي وفي بلاد المانيا ( ١١١٢٠ ) وفي امريكا ( ٥٠٤٠ ) جنيه وفي فرنسا ( ٢٠١٢٠ ) جنيه من هذا ( ٢٤٠٠ ) جنيه ثمن الارض و ( ٥٦٠٠ ) جنيه ثمن القضيب من الحديد و ( ٢٤٠٠ ) جنيه ثمن الادوات ومصاريف الجسر والتركيب والباقي في المباني ويختلف المصروف كثرة وقلة بحسب الجهات فيكون في قرب المدن كثيرا جدا فقد لزم صرف قدر مليون جنيه انكليزي في المرور من مدينة ليون وصرف على محطة باريس نحو ( ١٢٠٠٠٠٠ ) جنيه

انكليزي وغالب المحطات النهائية يلزم لها مصاريف هائلة فان بعضها يحتاج من الارض الى ما يقرب من مائة فدان مصري فلو قدرنا متوسط هذه المقادير وجعلناه قيمة كل كيلو متر واحد في جميع الجهات وحسبنا به الجميع نجد ان ما صرف في انشاء ما سبق ذكره من السكك يبلغ تقريباً نحو ١٧٣٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه انكليزي فما بالك لو حسبنا مصروف المعامل التجاري فيها اعمال الات هذه السكك وادواتها

قال الشيخ فهل جميع السكك في جميع الجهات على نسق واحد ام هي مختلفة

قال الانكليزي ليست على نسق واحد في جميع الجهات ففي بلاد امريكا تجد غالب السكك على خط واحد فيه ميول اي انحدارات كبيرة وغالب المحطات فيها من الخشب والاصل في ذلك رعاية قلة المصرف وعدم الاسراف وفي بلاد الانكليز وفرنسا جميع السكك على خطين والمحطات واسعة مشيدة صرف عليها مصروف كثير والاصل في ذلك رعاية كثرة رغبة الناس . وفي بلاد الالمانين بعض السكك خط واحد وبعضها على خطين ولكن منذ قريب رأوا لزوم جعلها كلها على خطين وبالجمله فاختلاف السكك تابع لدرجة تمدن البلاد ودرجة عمارتها وثروة اهليها

قال الشيخ ارى هذه السكك قد صرف عليها اموال هائلة

على ما ذكرت ولكن ربحها بالضرورة اعظم فان ارباب الشركات التي ذكرتها انما اشتغلوا بها طلباً للربح والمكسب فهل حسب ذلك او قدر

قال الانكليزي قد حسب مقدار المتحصل من اجرة السكك المذكورة سنة ١١٧٣ فكان في بلاد الانكليز اجرة المسافرين (١١,٢٦٠,٠٠٠) جنيه واجرة البضاعة (١١,٠٠٠,٠٠٠) جنيه ايضاً فيكون مجموع المتحصل من الاثنين (٢٢,٢٦٠,٠٠٠) جنيه وفي بلاد فرنسا اجرة المسافرين (٥,٥٢٠,٠٠٠) جنيه واجرة البضائع (٦,٠٤٠,٠٠٠) جنيه فيكون مجموعها (١١,٥٦٠,٠٠٠) جنيه وفي المانيا كانت اجرة البضائع ثلثي المتحصل كله فاذا قايسنا بين طول السكك والاجرة الحاصلة منها نجد انه يحصل على كل كيلومتر واحد في بلاد الانكليز ١٦٤٨ جنيه وفي فرنسا ١٩٤٠ جنيه وفي المانيا ١١٦٨ جنيه كل ذلك باعتبار الجنيه الانكليزي وما يصرف سنوياً على سكك الحديد يختلف باختلاف البلاد والاشغال المرتبة لكل سكة بها والقائمين بادائها فهو في بلاد فرنسا اربعة واربعون من كل مائة من اصل المتحصل وفي بلاد الانكليز خمسة واربعون في المائة وفي المانيا اربعون وسكك الحديد في بلاد الفلمنك جارية على طرف الحكومة كما في مصر ويصرف عليها سنوياً خمسة وعشرون من المائة من اصل المتحصل وذلك في السكك الموجودة في جهاتها الشمالية

وأربعة وخمسون من المائة في سكك جهاتها الجنوبية وخمسة وستون في جهاتها الشرقية وأربعة وتسعون في جهاتها الغربية فقال الشيخ اظن ان ربح سكة الحديد هنا كثير جداً بسبب كثرة ما يتقل بها من المسافرين والبضاعة فقد سمعت انه يسافر في اليوم الواحد من مصر نحو ستة قطارات ومثلها من اسكندرية بعضها مشحون بالناس المسافرين وبعضها بالبضاعة وهذا غير جهات الفروع وجهة الصعيد

فقال الانكليزي لا ادري حاصل ايراد السكة بمصر ومصرفها فان هذا انما يعلم من نتائج تعمل عنه في كل سنة وما رأيت شيئاً من ذلك يتعلق بمصر وقد كان خطر بيالي ان اسال من حضرتكم عنه

قال الشيخ ومن اين لي علم ذلك وهذه المرة اول مرة ركبت فيها هذه السكة فاني بحسب احوالي المعاشية واشغالي اليومية ما كنت اجد موجباً للسفر ولا خرجت من مصر منذ دخلتها الا مرة واحدة لامر مهم وذلك ان والدي توفي وترك ايتاماً فذهبت واحضرتهم ولم اجمع الى السفر قبلها ولا بعدها فلما لم يكن لي حاجة الى السفر في كل وقت لم يكن لي تفكر في مثل هذه الامور التي هي من لوازمه على انا في بلادنا ليس لنا عادة بالبحث عن مثل هذه الاحوال حتى ان من يضطر منا الى كثرة السفر لا تجد له عناية بمعرفة ذلك وانما يعرف مقدار الاجرة التي يدفعها في السكة

وفي غيرها كالداية والمركب مثلاً ويختار ما هو الأرجح له من غير ان يبحث عن ربح صاحب السكة او الدابة او المركب مثلاً فهذه عادتنا وطريقتنا وان كان هذا الامر ربما عابه علينا غيرنا بالنظر لعاداتهم وعلى الجملة فليس عندي شيء من معرفة ربح هذه السكة او خسارتها فان كان عندك علم بمقدار ارباح سكك الحديد في غير هذه البلاد فارجوكم ان تبين لي منه نبذة فربما يمكن لنا ان نقيس احوالها في هذه البلاد على غيرها

فقال الانكليزي ليس الحال في جميع الجهات واحداً فعندنا في بلاد الانكليز كان الربح في بعض السنين اربعة في المائة تقريباً وكان مرة سبعة ومرة تسعة في بعض الجهات بعد طرح جميع المنصرف من اصل المتحصل وفي فرنسا بلغ مرة خمسة ومرة ستة ومرة تسعة كذلك وفي المانيا بلغ الربح زهاء عشرة في المائة وفي بعض جهاتها نحو اثنين وعشرين في المائة وفي ايتازونيا بلغ الربح في بعض جهاتها عشرة وفي اخرى اثني عشر وخمسة عشر في المائة وليست تدوم هذه الارباح على قدر واحد و احد معين بل تزيد وتنقص بحسب الاسباب ومقتضيات الاحوال وكذلك المصاريف قال الشيخ اني ارى محلات جلوس الناس في هذه السكة مختلفة متفاوتة في الفرش والزينة والروثق فما وجه ذلك هل هو بحسب اقدار الناس ومراتبهم ام كيف يكون قال الانكليزي ذلك بحسب ما يدفعونه من الاجرة فان

العربات المعدة لركوب المسافرين في سكة الحديد تكون على ثلاث درجات احداها وهي اعظمها واكثرها اجرة الدرجة الاولى وهي التي نحن فيها . ثانيها الدرجة الثانية وهي دونها واقل منها اجرة . ثالثها الدرجة الثالثة وهي دون الثانية واقل منها اجرة فكل من رغب في واحدة من هذه الدرجات يدفع ما قدر لها من الاجرة وينزل فيها وثم عربات من غير هذه الدرجات الثلاث معدة لنقل الدواب والبضائع وغيرها

قال الشيخ الظاهر ما رايت ان الذين ينزلون في الدرجة الثالثة اكثر

قال الانكليزي نعم هذا هو الواقع وقد قرأت منذ قريب كتاباً الفه بعض الفرنسية حديثاً في احوال السكة الحديد يقول فيه قد دلت التجارب على ان كل مائة من المسافرين في سكة الحديد يكون منهم ٩ فاكثرا الى ١٢ في الدرجة الاولى ومن ١٦ الى ٢١ في الثانية ومن ٦١ الى ٧٣ في الثالثة ومتحصل اجرة الدرجات الثلاث يكون فيه نحو ثلاثين في المائة من الدرجة الاولى ونحو اربعة وعشرين في المائة من الدرجة الثانية والباقي من الدرجة الثالثة وهذا في فرنسا واما في المانيا فللدرجة الاولى خمسة في المائة وللثانية ٢٣ وللثالثة الباقي وقد قسم متوسط الاجرة على مقدار طول السكة فوجد انه يقع منه لكل كيلومتر من اجرة كل انسان ستة سنتيمات وثلاث سنتيم في فرنسا و٨ وثلاث في



بلاد الانكليز والسنتيم عشر عشر الفرنك والفرنك ثلاثة قروش  
واربعة وثلاثون نصفاً فضة بالمعاملة الديوانية التجارية بمصر وكل  
عشرين فرنكاً بتو واحد وما يحصل من اجرة البضاعة اكثر ما  
يُحصل من اجرة المسافرين فاذا نسبنا احدها للآخر وجدنا اجرة  
المسافرين في بلاد الانكليز نحو ٤٧ من المائة وفي بلاد فرانساً نحو  
٤٤ وفي المانيا نحو ٢٨ تقريباً وليست هذه المقادير ثابتة على الدوام  
بل تتغير باسباب كثيرة وعلى الجملة فحاصل البضاعة آخذ في  
الزيادة دائماً وعليه مدار سكك الحديد فانها لا تحتاج الى ما يحتاجه  
المسافرون من كثرة السرعة وزيادة المصرف وقد احصي ما نقل  
من البضاعة بواسطة سكك الحديد في جهات فرانساً سنة ١٢٥٩  
من الهجرة فبلغ ٢٥٠٠٠ طونيلاته وبلغ في سنة ١٢٦٧ من الهجرة  
١٢٢٠٠٠ وبلغ في سنة ١٢٧٣ للهجرة ٢٢٧٠٠٠ طونيلاته والان  
يبلغ ما ينقل في السنة الواحدة في فرانساً نحو ( ١٢٠٠٠٠٠ )  
وفي انكلترة نحو ( ٦٢٠٠٠٠٠ ) طونيلاته

وهذا نتيجة احداث فروع جديدة وتقليل شيء من مقدار  
الاجرة فقد كان يؤخذ اولاً على كل طونيلاته ستة عشر سنتيماً في  
كل كيلومتر من السكة والان لا يؤخذ الا سبعة سنتيمات وذلك  
في بلاد فرانساً كما حققه صاحب الكتاب المذكور

والذي دعا اصحاب الشركات الى تقليل الاجرة انهم راوا ان  
ما صرف في انشاء سكك الحديد من الاموال مع ما يحسب عليها

من الفائدة يدخل في المصروف السنوي بقدر ١٢٠٠ جنيه في كل كيلو متر ولا ينقص هذا القدر الا بزيادة ما ينقل من البضائع وغيرها اذ لو كان المنقول من البضاعة مائة الف طونيلاته مثلاً وكان المصروف على كل طونيلاته ثلاثين سنتيماً في كل كيلو متر فلا يزيد مصروفها عن ثلاثة سنتيمات اذا كان المنقول قدر الاول عشر مرات فعلموا ان تقليل الاجرة يستوجب كثرة ورود البضاعة وزيادة الربح ثم رأوا ان كل طرد من طرود البضاعة يحتاج الى بعض اعمال كالوزن والتخزين والكتابة ونحو ذلك وهذه الاعمال لا يحتاج اليها الا في المحطة التي يشحن منها والتي يرسل اليها ولا دخل لطول المسافة وقصرها في ذلك ومصاريف هذه الاعمال وان كانت تختلف باختلاف المحطات الا انها يمكن تقديرها ١٢٠ سنتيماً لكل طونيلاته فان كان طول المسافة عشرة كيلومترات فلا تكون الا اثني عشر سنتيماً لكل كيلو متر فان كانت مائة كيلو متر فلا يكون لكل كيلو متر الا سنتيم وخمس فان بلغت المسافة ٢٠٠ كيلو متر كانت قليلة جداً فهذا رأوا ان يمنحوا اصحاب البضائع المرسلة الى مسافات بعيدة بعض امتياز على غيرهم في خفة الاجرة استجلاًباً لازدياد رغبتهم ووجدوا في ذلك زيادة الربح والمكسب وكذلك التجار الذين لم ارساليات منتظمة اعطوهم من الامتياز ما منحوه لاصحاب البضائع المرسلة الى المسافات البعيدة فرأوا في ذلك ربحاً

## كثيراً وثمة عظيمة

ثم انهم رأوا ان كثيراً من العربات تكون في معظم المسافة فارغة ويذهب مصروف نقلها سدى ووجدوا مصروف القطار يبلغ ١٥٠ سنتيماً في كل كيلو متر فاذا كانت البضاعة المحمولة ٢٥ طونيلاته مثلاً كانت الاجرة الحقيقية على حسب ذلك سنة سنتيمات لكل كيلو متر فان كانت البضاعة ١٥٠ طونيلاته كانت الاجرة في كل كيلو متر سنتيماً واحداً فكلما كان المتقول اكثر كانت قيمة الاجرة اقل فمن ثم رأوا ان المسألة التي يلزم التنبه لها هي منع الفوارغ ما امكن فتوصلوا الى هذا الغرض بتقص اجرة اللوازم الأولية كالحجر والجير مثلاً لتقل الى البلاد البعيدة والقرية والكيفية التي استعملوها في تقدير الاجرة مثل ذلك هي انهم عرفوا فرق ثمن الصنف بين الجهة التي يرسل اليها وجعلوه هو الاجرة للصنف

فحصل لهذه التدابير وامثالها ثمرات عظيمة وفوائد جمة فزاد ربح اصحاب الشركات وزاد ايضاً انتفاع الناس بسكك الحديد زيادة تذكر

وبينما هما يتحادثان في هذا الكلام وكانا قد وصلا الى قريب محطة بركة السبع اذ وقف القطار في غير موضع وقوفه وسمع في اخريات القطار جلبة وبعض اصوات مختلطة ونظر الشيخ فاذا بعض الناس ينزلون من محلاتهم وهو لا يدري السبب في ذلك

فسأل بعضهم فاخبره ان احدى العربات وجدت فيها نار والناس من خدم السكة مشغولون باطفائها فخاف الشيخ وقال لولده والانكليزي قوما بنا ننزل

فقال الانكليزي لا تخف يا مولانا ولا تجزع فهذا امر يكثر حصوله في سكك الحديد ولا ضرر فيه ولا خطر وسترى هذه النار انطفأت في بعض دقائق من الزمن وفي الواقع لم تمض برهة قليلة حتى انطفأت النار وسار القطار كما كانت فاطمان خاطر الشيخ ولكنه اخذ يلوم على من يستعمل الدخان حيث ظن ان ذلك منه وينسب التقصير الى خدم السكة لعدم التفاتهم لنعته

فقال الانكليزي ليس هذا يا مولانا من استعمال الدخان وانما هو من شدة احنكاك الدناجل واللقم وليس من احد وهذا اصغر خطر يحصل في السكة ولها اخطار كثيرة غير هذه نعود بالله منها ولكنها الآن اقل مما كان يحصل في السابق بكثير فلا يحصل الا في النادر وذلك بسبب ما تجدد لسكك الحديد والآتيا من التحسين رعاية لسلامة المسافرين

قال الشيخ كان فيما سلف من الزمن قد حصل هنا في سكة الحديد عند كفر الزيات امر هائل شاع ذكره وانتشر خبره وعظم خطر ومات به خلق كثير فاكثر الناس وقتئذ بسببه من ذم سكة الحديد وتهويل امرها والتحريض على تركها

وتفضيل المراكب عليها ثم تنوسي ذلك  
قال الانكليزي من دأب الخلق ان يشتغلوا بالامور عند  
وقوعها ويتركوها اذا تقادم عهدها ولو تأملوا في الامور حق التأمل  
وقارنوا بين الحوادث الواقعة وبعضها لحكموا بالصواب ولكنهم  
يخطئون فيها خبط عشواء فيحكمون من غير روية ولا تدبر فمن  
ذلك حكمهم على سكة الحديد بمجاذبة مضرة حصلت او بعض  
حوادث وتفضيلهم غيرها عليها بسبب ذلك من غير حصر ولا  
نظر لما وقع من الاخطار والحوادث فيما ذهبوا لتفضيله ولو نظروا  
بعين الحقيقة لرجحوا سكة الحديد على غيرها فانها اقل خطراً  
واكثر مزية واخف ضرراً

قال الشيخ وما آية ذلك

قال الانكليزي قد علم من دفاتر الاحصاء انه في مدة ستة  
عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٢ من الهجرة ركب سكة الحديد في  
امريكا من المسافرين ٢٢٤٠٧٨، ٢٢٤٠٧٠، ١٠٧٠، ١٠٧٠، ١٠٧٠، ١٠٧٠  
السكة ١٨٧ وانجرح ٢١٥٥ ومن سنة ١٢٥١ الى سنة ١٢٧٢  
من الهجرة سافر بسكك الحديد في فرنسا ٢٢٤٠٧٦٩، ٢٢٤٠٧٦٩، ٢٢٤٠٧٦٩  
الناس مات منهم ١١١ وانجرح ٢٠٢ ومن سنة ١٢٦٨ الى سنة  
١٢٧٢ للهجرة تقل بسكة الحديد في بروسيا ١٢٠٠٠، ١٢٠٠٠، ١٢٠٠٠  
مات منهم اثنان وانجرح اربعة فيكون جميع من ذكر من المسافرين  
في تلك الجهات ١٢٢٩٦٠، ١٢٥٠٠، ١٢٥٠٠ مات منهم ٢٠٠

وانجرح ٢٥٢١ فيكون قد مات من كل ٤٥٠٠٠ من المسافرين شخص واحد وانجرح من كل ٢٨١٠٠٠ منهم شخص واحد وهذا قليل جداً بالنسبة لما حصل في غيرها فقد علم انه مات في ارض فرانسة بسبب العربات المعتادة التي تجرها الخيل ١٠٢٢٤ شخصاً في ظرف ستة عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٢ هجرية وما حصل من المحوادث في شركة السفن الفرنسية المسماة مساجري امبريال يدل على ان السكة اقل خطراً من غيرها بكثير فان جملة ما نقلته سفن الشركة من المسافرين في ظرف تلك المدة اعني ستة عشر سنة قد بلغ ٢٩٨ ٧١٠ شخصاً بلغ عدد من مات منهم ٢٠ وعدد من جرح ٢٢٨ فيكون قد مات واحد من كل ٢٥٥ ٤٦٢ من المسافرين وجرح واحد من كل ٢٩ ٨٧٢ منهم وهو أكثر من المحاصل في سكك الحديد بقدر ١٢ مرة

فمن هذه المقارنة يظهر ما ذكرناه من قلة اخطار سكة الحديد عن اخطار غيرها من الطرق المستعملة في النقل والسفر ونسبة هذه الاخطار الى ما حصل من الفوائد كنسبة المعدوم الى الموجود

مثلاً كان المستعمل في بلاد اوروبا للنقل والسفر قبل ظهور سكة الحديد المراكب والعربات المعتادة وكانت لا تقطع في اليوم إلا مسافة قليلة فكان يحصل بسبب ذلك للمسافرين تعب كثير



ومشتقات عظيمة لا سيما اذا كان السفر الى جهات بعيدة يلزم  
تقطعها ايام عديدة واكثر ما كانت تقطعه هذه العربات في  
اليوم ٤٠ كيلومتراً وهو ما يقطع بسكة الحديد في ثلاثة ارباع  
ساعة ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد العظيمة والراحة التامة  
ومن ثم كثرت حركة الناس منذ وجدت سكة الحديد وزادت  
عن الاول بكثير فصارت في بعض البلاد ثلاثة امثال ما كان  
قبل وفي اخرى مثليه وفي جهات امر يثا كانا احدها سكة  
الحديد وكانت قبلها غير موجودة

وقرأت في الكتاب الذي سبق ذكره ان الذي كان يتحصل  
من نقل الناس بالعربات المعتادة في الجهة الشرقية من فرانسة  
في السنة الواحدة ٢٤٠ جنية وبلغ بوجود سكة الحديد ١٠٨٠  
جنيه فلما رتبت قطارات مخصوصة للترهة والتفيع اقل اجرة من  
القطارات المعتادة زاد ذلك حتى بلغ ٢٦٠ ١٦ جنية

فاذا فرضنا ان المسافرين في السنة في سكك الحديد في  
جميع مملكة فرانسة مثلاً وهم ٧٥٠٠٠٠٠٠٠ من الناس يسافرون  
مسافة ٤٠ كيلو متر قلنا ان كل واحد منهم توفر له ثلاث  
ساعات كانت تمضي في السفر والحركة فان هذه المسافة يقطعها  
الوايور في ساعة وتقطعها العربة المعتادة في اربع ساعات فحيلة  
ما توفر لجميعهم ٢٢٥٠٠٠٠٠ ساعة فاذا فرضنا ان الساعة  
لكل منهم قيمتها نصف فرنك كان المتوفر لهم في السنة

..... ١١٢٥٠٠٠ فرنك اي ٤٠٠٠٠٠٠٠ جنية وقبل حدوث  
سكة الحديد كانت نفقة المسافر الواحد من زاد وغيره في كل  
كيلومتر واحد تقرب من ١٢ سنتيا وهي الآن لا تزيد عن  
سبعة سنتيات ونصف فتوفر لهم بهذا السبب ايضا ٤٠٠٠٠٠٠  
جنيه فيكون جملة ما توفر لهم من هذا وذاك ٩٠٠٠٠٠٠٠  
جنيه

فتبسم الشيخ وقال لو كان السفر على الدابة كالخمار والجمل  
مثلاً لكان مقدار الوفرة بالضرورة أكثر لان سير هذه الدواب  
اقل سرعة من العربات المعتادة فانها لا تسير في الساعة أكثر  
من ملقة فاذا كانت المسافة بعيدة لم يكن اللازم للمسافر في مونة  
نفسه وحده بل يلزمه ايضا مونة دابته واجرة حرسها اذا  
بات في احدى المدن

فقال الانكليزي اذا كان المسافرون على الدواب بالعدد  
الذي قدرناه لارض فرانس كان الوفرة قدر ما مر ذكره سبع  
مرات وأكثر وما حصل بواسطة هذه السكك من السهولة  
والسرعة في النقل قد زادت حركة التجارة وكثر نقل البضاعة  
وحصل منها ربح عظيم وبعد ان كان المحاصل من اجرتها لا  
يلغ ثلث المتحصل من جميع المنقولات وصل بواسطة السكك  
الى ثلثيه وإلى ثلاثة ارباعه في بعض الجهات ثم صار المتحصل من  
البضاعة قدر المتحصل من المسافرين ثم زاد عنه وما زال يزداد

حتى صار قدره مرتين وثلاث مرات

وقد علم من نتائج الحساب في سنة ١٢٨١ هجرية ان مقدار البضائع المنقولة في ارض فرنسا الى مسافة الف متر كان يقرب من اربع مليارات طونيلاته اي اربعة الاف الف الف فلو قدرنا ان هذا القدر كان ينقل بالكيفيات التي كانت مالوفة في السابق وكانت ثلاثة مليارات منه تنقل بالعربات العادية ومليار واحد ينقل بالسفن في البحر قلنا ان نقل ذلك بواسطة سكة الحديد بدل الوسائط السابقة قد حصل منه وفر عظيم وذلك لان اجرة النقل بالوسائط المذكورة على كل طونيلاته مسافة الف متر تكون من اربعة عشر سنتيماً الى ستة عشر فاذا حسب سبعة فقط كان الوفري في كل طونولاته اربعة سنتيمات ونصفاً فان سكة الحديد يؤخذ فيها سنتيمان ونصف فقط فيتوفر لاصحاب البضاعة في السنة الواحدة من المنقول بالعربات المعتادة ( ٤٨٠٠٠٠٠ ) جنيه ومن المنقول في البحر ايضاً يتوفر على كل طونولاته اربعة سنتيمات فينتج من ذلك ( ١٦٠٠٠٠٠ ) جنيه فيكون مجموع ما توفر ما ذكر لاصحاب البضاعة في السنة الواحدة ( ٦٤٠٠٠٠٠ ) جنيه ويلزم ان يضاف الى هذا ايضاً مقدار النقص الذي حصل في اجرة المنقول بالمراكب بعد حدوث السكة غير ما ذكر لانها كانت السبب فيه فاذا حسبنا ذلك باعتبار ما نقل في البحر سنة ١٢٨١ هجرية يبلغ ( ٣٦٨٠٠٠٠ ) جنيه فيكون مجموع ما وفرته السكة على اهل

المملكة المذكورة في سنة واحدة نحو ( ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ) جنيه  
وقد علم بالاستقراء والاستقصاء ان حال الطرق الاولى لم  
تغير وحركة المراكب لم تنقص كما يزعم بعض الناس بل زادت  
فقد كان الموجود سنة ١٢٥٧ هجرية في ارض فرنسا من سكك  
الحديد ( ٨٨٤ ) كيلومتر وكان متوسط عدد العربات العادية  
الموجودة ( ٠,٢٤٣ ) ولما بلغ طول سكة الحديد ( ٤٩٥٢ ) كيلومتر  
في سنة ١٢٦٩ هجرية كان عدد العربات العادية ( ٢٤٤ ) فلما  
وصل طول السكة الى ( ٨٦٧٩ ) كيلومتر سنة ١٢٧٥ هجرية  
كان عدد العربات ( ٢٤٦ ) ولما بلغ طولها ( ١٢,٠١٨ )  
كيلومتر سنة ١٢٨٠ هجرية كانت العربات ( ٢٣٧ ) فمن هذا  
ظهر ان سكة الحديد لم يحصل منها ادنى ضرر لمن كانوا متخذين  
النقل بالعربة العادية صناعة بل حصل منها منفعة عظيمة لخلق  
كثير استخدموا في اشغالها واعمالها وربحت اصحاب الاموال منها  
ربحاً عظيماً فانهم بعد ان كانوا لا ينالون في السنة الا اثنين في  
المائة ربحاً صاروا بوضع اموالهم في سكك الحديد يحصل لهم ربح  
عشرين في المائة

وجملة ما يحصل من سكك الحديد في بلاد الانكليز لاربابها  
المشاركين فيها على جميع ما ينقل بها يبلغ ( ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ) جنيه  
فلو فرض ابطالها بالمرة والرجوع الى الطرق الاولى لزم ان يصرف  
حيثن على ما كان ينقل بها اذا نقل بالوسائط الاخرى

( ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ ) جنيه فقد وفرت سكك الحديد على اصحاب  
المتقولات ( ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ ) جنيه فضلاً عن ان الذي يتقل بها  
لا يمكن ان يتقل بغيرها

فقال الشيخ الحق ان فوائد سكة الحديد عظيمة وثمراتها كثيرة  
وليست منافعها خاصة بالتجارة بل تعم غيرها من الصناعة والزراعة  
والعلوم والفنون والعادات والاخلاق والسياسة والعمران والمدنية  
ففائدتها للصناعة مثلاً انها يسهل بواسطتها نقل المصنوعات من  
بلد الى بلد ومن مملكة الى مملكة فيكثر استعمالها وتداولها فيزداد  
صانعوها وتعظم رغبتهم فيها فيحسن حالها وهكذا فائدتها في الزراعة  
بتسهيل نقل حاصلاتها من الحبوب والثمار وغيرها فيزيد نفعها  
وتزيد زيادته رغبة الناس فيها واعنائهم بها وهلم جرا

فقال الانكليزي نعم ذلك كما ذكرتم ولكن ليست منفعتها في  
الزراعة خاصة بنقل حاصلاتها فقط بل تنفعها كثيراً بنقل ادواتها  
ولوازمها ايضاً كالسماد ( السباخ ) مثلاً فقد نقل منه بواسطتها الى  
المزارع باجرة واهية مقادير كبيرة نشرت على الارض القوية والضعيفة  
فقويت الثانية وزادت قوة الاولى وكثر محصولها وقد كانت  
القاذورات والفضلات في المدن المخالية عن الزراع تطرح خارجها  
فتتراكم حولها وتكثر فيها العفونة فتفسد هواءها فيضر بصحة اهليها  
فلما نشأت سكة الحديد وخففت الاجرة في نقل امثال هذه الاشيا  
صارت تؤخذ من المدن فتنقل الى بلاد الريف ومحلات الزراعة

فصارت نافعة بعد ان كانت مضرة وطلحت بها بقاع كثيرة من الارض كانت قفرة مهجورة غير منزرعة ولا مسكونة فعمرت وتزينت بالنبات والاشجار بعد ان كانت لا يرى فيها الا ارض يابسة كالحة خالية مما يروق العين ويشرح الصدر

وقد كان ما نقل من هذه المادة بسكة الحديد الى الجهة الشرقية من ارض فرانسة في سنة واحدة فقط وهي سنة ١٢٨١ ١٥٥,٠٠٠ طونولاته ونقل من طين الزراعة المعروف بالطين الحلو ٢٠٠,٠٠٠ طونولاته

فقال الشيخ لو تنبه لهذا الامر اهل بلادي لحصل منه فوائد جليلة وثمرات عظيمة لاهل القرى المصرية فان اخياج ارضهم الى السواد امر غير خفي ولا منكر حتى انهم لقاته وكثرة حاجتهم اليه تراهم يهدمون بيوتهم القديمة ويسمدون بها ارضهم ويصرفون مصاريف كثيرة لجلب السواد من محلات بعيدة بمشقات عظيمة ومن المعلوم ان مدينة القاهرة المحروسة بسبب كثرة سكانها وما بها من الدواب واصناف الحيوان يحصل فيها كل سنة من هذه المادة مقدار كثير وكذلك المدن الكبيرة مثل اسكندرية وغيرها من المدن القريبة لسكك الحديد يحصل فيها من ذلك مقادير عظيمة ليس يتفعل بها في شيء فضلاً عن ضررها فلواتخذت طرق مستحسنة في نقله باجرة قليلة لانتفعت السكة باجرته واهل القرى باستعماله في مزارعهم وسلم اهل المدن من ضرره الحاصل من



افساده للهواء بتراكمه على بعضه

فقال الانكليزي لكل شيء وقت ولكل وقت حكم ولا بد ان يأتي زمان يحصل فيه ذلك فان الامور لا تقع دفعة بل تجزي على التدرج وكما لسكة الحديد من فائدة غير ذلك ومنها نسينا من شيء فلا ننسى فائدتها في مساواة اسعار الاشياء في الجهات المستعملة بينها وقد كانت جوات كثيرة لا يتأتى لها ارسال محصولاتها الى بعض البلاد البعيدة لبيعها بأثمان مناسبة فتيسر لها الآن ذلك بواسطة سكك الحديد واستفادت مما حصل لغيرها من اليسار والثروة وانقطع بورود محصولات الجهات الى بعضها ما كان يكثر حصوله في الازمان السالفة من القحط وما كان يتبعه من المرض

وقد كان محصول ارض فرنسا من سنة ١٢٤٦ الى سنة ١٢٥٦ هجرية ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ هيكتولتر من الحبوب ثم صار يزيد بوجود سكك الحديد حتى بلغ في سنة ١٢٥٨ هجرية الى ٩٧,٠٠٠,٠٠٠ هيكتولتر ثم زاد حتى بلغ ١١٦,٠٠٠,٠٠٠ فظهر من هذا انه حصل منها فائدة عظيمة لمحصول الحبوب وزراعتها وزرع بعض اشياء كانت من قبل لا تزرع او كانت محصولاتها قليلة جداً

وقبل سكك الحديد كان سفر الحيوانات التي تحتاج للاكل وللزراعة صعباً شاقاً محتاجاً الى مصروف كثير فسهل ذلك

بوجودها وعمرت بلاد وقرى كثيرة بما جلب اليها من هذه  
الحوانات واتسعت دائر زراعتها وكثرت محصولاتها بكثرة السماد  
وزاد عدد الناس فيها بزيادة مقدار المحصولات فتمت الثروة  
في كثير من البقاع كانت خراباً منذ قرون عديدة وقد بلغ عدد  
الحوانات المنقولة في ارض فرانسة بسكة الحديد في سنة واحدة  
٤٢٤٥٢٨٧ من جميع الاصناف

وهناك بعض جهات معيشة اهلها من الصيد والقتل  
وكانوا قبل سكك الحديد لا يمكن لهم نقل شيء مما يحصل لهم  
الى بلاد يتفعلون فيها ببيعه فكانوا لذلك في فقر مدقع وبؤس  
شديد فلما ظهرت سكك الحديد امكن لهم نقل ذلك الى المدن  
العامة والمحاضر البعيدة وبيعه بثمن مناسب اتفعلوا به فخلصوا  
من شدة الفاقة وحسنت احوالهم

وكان في جهات كثيرة من الارض بقاع غير صالحة للزراعة  
فيها السبخ والرمال ومناقع الماء فكانت غير مسكونة فلما مرت  
بها سكك الحديد استحوذ كثير من الناس على كثير منها فحراثوها  
وفعلوا ما يلزم لاصلاحها من التسميد والردم ونحو ذلك حتي  
صلحت فزرعوها واتفعلوا بها فخرجت من الخراب الى العماره  
وقد تسر بواسطة هذه السكك للعلماء واصحاب الحرف  
والصنائع التنقل الى البلاد البعيدة والاطلاع على امور كثيرة  
امكنهم بها تطبيق القواعد العلمية على العمل ورسوخها في اذهانهم

واستنتاج نتائج علمية جديدة كثرت بها الفنون واتسعت العلوم  
وهذا فضلاً عن اختلاطهم ببعضهم والمذاكرة بينهم في أمور مهمة  
من العلم الى غير ذلك من المزايا العظيمة التي يطول تعدادها  
ولا ينتهي نفعها

فلما انتهى الكلام بها الى هذا الموضع كانا قد وصلا الى  
طنطا وعرف الشيخ وابنه برهان الدين ققرأ ما تيسر من القرآن  
الكریم واهديا ثوابه الى صاحب المقام بها سيدي احمد البدوي  
رضي الله تعالى عنه

### المحاضرة الثامنة طنطا

فقال الانكليزي هذا البلد يسمى عند بعض الناس طنطا  
وبعضهم يسميه طندتا ولم اعلم اصل ذلك  
فقال الشيخ سمعت ممن لم يزيد الشهرة في عصرنا بالمعرفة والخبرة  
باللسان المصري القديم وإتقانه قراءة وكتابة وفهما ان اصل اسمها  
في اللسان المذكور طنطا بطاءين مفتوحين بينها نون مفتوحة  
ايضاً ومعناه في ذلك اللسان بلدة الحمد قال ثم حرفه القبط

وقالوا طندنا بفتح الطاء وسكون النون وكسر الدال وتشديد  
 الناء فمن قال طنطا بسكون النون فهو تخفيف طنطا بفتحها وإما  
 طندنا فهو كما تصرف القبط فيه

فقال الانكليزي اني ارى لهذا السيد عند الناس اعتقاداً  
 عظيماً ومحبة شديدة وتعظيماً كبيراً وإقبالاً على موالده فهل  
 بينه وبين نبيكم نسب معلوم او قرابة متصلة ام لا فان كان على  
 ذكر منك شيء من علم ذلك فمن على بيانه

فقال الشيخ نعم اذكر لك ما علق ببالي وبقي في حافظتي  
 من ترجمته وبعض خبره مما قرأته في كتب كثيرة ككتاب  
 المقرئ وحسن المحاضر للسيوطي والطبقات للشعراني وهذا  
 غير الكتب المختصة بترجمته وحكاية مناقبه ككتاب الجواهر السنية  
 لعبد الصمد وكتاب يونس المعروف بأزبك الصوفي وغير  
 ذلك وهذه نبذة من ترجمة امرة على سبيل الاجمال

هو ابو الفتيان الملقب الشريف العلوي سيدي السيد احمد  
 البدوي ابن علي بن ابراهيم بن محمد بن ابي بكر بن اسماعيل بن  
 عمر بن علي بن عثمان بن حسين بن محمد بن موسى بن يحيى بن  
 عيسى بن علي الهاادي ابن محمد الجواد بن حسن العسكري بن  
 جعفر بن علي الرضا ابن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن  
 محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين سبط رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم بن الامام علي بن ابي طالب بن عبد

المطلب جد رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم فهو يلتقي نسبه معه  
صَلَّى الله عليه وسلم في جده الاقرب عبد المطلب بن هاشم  
نسب كأن عليه من شمس الضحى

نوراً ومن فلق الصباح عموداً

وكان سلفه كما قيل قد خرجوا من مكة حين قدم اليها  
الحجاج بعساكر الشام من طرف عبد الملك بن مروان الاموي  
لقتال عبد الله ابن الزبير فغلب الحجاج على بن الزبير وصلبه  
وجعل يتسلط على الاشراف فرحل منهم خلق كثير فكان من  
رحل الشريف محمد الجواد ابن حسن العسكري احد اجداد السيد  
البدوي جمع بني عمه ومن يعز عليه من قومه وخرج بهم من  
مكة فصاروا وصاروا ينتقلون من بلد الى بلد حتى دخلوا بلاد المغرب  
سنة ٧٢ من الهجرة فاستوطنوا مدينة فاس واحبهم اهلها وتزوجوا  
منها واقاموا بها ما شاء الله تعالى وفيها ولد ابراهيم بن محمد الجدد  
الادنى للسيد وتزوج بابنة اخي السلطان بها وقتئذ فأولدها علياً  
والد السيد وغيره فلما كبر الشريف علي بن ابراهيم تزوج من  
اكابر الناس واهل الحسب فاطمة بنت محمد بن احمد بن عبد  
الله بن مدين ابن شعيب ام السيد فأولدها ثلاثة اولاد وثلاث  
بنات وكان اخر اولادها سيدي احمد البدوي رضي الله عنه  
ولد في زقاق الحجر بمدينة فاس سنة ٥٩٦ من الهجرة ثم رحل  
به ابو علي بن ابراهيم مع سائر اولاده واهله سنة ٦٠٢ هجرية

يريد الحجاز للحج فمر في طريقه بمصر وإقام معهم بها مدة ثم سافر بهم  
 الى الحجاز فحجوا سنة ٦٠٧ واقاموا بمكة وكان عمر سيدي احمد البدوي  
 احدى عشر سنة وعرف من بين اخوانه بالبدوي من كثرة ما كان  
 يتلم ولبس لثامين لا يفارقها وكان يعرف في صغره باحمد الزاهد  
 واخذه تحت كنفه اكبر اخوته حسن بن علي واقراء القرآن العظيم  
 فحفظه وجوده ونفقه على مذهب الامام الشافعي محمد بن ادريس  
 رضي الله عنه واشتهر في مكة بالشجاعة والفروسية ثم انه حدث  
 له حال في نفسه فتغيرت احواله ولزم الصمت والعبادة واستمر  
 مقياً بمكة الى ان مات ابوه سنة ٦٢٧ هجرية ثم سار منها مع اخيه  
 حسن في شهر ربيع الاول سنة ٦٣٢ راحلاً الى العراق ودخل  
 بغداد وجال في البلاد ولقي اكابر الاقطاب والعلماء العارفين  
 ثم عاد اخوه المذكور الى مكة ولحق به هو فقدم مكة  
 ثانياً ولزم الصيام والقيام بها الى ان رحل منها الى مصر ونزل  
 ناحية طنطا في رابع عشر ربيع الاول سنة ٦٣٧ فدخل دار شخص  
 من مشايخها يعرف بابن شحيط فصعد الى سطح داره فاقام به  
 لا يفارقه لا صيفاً ولا شتاء مدة طويلة واعواماً كثيرة وكان له  
 امامان يصليان به وكان اذا جن الليل يقرأ القرآن الى الصباح  
 ولم يزل هناك الى ان توفي رضي الله عنه يوم الثلاثاء ثاني عشر  
 ربيع الاول سنة ٦٧٥ وعمره ٧٩ سنة عَدَدُ جَلِّ قَوْلِنَا (المدد)  
 وكان طويلاً غليظ الساقين عبل الذراعين اكحل العينين كبير



الوجه عظيم الوجتين ولونه بين البياض والسمر وكان في وجهه ثلاث قط من اثر الجدي واحدة في خده الايمن واثنان في الأيسر اثنى الأنف على انفه شامتان من كل ناحية شامة اصغر من العدسة وكان بين عينيه جرح موسى جرحه به ولد اخيه الحسين في الأبطح حين كان بمكة في صغره وكان في حياته معظماً معتقداً عند الناس محبوباً فيهم مشهوراً في الافاق تعلوه هبة ووقار وكان الملك الظاهر ابو الفتوحات بيبرس البندقدار يعتقده ويبالغ في تعظيمه وكان السيد قد اخذ طريق الصوفية عن الشيخ عبد الجليل بن الشيخ عبد الرحمن النيسابوري وكان هذا الشيخ يجتمع على اخيه الشريف حسن فلما كبر سيدي احمد جمعه عليه فالبسه خرقة التصوف واخذ عليه العهد كما تلقاه عن مشايخه واحداً عن واحد الى انس بن مالك الصحابي رضي الله عنه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك ان ياخذ الشيخ على مريده العهد والبيعة على الطاعة والمتابعة لكتاب الله وسنة رسوله والمحبة لله ولرسوله وأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ويكون له عوناً على العلم مرشداً له في الاعمال والاخلاق وسائر الاحوال فيكون الشيخ للمريد كالربي للطفل والوالد الناصح الشفيق للولد المطيع وقد اتخذ سيدي احمد الخرقة الحمراء شعاره وشعار اتباعه وقال لخليفته سيدي عبد المعال اعلم اني اخترت هذه الراية الحمراء لنفسي في حياتي وبعد مماتي وهي علامة لمن

يمشي على طريقنا من بعدي فقال له سيدي عبد المتعال فما شروط من يحملها قال شرطه ان لا يكذب ولا يأتي بفاحشة وان يكون غاض البصر عن محارم الله طاهر الذيل عفيف النفس خائفاً من الله تعالى عاملاً بكتابه ملازماً للذكر دائماً الفكر وقد ورد في صحيح الأحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس حلة حمراء وورد ايضاً انه قدم لواء بني سليم يوم فتح مكة على الالوية وكان احمر واما خلفاؤه وتلامذته واصحابه الذين اجتمعوا به على السطح فسموا السطوحية فكثير جداً اكبرهم خليفته الشيخ عبد المتعال وهو صاحب الثوب الأحمر الذي يلبسه الخليفة في المولد في كل سنة وهو الذي بنى بمقام سيدي احمد البدوي المنارة ورتب السماط وتخلف بعد السيد فشيدها اركان البيت وقصده الناس للزيارة من الاقطار البعيدة الى ان توفي يوم السبت الموافق لعشرين خلت من شهر ذي الحجة سنة ٧٢٢ هجرية ودفن قريباً من قبة السيد ومنهم الشيخ علي البريدي وهو من أجل تلامذته ويقال انه كان قد ارسل اليه بهدية من طرف سلطان وقته فمال قلبه الى الشيخ واحبه وازم مجلسه وانتفع اليه فلما مات دفن تجاهه وكان يقول لما اجتمعت بسيدي احمد رأيت في عيني اعظم حرمة من السلطان ولما نزل السلطان لسيدي احمد يزوره وجدني في خدمته فقال لي هنيئاً لك يا علي وتلامذته كثير جداً يطول تعدادهم واجتمع به من العلماء خلق

كثير منهم العلامة الشهير قاضي القضاة شيخ الاسلام تقي الدين بن دقيق العيد سمع بشهرته وكثرة اعتقاد الناس فيه فمضى اليه وصعد اليه السطح فوجد رجلاً مغطى بثوب كالمغشي عليه فلما رآه قال في نفسه سبحان الله ما هذا الاعتقاد من الناس في هذا الرجل وما هذه الشهرة وليس فيه ما يوجب ذلك وما هو الا مجنون من المجانين فرفع اليه السيد رأسه وكشف وجهه وانشد

مجاين الا ان سر جنونهم

عزيز على اغنايه يسجد العقل

فلما كلفه عرف الشيخ قدره وعظمه واعتذر اليه وقبل يده وبكى ان ابن دقيق العيد قبل ان يجتمع به ارسل الى الشيخ عبد العزيز الديري يقول له امنحن لي هذا الرجل الذي اشتغل الناس بامر واسأله فان وجدته من اهل العلم والفضل فاطلب لي منه الدعاء وارسل عرفني باحواله فمضى سيدي عبد العزيز الى طنطا وكان المتولي بها القاضي علاء الدين وكان خليفة المحكم العزيز فمضى اليه الشيخ عبد العزيز واخبره وسأل عن محل السيد فوصف له فمضى اليه واستأذن الشيخ عبد المتعال فاذن له فصعد الى السيد وسلم عليه فرد عليه السلام وساله ما شاء الله من المسائل فاجاب عنها باحسن جواب وقال سئني عما شئت فانني احببك فعظم في عينه واعتذر له وارسل الى قاضي القضاة بعلمه وكان الشيخ عبد العزيز بعد ذلك اذا سئل عن السيد يقول

هو بجر لا يدرك له قرار وما ثقل عن السيد البدوي يرويه عن  
الحسن البصري قال ست مسائل من جواهر الحكمة اولها من  
لم يكن عنده علم لم تكن له قيمة في الدنيا ولا في الآخرة الثانية  
من لم يكن عنده حلم لم ينفعه علمه الثالثة من لم يكن عنده سخاء  
لم يكن له في ماله نصيب الرابعة من لم يكن عنده شفقة على  
عباد الله لم يكن له شفاعاة عند الله تعالى الخامسة من لم يكن  
عنده صبر ليس له في الامور سلامة السادسة من لم يكن عنده  
تقوى ليس له منزلة عند الله تعالى قال في الجواهر السنية ولما  
توفي السيد رضي الله عنه عظموا قبره وبنوا عليه وستروه وقام  
بامر تلامذته من بعده صاحبه الشيخ عبد المتعال فسموه خليفة  
السيد وعمر بعده طويلاً نحو سنة ٥٨ واشتهر اتباعه بالسطوحية  
وحدث لم بعد مدة عمل المولد النبوي عنده وصار يوماً مشهوداً  
يقصد من النواحي البعيدة (انتهى)

### المحاضرة التاسعة

### الموالد والاعیاد والمطامير

ويؤخذ من تعبيره بالمولد النبوي ان اصل المولد المعتاد عمله  
للسيد البدوي مولد للنبي صلى الله عليه وسلم كان يعمل عنده وقد

كانت وفاة السيد رضي الله عنه في ١٢ ربيع الاول كما مر وهو وقت عمل المولد الشريف مولد النبي صلى الله عليه وسلم وسمعت من بعض المشايخ في اصل عمل الموالد للسيد ان السيد لما توفي كان كثير من تلامذته متفرقين في البلاد لانه كان في حياته اذا جاء المريد بواسطة الشيخ عبد المتعال نظر اليه وامره ان يقيم في بلدة من البلاد يعينها له فلما سمعوا بوفاة حضروا باتباعهم ومن معهم الى طنطا لعزوا فيه خليفته الشيخ عبد المتعال وكانت طنطا وقتئذ قرية صغيرة فلم تكن تسع هذه الجموع فضربوا خيامهم خارجها حيث يعمل المولد الكبير واقاموا في تلك الخيام ثلاثة ايام فلما ارادوا الرحيل تبعهم الشيخ عبد المتعال وودعهم فقالوا له هذه عادة مستمرة ان شاء الله تعالى نخضرها هنا كل عام في هذا الميعاد الى ما شاء الله فلما جاء العام القابل حضروا للميعاد ثم حضروا في الذي بعده واستمرت هذه العادة فنشاء من ذلك المولد الكبير وكان في الاصل ثلاثة ايام وزاد بعد ذلك الى ان وصل الى ما هو عليه الان كما ان منشاء ركب الخليفة الذي يكون في اخر المولد هو ركوب الخليفة الشيخ عبد المتعال مع جماعته لتوديع هؤلاء المشايخ ثم صار يزداد فيه الى ان وصل الى ما وصل ثم ان احد المشايخ المنتمين الى السيد وهو الشيخ الشرنبلالي حضر مرة في غير وقت المولد الى طنطا لزيارة السيد مع تلامذته وجماعته فاقام بها بعض ليل كان يشغلها هو وجماعته بالاذكار والعبادات ومن عادة

الفقراء واصحاب الطرق انهم متى وقع لهم الشيء مرة اتخذوه عادة وواظبوا عليه فاتخذ الشيخ الشرنبلالي المذكور ذلك عادة عاودها بعد ذلك سنة بعد سنة فاستمرت ونشاء عنها المولد الصغير وكان يعرف بالمولد الشرنبلالي باسم هذا الشيخ وكذلك كان منشاء المولد الرجبي فان بعض المشايخ وهو الشيخ الرجبي بدا له ان يجدد العمامة الموضوعة على مقام السيد البدوي فاتخذ لها مقداراً كافياً من الشاش المصبوغ باللون الاخضر وحضر به مع جماعته ومريديه الى طنطا ودخلوا به في ركب وموكب من المشايخ والمريدين والفقراء الى مقام السيد فلفوا الشاش الجديد في محل القديم واتخذوا ذلك عادة استمرت كذلك فنشاء عنها المولد المعروف بالرجبي باسم الشيخ المذكور ويعرف ايضاً بمولد لف العمامة تجدد فيه العمامة المذكورة في كل عام ويوثى بالشاش الذي يتخذ لها في ركب عظيم يوصل به الى المقام فهكذا كان منشاء هذه الموالد فكانت تكرر كل سنة في الميعاد الذي ابتدئت فيه وقررت مواعيدها باعتبار الشهور القبطية لا العربية لكي لا يتغير ميعاد كل منها عن وقته من فصول السنة رعاية لاوقات النيل والري حتى لا يقع المولد في وقت قلة الماء بتلك الجهة او كثرت وانغار الارض به للري ومثل هذه الاسباب قدمت واخرت مواعيدها في بعض الاوقات بتنبيهات واوامر من الحكومة رعاية لمقتضيات المصالح والاحوال والبحاري عليه الان ان يكون المولد الكبير في اول شهر مسري



والمولد الصغير في اول شهر برمودة والمولد الرجبي قبل المولد الصغير بنحو مائة يوم ولا يكون في هذا المولد ما يكون في غيره من البيع والشراء فهو مولد مختصر بالنسبة لغيره كما يعرفه من رأى هذه الموالد ولا اريد ان اطيل عليك بصفتها ووصف ما يكون فيها فلعلك رايتها او بعضها في اثناء اقامتك بهذه البلاد

فقال الانكليزي نعم حضرت مولد السيد غير مرة وشاهدت ما يكون فيه من كثرة البيع والشراء وفرط الزحام واجتماع الناس وتواردهم من الافاق فرايت امراً عظيماً وموسماً جسيماً فكنت اتذكر به ما كان لقدماء المصريين مثل ذلك من عوائدهم في اعيادهم وموالمهم لاسيما ركة الخليفة التي تكون في اخر المولد فانه بملك العوائد اشبه منه بالعادات الشرعية والامور الدينية الاسلامية وقد كان لقدماء المصريين مثل هذه الموالد اعياد ومواسم كثيرة متنوعة لم فيها عوائد مختلفة لم يذكرها احد من قدماء المؤرخين الا هيردوط الشهير الذي ورد على مصر في قدم الايام فتكلم في مؤلفاته على بعض احوالها وعادات اهلها وتكلم في ضمن ذلك على بعض هذه المواسم وما كان يعمل فيها واما غيره من المؤرخين السابقين فلم يتكلموا على شيء من ذلك ولهذا لم يصلنا من علم احوالها الا القليل والمواسم التي تكلم عليها المؤرخ المذكور كانت تعمل في مدن متفرقة في جهات مصر من

البلاد البحرية والقبلية وكانت تلك المواسم دينية وسياسية وكان يحضر في كل منها الملك او من ينوب عنه من عائلته وكذا الملكة وخلق كثير من الناس فهي اشبه بالاسواق التي كانت للرومانيين اخذوها عن اليونان واخذها اليونان عن المصريين فالى المصريين ينسب احداثها كما ينسب اليهم احداث كثير من الامور النافعة للامم كما افاده المؤرخ المذكور ومن المدن التي كان يحتفل فيها لهذه المواسم مدينة بوباست التي اثرها الان تل بسطة قرب مدينة الزقازيق من اقليم الشرقية ومدينة سايس وهي الان صا الحجر باقليم الغربية ومدينة هيليوبوليس التي تسمى الان عين شمس ( وهي المطرية ) ومدينة بوتو واثرها الان تلال موجودة في ساحل البحر الملح مما يلي بحيرة البرلس ومدينة كان اسمها بابر ميس والان لا يعلم محلها ولا اين كانت من الجهات البحرية او القبلية

وكان يجتمع في كل من هذه المواسم خلق كثير ربما كان اكثر مما يجتمع الان في مولد السيد وكان لهم غير هذه مواسم اخرى كبيرة تعمل على راس كل ثلاثين سنة مرة وكان يحصل لمن تقع في زمنه من الفراعنة فخر عظيم وصيت كبير بسببها وكان يصدر عنهم في هذه المواسم كثير من الفحش والفجور والمنكرات وجميع هذه المواسم كانت مرتبطة باوقات الزراعة وحركة الشمس في منطقة البروج وبها تعين ثلاثة فصول الزراعة في كل

سنة

وإول أعيادهم كانت عند شروق كوكب الشعرى في أشعة الشمس ووقته في أول شهر توت وهو أول شهرهم وفيه كانت تخرج سمانه قرباناً إلى ( إيزيس ) المقدسة عندهم ويخرج القسيس من معبد مدينة أبو هياكل مقدسيهم محمولة في هودج على اعتاق جماعة من القسس يختلف عددهم من اثني عشر إلى ستة عشر بالنسبة لثقل الهيكل وهكذا كان يحصل في جميع المواسم

وفي هذا الشهر بعينه بعد أن يصير القمر بدرًا ببعض أيام كان يعمل موسم طوط ويقال أنه إدريس عليه السلام وإن هذا الشهر شهره واسمه مأخوذ من اسمه

وكان من العادة في هذا الموسم أكل التين وشرب العسل ويقال بعد أكله ما أحلى الحق

قال الشيخ الشئ بالشئ يذكر قد كانت لقبط مصر بعد قدما المصريين في هذا الشهر عيد عظيم وموسم كبير من مواسم لهم ومواقيت انهم وهو عيد النوروز كانوا يشعلون فيه النيران ويرش بعضهم بعضاً بالماء واستمر ذلك جارياً في مدد الملوك الإسلاميين أيضاً وكان يمنع أحياناً ويرخص فيه أحياناً وكان للخلفاء الفاطميين اعتناء به ورسوم جارية فيه . قال القاضي الفاضل في متجددات سنة ٥٨٤ يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطي وهو مستهل توت وتوت أول سنتهم وقد كانت بمصر في الأيام الماضية والدولة الخالية ( يعني دولة الفاطميين ) من مواسم بطالاتهم

وموافيت ضلالتهم فكانت المنكرات ظاهرة به والنواحي صريحة فيه ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ومعه جمع كثير ويتسلط على الناس في طلب رسم رتبة ويرسم على دور الأكابر بالجمل الكبار ويكتب مناشير ويندب مرسمين كل ذلك يخرج مخرج التفاؤل ويقنع باليسور من الهبات ويجمع المغنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة ( أحد قصور الخليفة ) بحيث يشاهد الخليفة وبأيديهم الملامح وترتفع الأصوات ويشرب الخمر والمزهر شرباً ظاهراً بينهم وفي الطرقات يتراش الناس بالماء . وبالماء والخمر . وبالماء ممزوجاً بالاقذار . وإن غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بجرمته فاما ان يهدي نفسه واما ان يفضح ولم يجر الحال على هذا ولكن قد رش الماء في الحارات وقد احيا المنكرات في الدور ارباب الخسارات وقال في متجددات سنة ٥٩٢ هـ وجرى الامر في النوروز على العادة من رش الماء واستجد فيه هذا العام التراحم بالبيض والتصافع بالانطاع وانقطع الناس عن التصرف ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة وخرق به ( اه ) كلامه . وما زال يوم النوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء والتصافع بالجلود وغيرها الى ان كانت اعوام بضع وثمانين وسبعائة وامر الدولة بديار مصر وتديرها الى الامير الكبير برفوق قبل ان يجلس على سرير الملك ويسمى بالسلطان فمنع من لعب النوروز وهدد من لعبه بالعقوبة فانكف الناس عن اللعب في القاهرة

وصاروا يعملون شيئاً من ذلك في الخيلجان والبرك ونحوها من مواضع التنزه بعد ما كانت اسواق القاهرة تعطل في يوم النوروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون به عن حد الحياء والحشمة الى الغاية من الفجور والعهور وكلما انقضى يوم نوروز الاً وقتل فيه قتيل او اكثر ثم بطل ذلك وقال بعضهم يذكر ما كان يحصل في النوروز من اشعال النار ورش الماء

كيف ابتهاجك بالنوروز يا املي  
وكل ما فيه يحكي واحكيه  
فتارة كليب النار في كيدي  
وتارة كتوالي دمعني فيه

وكان للقبط في هذا الشهر عيد اخر وهو عيد الصليب يعمل في سابع عشره وسبب حدوثه عندهم ان هيلانة ام قسطنطين كانت قد سارت الى بيت المقدس في طلب اثار المسيح عليه السلام وبناء الكنائس واقامة شعائر النصرانية فيقال ان الاستقف مقاريوس دها على خشبة زعم ان المسيح صلب عليها وكان ذلك في اليوم المذكور فاتخذوه عيداً وسموه عيد الصليب وكان لهذا العيد بمصر موسم عظيم يخرج الناس فيه الى بني وائل بظاهر فسطاط مصر ويتظاهرون في ذلك اليوم بالمنكرات من انواع المحرمات ويمرلم فيه ما يتجاوز الحد فلما قدمت الدولة الفاطمية الى

ديار مصر وبنوا القاهرة واستوطنوها وكانت خلافة العزيز بالله امر في يوم عيد الصليب سنة ٢٨١ فنع الناس من عادة الخروج الى بني وائل ثم بطلت تلك العادة وكان للخلفاء الفاطميين مزيد عناية باول ليالي السنة ليلة اول المحرم في كل عام وكان لهم باول يوم من السنة ايضا عناية كبيرة فيه يركب الخليفة بزبه المنم وهيئته العظيمة وتفرق فيه الدنانير ويفرق من الساط الذي يعمل بالقصر لاعيان ارباب الخدم من ارباب السيوف والاقلام بتقرير مرتب خرفان شواء وزبادى طعام وجامات حلواء وخبز وقطع متفوخة من سكر وارز بلبن وسكر فيتناول الناس من ذلك ما يحل وصفه وينبسطون بما يصل اليهم فمن تامل في هذه الاعياد وجدها اشبه شيء باعياد قدماء المصريين

قال الانكليزي نعم وربما كانت بعضها مأخوذاً منها ومن جملة اعياد قدماء المصريين عيد كان يعمل في سادس يوم من شهر بابه وهو عيد حمل ايزيس بولدها هاربوكرات يشيرون بذلك الى وضع بذور الزرع في الارض بعد نزول ماء النيل عنها

وفي هذا الموضع كان يوضع في عتق صورة ايزيس طلسم يسمونه الصوت السحج على قول وكلمة الحق على قول اخر وبعد هذا الموضع كان يعمل في الثامن والعشرين من شهر بابه المذكور موسم عصا الشمس وكانوا يعنون بذلك تقدم الشمس



في العمر وتقص حرارتها وضعف قوتها ولذلك جعلوها كأنها  
احتاجت الى عصا تثوكاً عليها وكان يعمل في هذا الموسم موكب  
تحمل فيه صورة عجلة صغيرة يدورون بها حول المعبد سبع  
مرات وكانوا يعنون بذلك ان ايزيس تبحث على جثة اوزيريس  
زوجها واعظم مواسم هذا الشهر موسم (امون را) وكان يعمل  
في مدينة بايرميس في ثامن عشر الشهر وكان من عاداتهم فيه  
ان القس في الليلة المتقدمة عليه تاخذ هيكل قديسهم وتضعه  
في برزخ مذهب في موضع مقدس لم قريب من المعبد وفي الغد  
يقربون القرابين وبعد الفراغ منها قرب زوال الشمس يقيم بعض  
القس عند الهيكل وباقيهم يقفون عند باب المعبد وبأيديهم العصي  
والمساوق لتصد منع ادخال الهيكل المذكور في المعبد فاذا جاء  
الوقت المحدود حمل القس الهيكل واحضروه الى الباب ومعهم  
خلق كثير بالعصي والمساوق لادخاله المعبد برغم الواقفين به  
لنتهم فاذا جاؤا وجدوا باب المعبد مقفلاً فيقع بينهم وبين من به  
من القس وغيرهم مضاربة وقتال كثير ويخرج فيه كثير من  
الناس ويسيل دهم ولا يتقطع القتال من بينهم الا بدخول  
الهيكل في المعبد واستقراره به في مكانه وزعمت القس انه لم  
يكن يحصل لاحد ضرر من تلك المخرج كما نقله هيردوط  
المؤرخ

وكان المصريون يشيرون بهذه الاحوال فيما يزعمونه الى ان

هوروس بن ايزيس اراد الدخول على امه ليزني بها فمنعه حراسها عن مرافقه فجمع احبابه واصحابه حتى يغلبهم ويصل الى غرضه وسرّ ذلك هو ان حرارة الشمس المعبر عنها بهوروس تريد ان تدخل الارض المزروعة وهي المعبر عنها بايزيس لتخصبها وفي سابع عشر شهر هاتور كان يعمل عيد وقوع اوزيريس في قبضة تيفون عدوه والقاءه في النهر ولذا كان هذا اليوم عندهم معدوداً من ايام النحس وفيه يكون ماء النيل قد انخفض وانحسر عن ارض الزراعة وانحصر في مجراه بين حافته وكانت مدة هذا الموسم اربعة ايام كان فيها المصريون يدورون بثور قرونة مذهبة وعلى ظهر قطعة قماش من القطن او الكتان مصبوغة باللون الاسود

فكانوا يشيرون بالثور الى اوزيريس وبقطعة القماش المذكورة الى ارض مصر لان لونها بعد انحسار النيل عنها يكون اسود وكان المصريون في هذا الموسم يظهرون الحزن والكدر اولاً لنقص النيل وثانياً لغلبة الريح الجنوبية وهي المكنى عنها بتيفون عندهم على الريح الشمالية في ذلك الوقت وثالثاً لتغير طول النهار بطول الليل ورابعاً لتجرد الارض من الخضرة وكان الموسم المذكور يعمل في المدن المعروفة الان باسم بوصير فانها كان فيها معابد اوزيريس ومن اسمه اخذ اسم هذه المدن بعض تحريف وتغيير

وكان الحزن في هذا الموسم عمومياً عند النساء والرجال لحزن  
ايزيس على زوجها اوزيريس وكانوا يكثرون فيه الصلاة والصيام  
والقربان فيه من فحول البقر ومن عاداتهم ان لا يؤخذ من القربان  
بعد ذبحه الا الجلد والامعاء والفخذان والكتفان والرقبة ولحم الكفل  
واما ما عدا ذلك من الجثة فيملا من الدقيق والعسل مع الزيت  
والتين والافاويه والعقاقير الطبية الرائحة وتحرق بالنار ويزيدونها  
اشتعالاً بصب كثير من الزيت عليها

وفي ذلك الوقت تكثر النساء من الصباح والنواح والبكاء  
والعويل ويلطن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وبعد  
ذلك يأكل الناس ما اخذوا من لحوم القرابين كما مر ذكره  
ويتفرقون

وكان يحضر هذا الموسم بعض من بمصر من اليونان ويعملون  
اعمالاً فظيعة وعادة شنيعة وهي ان يجرح الرجال بعضهم بعضاً  
جروحاً كبيرة وتشق النساء افخاذهن بحجارة حادة حتى يخرج الدم  
اظهاراً لشدة الحزن والحزن ثم ابطل المصريون هذه العادة قبيل  
خروج العبرانيين فان موسى عليه السلام كان قد منع ذلك  
وحرمه على قومه والظاهر ان هذه العادة قديمة فانها وجدت عند  
اهل امريكا والهند ايضاً

وفي الثالث والعشرين من الشهر المذكور كان موسم دفن  
وزيريس يشيرون بذلك الى انخماس النيل في مجراه ومبدأ زراعة

## المخريف

وفي اليوم الاول من شهر كيهك كان يعمل موسم عظيم في مدينة اسنا لمقدسيم بها

ومن رسومهم في هذا الموسم ان يظهروا جميع اواني المعبد وحليته ويتقربوا بالخبز والنيذ وغيره من المشروبات وبالأوز وفحول البقر وبشائر المزروعات جميعها على اختلاف انواعها

فقال الشيخ هذا الشهر كان فيه للقبط عيد عظيم يسمونه عيد الميلاد ويقولون انه اليوم الذي ولد فيه المسيح عليه السلام وكان يعمل بمصر في التاسع والعشرين من كيهك فيحيون ليلته وستهم فيه كثرة الوقود بالكنايس وتزيينها وكان يفرق فيه ايام الدولة الفاطمية ارباب الرسوم من الامراء والكتاب وغيرهم الجمامات من الحلاوة القاهرية وكذا الجلاب والزلايه والسبك وكان يباع في هذا الموسم من الشموع المزهرة بالاصباغ الملحجة والتايل البديعة باموال لا تنحصر فلا يبقى احد من الناس اعلامه وادناهم حتى يشتري من ذلك لاولاده واهله وكانوا يسمونها الفوانيس واحدها فانوس ويعلقون منها في الاسواق بالخوانيت شيئا يخرج عن الحد في الكثرة والملاحة ويتنافس الناس في المغالة في اثمانها حتى ربما بلغ مصروف الواحدة منها الخمسمائة والالف درهم ثم بطل ذلك في جملة ما بطل من عوائد الترف كما بطلت رسوم قدماء المصريين فهل تعلم من اعيادهم القديمة غير ما

## ذكرته

قال الانكليزي كان لم اعياد ومواسم كثيرة منها موسم كان يعمل في السابع من شهر طوبه وهو مولد رجوع اريس من بلاد فلسطين وكانت القرابين فيه من فطير يرسم فوقه صورة فرس البحر مسلسلاً في القيود وكان يرخص لاهل مدينة عين شمس في اكل لحم التماسيح في هذا اليوم خاصة

وبعد هذا الموسم بايام كان يعمل موسم لتعويض مذاكير اوزيريس بملها من الخشب والظاهر انهم كانوا يشيرون بذلك الى غرس الاشجار فانه يكون بعد هبوط النيل

وفي تاسع عشر هذا الشهر كان يتخذ في مدينة صا الحجر عيد كبير مشهور باوقدة التي كانت تعمل فيه وكان المصريون يشيرون بذلك الى زوال الظلمة التي كانت عامة للارض بموت اوزيريس وكان هذا العيد معتادا في بلاد الصين والعجم ايضا كما كان عند المصريين

وكان لهم في هذا الشهر موسم اخر لتجديد تجسد اوزيريس فكان القس في الليل يذهبون الى مصب النيل في البحر في موكب عظيم وخلق كثير حاملين هيكل اوزيريس مزينا بجميع ما يمكن لهم من انواع الزينة والحلى وفيه قدح صغير من الذهب يملثونه من النيل في وقت معين وعند ذلك يقول القسيس وجميع الحاضرين بصوت عال ها هو جسد اوزيريس قد عثرنا به

وكأنهم كانوا يشيرون بذلك الى رجوع الشمس وكان يتخذ كل واحد منهم صورة هلال يصنعه من الطين معجوناً بماء النيل مخلوطاً ببعض الاشياء الزكية

فقال الشيخ قد ذكرت بما ذكر ما حكاه مؤرخوا الاسلام من عوائد القبط في عيد الغطاس وما كان يقع فيه من الوقدة وغيرها وكان يعمل بمصر في حادي عشر هذا الشهر قال المسعودي وليلة الغطاس بمصر شان عظيم عند اهلها لا ينام الناس فيها وهي ليلة الحادي عشر من طوبه قال ولقد حضرت سنة ٢٢٠ ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طنج امير مصر في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطوف بها وقد امر فاسرج سب في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما اسرج اهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر بشاطئ النيل الوف من المسلمين ومن النصارى منهم في الزواريق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على سائر الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من الماكل والمشارب والملابس واللات الذهب والفضة والجوهر والملاهي والعزف والقصف وهي احسن ليلة تكون بمصر واسملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس اكثرهم في النيل ويعتقدون ان ذلك امان من المرض (انتهى)

وكانت هذه العادة في زمن الملوك السالفة يرخص فيها حيناً



وتنفع حيناً

قال المسيحي في تاريخه من حوادث سنة ٢٦٧ منع النصارى من اظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس من الاجتماع ونزول الماء واظهار الملامي ونودي ان من عمل ذلك نفى من الحضرة

وقال في سنة ٢٨٨ كان الغطاس فضربت الخيام والمضارب والاسرة في عدة مواضع بشاطئ النيل ونصبت اسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصراني كاتب الاستاذ برجوان واوقدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملمهون وجلس مع اهله يشرب الى ان كان وقت الغطاش فغطس وانصرف

وقال في سنة ٤٠١ وفي ثامن عشر جمادى الاولى وهو عاشر طوبه منع النصارى من الغطاس فلم يغطس احد منهم في البحر وقال في حوادث سنة ٤١٥ وفي ليلة الاربعاء رابع ذي القعدة كان غطاس النصارى فحجى الرسم من الناس في شراء الفواكه والضان وغيره ونزل امير المؤمنين الظاهر لقصر جده العزيز بالله في مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم ونودي ان لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم في النيل وامر بان توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيداً كثيراً وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والتيران فقسسوا هناك طويلاً الى ان غطسوا فين كثير من هذه الرسوم ورسوم القدماء في اعيادهم ومواسمهم مناسبة ظاهرة

قال الانكليزي نعم وكان من مواسم قدماء المصريين عيد مشاهدة ايزيس لاوزيريس وكان في شهر امشير فان هذا الشهر وقت ظهور الزراعة الخريفية فوق وجه الارض وكان لهم في شهر برمودة عدة اعياد احدها عيد تطهير ايزيس قبل البذر

الثاني عيد الخصب وكان وقته في سادس عشر هذا الشهر وفي هذا اليوم كان يجعل في هيكل اوزيريس مذاكير مصنوعة من الخشب على صورة اعضاء التناسل للانسان وكانت احيانا تصنع من غير الخشب

وفي الموكب الذي يعمل في هذا الموسم كانت النساء تحمل مثل ذلك وتدور به في الازقة

وفي الغد من اليوم المذكور عيد دخول اوزيريس في القمر يعنون بذلك اجتماع الشمس والقمر عند الاعتدال وكان المصريون يسمون القمر ام الدنيا

الثالث في ثامن عشر الشهر المذكور وهو موسم ولادة هوروس

الرابع موسم قد يستهم نيت في مدينة بوباست ومحملها الان تل بسطه واصل هذا الاسم بوباست وهو احد اسماء نيت المذكورة ولها اسماء والقباب كثيرة منها هذا ومنها ايزيس وديان ايضا والظاهر انها هي دميانه او جميانه التي يعمل لها الى الان في جهة البرية

المولد المشهور في شهر برمودة المذكور وإن لفظ دميانه أو جميانه  
 اصله لفظ ديان السابق ذكره وهذا المولد الباقي إلى الآن هو مولد  
 نيت القديم وهو عيد حصاد الزروع وكان يبدأ به في خامس يوم  
 من برمودة ويجمع له خلق كثير من النساء والرجال كما يكون  
 الآن في مولد جميانه

وكان قديماً المصريين يأتون هذا المولد من سائر أقاليم  
 مصر في مراكب يكثرونها لذلك ويكون النساء مع الرجال في  
 المراكب ومعهم الطبول والدفوف والمزامير وغير ذلك ويكثرون  
 في طريقهم الغنا والرقص والفحش وكلما مروا ببلدة خاطب من في  
 المركب من النساء كل من رأيته في البر منهن بالفاظ قبيحة وكلام  
 فظيع ويضحك الجميع من ذلك وكان من في البر منهن بعد  
 أن يرقصن ويغنين ويتكلمن بما يخطر ببالهن من المقاييس يرفعن  
 ذيوهن ويظهرن من أجسامهن ما لا يجوز الحياء ذكره وينصرفن  
 وكذلك كان فعلهن عند زيارتهن للشوراييس وكان الرجال  
 لا يستعجبون منهن هذه الأمور المغايرة للأدب والحياء وكان  
 يستهلك في هذا الموسم من التبيذ قدر ما يستهلك في باقي أيام  
 السنة كلها وكان يجمع فيه قريب من سبعمائة ألف من الناس  
 على ما حكاه هيردوط المؤرخ وكانوا جميعاً يفعلون ما أرادوا من  
 اللذات والشهوات ولا حرج عليهم فيما كانوا يأتونه وقتئذ هما  
 فسقوا أو فجروا أو خرجوا عن جميع حدود الأدب

فقال الشيخ كأن ما كان معتاداً في هذه الاعياد من الفحش والتهتك سرى الى الاعصار الاخيرة فجبري فيها نظيره من المنكرات والموبقات فقد كان يحصل في القرون المتأخرة في الشهر الذي يتلو هذا موسم كبير يكون فيه شيء كثير من ذلك وهو موسم عيد الشهيد وكان يعمل بمصر في ثامن بشنس القبطي

وكانوا يزعمون ان النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقي النصارى فيه تابوتاً من خشب فيه اصبع من اصابع اسلافهم الموتى ويكون ذلك اليوم عيداً ترحل اليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة اهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شواطئ النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغرب ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغية ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فانتك ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم كثير لا يحصيه الا خالقهم وتصرف اموال لا تحصر ويتجاهر هناك بما لا يخفى من المعاصي والفسوق وشور فتن وتقتل اناس ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم ما تزيد قيمته على مائة الف درهم وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائماً بناحية شبرى من ضواحي القاهرة وكان اعتماد فلاحي شبرى دائماً في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في عيد الشهيد ولم يزل الحال كذلك الى سنة ٢٠٢٢ فمنعه الامير بيبرس الجاشنكير وشدد في منعه وكان عنده رجل كاتب من

القبط يعرف بالتاج بن سعيد الدولة قد اخوى على عقله واستولى على جميع اموره فمشت اليه القبط في ذلك فتكلم مع مخدومه بيبرس وقال له متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل ابداً ويخرب اقليم مصر ونحو ذلك من التثويه وتتميق المكرفنت بيبرس واصر على رأيه واستمر في منعه وقال للكتاب المذكور ان كان النيل لا يطلع الا بهذا الاصبع فلا يطلع وان كان الله سبحانه هو المتصرف فيه يطلع فبطل العيد من تلك السنة ولم يزل منقطعاً مدة ست وثلاثين سنة فلما كانت سنة ٧٢٨ وعمر الملك الناصر محمد بن قلاوون الجسر في بحر النيل ليرمي قوة التيار عن بر القاهرة الى ناحية البحيرة فطلب منه الامير بليغا الحياوي والامير الطنبا المارديني ان يخرجوا الى الصيد ويغيبا مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه في حبهما واراد صرفهما عن السفر فقال لهما نحن نعيد عمل عيد الشهيد فيكون تفرجكما عليه انزه من خروجكما الى الصيد وكان قد قرب اوان العيد المذكور فاعاده في وقته واجتمع له الناس من كل جهة وتجاهروا بانواع المنكرات توسعاً خرج عن الحد وعم الناس منهم ما لا يمكن وصفه واستمر عمله بعد ذلك الى سنة ٧٥٥ فمنع وقرر ابطاله وخرج الحاجب والامير علاء الدين علي بن الكوراني والي القاهرة الى ناحية شبرى فهدمت كنيستها واخذ منها الاصبع في صندوق واحضر الى الملك الصالح واحرق

بين يديه في الميدان وذري رماده في البحر حتى لا يأخذه النصارى  
فبطل عيد الشهيد من وقتئذ وانقطعت تلك العادة التي ذكرني  
بها ما قد حكيت من رسوم القدماء فان الحديث ذو شجون  
والكلام يجر بعضه بعضاً فارجوك ان تتم لي ما تعلم من هذه  
العادات والاعیاد فاني ما سمعت بها ولا ظننت انها كانت معتادة  
في تلك الايام العتيقة

قال الانكليزي كان لم في هذا الشهر اعني شهر بشنس عيد  
حمل ايزيس بهربوكرات وكان لم في شهر بوته عيد يتقربون فيه  
بفطير مرسوم عليه صورة حمار مسلسل يشيرون بذلك الى تغلب  
اوزريس على تيفون والعادة ان ابتداء النيل في الزيادة يكون في  
هذا الشهر فكانوا يزعمون ان زيادة ماء النيل في هذا الشهر انما  
هي ما سكبته ايزيس من الدموع في بكائها على اوزريس زوجها  
وهذا العيد هو الذي ذكر هيرودوط المؤرخ انه مولد الشمس الذي  
كان يعمل في مدينة عين شمس فانه في هذا الاوان يحصل  
الانقلاب الصيفي وهو عبارة عن ابتداء الشمس في النزول بعد  
انتهائها في الصعود وقد حافظ القبط على عادة الاحتفال لليلة  
النقطة التي تكون في الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر

وكان لم موسم في شهر مسرى وهو مولد هرربوكرات وكان  
يعتبر عندهم للسكوت وكانت اشارته حلقة صغيرة توضع على الفم  
ولعل هذا العيد هو عيد وفاء النيل ومن عاداتهم في هذا الشهر



قتل كلاب شقر وكان المصريون والرومانيون واليونان يتقربون بذلك الى كوكب الشعرى في اليوم الثاني من مسرى وكان لهم عيد كبير يعمل في مدينة بوتو ولكن سكت عنه المؤرخون ولم يبينوا وقته وانما ذكروا انه كان لاوزيريس وايزيس او بوتو وكان يتقرب في هذا الموسم بالختير ولم يكن الاكل من لحمه مباحا عند المصريين الا في هذا الموسم فانهم كانوا يقولون بنجاسته ومن مسه كان يلزمه ان يغتسل في الحال حتى ان المشتغلين بتربية هذا الحيوان كانوا يمنعون من دخول المعابد وكانوا لا يتزوجون الا من بعضهم ولا يعلم سبب الترخيص في الاكل من لحمه في هذا الموسم ولا ذكر هيردوط المؤرخ

وكيفية تقريب قربان منه ان ياخذوا طرف الذنب والطحال والبطن وفوقها الدهن ويحرقوا الجميع وكان الفقراء يصنعون صورة من الطين ويحرقونها

فهذا غاية ما وصلنا من اعياد قدماء المصريين ومواسمهم التي جرّنا الى الكلام عليها ذكر موالد السيد البدوي واخشاد الناس لها واجتماعهم فيها وما يكون بها من الاحوال والعادات التي في جملتها ما هو اشبه شيء بعبادات قدماء المصريين فيما ذكرناه من موالدهم واعيادهم وقد رأيت بعض المشايخ يتكلم عليها ويذمها لما يحصل فيها من المخالفة للشرع ويتمنى ابطالها لذلك ورأيت بعض الناس يقول لو لم يكن فيها من المضرّة

الاعتطيل من يكون بها من الناس عن اشغالهم ومصالحهم  
المعتادة لكفى فما تراه انت ايها الاستاذ في ذلك

فقال الشيخ من نظر في الشيء من جهة من جهاته ولم  
يستقص جميع احواله وسائر خصوصياته فربما حكم عليه بالذم  
والمدح من تلك الجهة ولو نظر الى غيرها تغير حكمه وهكذا  
حال من حكيت عنه ممن تكلم في مولد السيد فانه نظر الى شيء  
ما يحصل فيه فحصر فيه نظره ووقف عليه خاطره فتكلم بحسبه  
ولو امكن النظر واجال الفكرة واستعمل الروية لقال غير ما  
سمعه منه فان مولد السيد وان كان قد يحصل من بعض الناس  
الذين يجتمعون فيه بعض امور تخالف الشريعة الشريفة كما لا  
ينكر وهذا هو الذي نظر اليه من حكيت عنه ولكن لا يحكم على  
الشيء في ذاته بحكم حالة واحدة من حالاته لا سيما اذا كانت له  
احوال كثيرة وانت تعلم ان كل وقت من الاوقات وكل بلد  
من البلاد وكل جيل من الاجيال لا يخلو من ان يقع فيه بعض  
امور تخالف الشرع والطبع ولا يحكم على عموم الناس او البلد  
او الوقت بحكم من يحصل منه ذلك وليس ما ذكر من هذه الامور  
المخالفة مخصوصاً بمولد السيد فانها تقع في كل موضع كما قلنا  
وليس المولد قاصراً عليها فانه يكون فيه ما لا يحصر ولا ينكر  
من الخيرات والاذكار والعبادات والحسنات والبرات فلماذا  
نغض عن المحسنة وتقتصر انظارنا على السيئة

وفي هذا المولد ما لا يخفى على احد من المزايا والمنافع كمنفعة من يكتري منهم الدواب او المراكب او سكة الحديد للمضي اليه والانصراف عنه ومنفعة من يكون به من الفراشين والطباخين وغيرهم من ارباب الحرف والصنائع واصحاب الدور التي تكتري والاشياء التي تشتري وما يكون فيه من سعة التجارة فانا نرى كثيراً من التجار في طنطا وغيرها من سائر مدن مصر يعلقون اداء ديونهم وقضاء بعض شؤونهم على هذا المولد ويتظرون لهذا الموعد لكثرة ما يكون فيه من البيع والشراء والاخذ والعطاء فينتفع البائع بثن ما يبيعه والشاري بما يشتريه منه والكثير من اهل القرى يتظرونه لشراء بعض ما يلزمهم في اثناء السنة ما لا يوجد في جهاتهم او لبيع ما يفضل عن حاجتهم من دابة او محصول زراعة او غير ذلك فهو سوق عظيم عمومي كسائر الاسواق العامة التي توجد في جميع اقاليم الدنيا من البلاد الاسلامية وغيرها حتى لقد سمعت انه يكون في بلادكم اسواق عامة تحضرها الناس من سائر الافاق وجميع الجهات فلولا ما فيها من المنفعة لما حرصوا عليها وهرعوا اليها فهذه هي المزية في هذا المولد مع غيرها ما ذكرناه وما لم نذكره فاندفع قول من يقول انه سبب للتعطيل وتبين ان ذلك القول من جملة الاباطيل ومن ذهب الى هذا المولد لا لتصد التجارة او نحوها من المقاصد فلا يخلو من ان يتفع منه غيره فالمنفعة حاصلة على اي حالة واما فراغه من اشغاله وبطالته في ايام يسيرة فلا

ضير فيه ولا ضرر فانه ان كان خلواً من الاشغال في غير المولد  
فهو بطل في ذاته لم يحدث له المولد بطالة وان كان في غير المولد  
عاكفاً على الشغل والعمل والكد والكدح كان له في المولد فسحة  
وتغير هواً وصحة ونزهة وراحة يقبل بعدها على اعماله بنشاط  
جديد وشوق مستحدث وهمة مقبلة ونفس غير كيلة فيتعوض بذلك  
ما ضاع في ايام المولد فان النفوس البشرية اذا دام عليها الشغل  
واتصل الكد والعمل بلحمتها السأم والكلال والملل فلا بد من  
ترويحها في بعض الاحيان لتعود لحالة نشاطها وتسترجع ما فقدته  
من انفسها وانبساطها ولذا كان لكل امة من الامم وملة من الملل  
اوقات يستريحون فيها من اشغالهم ويتفرغون لرفاهة بالهم استرجاعاً  
لنشاطهم وقوتهم ودفعاً لتعبهم وفترتهم فلا داعي لتني ابطال هذه  
الموالد المستلزم ابطال ما يترتب عليها من الفوائد وقد احدثت  
هذه السكك الحديدية من اسباب السهولة والسرعة والراحة في  
المضي الى المولد والانصراف عنه ما لا مزيد عليه وكان قبلها من  
يريد المولد يعاني في الذهاب اليه والاياب منه صعوبة ومشقة  
ويقضي في الطريق يومين فاكثر اذا سار من البر وجملة ايام اذا  
سافر من البحر ويعد ما يلزم للسفر من الزاد والذخيرة من قبل المولد  
بايام كثيرة حتى حدثت سكة الحديد فسهلت الصعب وقربت  
البعيد

## المسامرة العاشرة

### ثنى

وقد كان المرحوم محمد علي الكبير تصور فوائد هذه السكة ومنافعها وعزم على انشاءها ولكن بدا له بعد ذلك تركها وصرف النظر عنها لبعض امور تصورها على حسب الوقت والحال ثم عرض امرها من بعده على المرحوم عباس باشا فاستحسنها ولم يجد بها بأساً فصمم عليها وشرع فيها بالفعل من اسكندرية الى مصر فاستوجب مزيد الثناء والشكر من الناس عامة ومنا اهل هذا القطر خاصة فان هذا الامر النافع كان سبباً لجلب الثروة الى ارضنا وازدياد البركة في بلادنا ولكن قدر الله انه لا يتم في مدة حياته والذي تم في مدته ومشى فيه الواپور كان ما بين كفر الزيات والاسكندرية وبينما كان مهتماً باتمامها عاجلته المنية فمات ولم يقسم له ان يركب فيها مع انه كان معنياً بامرها ليله ونهاره وهو الذي اتم قنطرة بنها التي يسير فوقها الواپور وكل من ولي الحكومة من بعده سعى في اتمام عمله وانجاج قصده وجد في اكماله فكمل سعيد باشا المرحوم ما ابتداه سلفه وانتهت في مدته السكة الى مصر القاهرة واخذت الواپورات في السفر بينها وبين الاسكندرية ولما راه وعلمه من كثرة فوائدها وزيادة منافعها انشأها

ايضاً بين سمنود وطلخا والزقازيق وبينها وكذلك بين القاهرة  
والسويس تسهيلات لطريقها وترغيباً للانكليز في استبدال طريق راس  
الغنم بطريق مصر فيما يتقل من بلادهم الى الهند من الناس  
والبضائع وغيرها لما في ذلك لمصر من الفائدة بمرورهم بها وتقل  
تجارتهم بواسطتها وقد كان ما يرد لمصر من ذلك يتقل الى  
السويس تارة في عربات تجرها الخيل وتارة على الجمال والدواب  
وكان ذلك امراً مهماً وشغلاً شاغلاً وكان يحصل منه مبلغ عظيم  
من الاجرة ويحصل في بعض الاوقات ضائعات كبيرة يترتب  
عليها خسارات كثيرة فعلم تلك السكة لمنع الصعوبة والخسارة  
وتسهيل السبيل لتلك التجارة فلم يزل حتى اتىها واكملها ثم لما ولي  
الحكومة الجناب الخديوي ( اسمعيل باشا ) اخذ في توسيع دائرتها  
والاستكثار منها فاستحدثها في الصعيد وفي جهات كثيرة من  
الاقاليم البحرية فزادت بركتها وكثرت حركتها حتى وصلت الى  
ما هي عليه الان فصار يسافر من القاهرة الى الاسكندرية بالركاب  
في كل يوم ثلاثة قطارات واكثر سوى ما هو خاص بنقل البضائع  
وما يسافر الى غيرها من الجهات بعد ان كانت في اول امرها  
لا يسافر فيها الوابور الا نحو ثلاث مرات في الاسبوع وذلك  
قريب اتمامها وقد ارخ صاحبنا الشيخ مصطفى سلامه البخاري اتمامها  
بين القاهرة والاسكندرية بقوله

في بر مصر انشئ الوابور



وهذا المصراع تاريخ لسنة ١٢٦٩ هجرية بحساب الجمل  
وقد كنت اسمع بهذه السكة وحركتها ولكن لم يسبق لي  
السفر بها ولا العلم بحقيقة كيفيتها وإنما كنت أعلم بالسماع أن  
السفر بها في عربات تجرها باخرة تتحرك بواسطة النار من غير أن  
أعرف كيف تحركها النار وكنت في شوق إلى معرفة ذلك حتى  
شرحت لي اليوم ما شرحت وأوضحت ما أوضحت من أن حركتها  
وسيرها بواسطة بخار تحلله حرارة النار من ماء موجود في القدر  
أعني الدست الذي ذكرته فيتجه البخار إلى آلة يحركها فتتحرك  
بحركتها العجلة وتمشي الباخرة أعني الوابور فقد عرفت ذلك ولكن  
بقي عليّ أن أعرف حقيقة لفظة واور ومعناها لأعرف حقيقة اسم  
هذه الباخرة كما عرفت مسماها فإن هذه الكلمة ليست من العربية  
وما أظنها إلا من اللغة الأفرنجية

فقال الإنكليزي نعم لفظة واور كلمة أفرنجية معناها في  
اللغة الفرنسية البخار فاستعملها عامة الناس هنا في معنى الباخرة  
تسميةً للشيء باسم ما هو من لوازمه والاسم الموضوع لهذا المعنى  
في اللغة المذكورة هو (لوكوموتيف)

فهذا ما أعلمه في هذه اللفظة التي سألت عنها وما يتعلق  
بها وما هنا شيء أريد أن أسألك عنه وهو أنك عبرت بالقدر  
بدل لفظ الدست المتعارف فهل هو غير عربي أم غير صحيح أم ماذا  
ترى فيه وكذا العربية والعربية أو العجلة فأرجوك أن تشرح لي

ما تعلمه في هذه المذكورات ولوازمها وما يتعلق بها من جهة اللغة العربية كما شرحت انا ما اعرفه فيها من جهة الصناعة لنقطع بذلك ما بقي من الطريق ولا نخرج عن المناسبة

فقال الشيخ لك ذلك وسأشرح ما اثبتته حفظي ووصل اليه علي فيما ذكرته فاما لفظة الدست فهي بفتح الدال معربة تطلق في العربية علي جملة معان منها الصحراء وهي في هذا المعنى معربة من دشت بالشين المعجمة لفظ فارسي بالمعنى المذكور وفي غيره معربة من دست بالسين المهملة لفظ فارسي ايضاً له نحو خمسة عشر معنى منها اليد والمنفعة والنصرة والوزير والصدر والمقام الرفيع والقوة والغلبة والطرار واللعبة الواحدة والشيء مع افراد التامة فهو من السلاح مثلاً العدة الكاملة ومن الثياب ايضاً الكاملة اجزائه التامة افراده من السراويل الي المنديل وهكذا كما عرفته من اهل تلك اللغة وقال في القاموس الدست الدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت معربات (اه) وهي عبارة مجملة فيها غموض ويعلم المراد منها بما قدمناه وقد انكر بعض العلماء المناسبة بين ما استعمل فيه هذا اللفظ في العربية وبين معناه في اللغة الفارسية لكونه لم يعرف من معانيه في تلك اللغة الا اليد شهرته فيها

قال الخفاجي في شفاء الغليل بعدان ثقل عبارة القاموس واستعمله المتأخرون بمعنى الديوان ومجلس الوزارة والرئاسة

مستعاراً من هذه

قال المعري

من آلة الدست ما عند الوزير سوى

تحريك لحيته في حال إمضاء

فهو الوزير ولا ازر يشدّ به

مثل العروض له بجز بلا ماء

ثم قال وقيل لا يصح فيه أن يكون مشتركاً لاختلاف معناه

في اللغتين فانه في الفارسية بمعنى اليد وفي العربية له معان أربعة

اللباس والرئاسة والحيلة ودست القمار وجمعها المحريري

في قوله نشدتك الله أَلست الذي اعاره الدست فقلت لا والذي

اجلسك في هذا الدست ما انا بصاحب ذلك الدست بل انت

الذي تم عليه الدست ويقولون للغالب تم له الدست والمغلوب

تم عليه الدست واقلب عليه الدست ومن الاخير دست

الشطرنج قال الشاعر

يقولون ساد الارزلون بارضنا

وصار لهم مال وخيل سوابق

فقلت لم شاخ الزمان وانما

تفرزن في اخرى الدسوت البيادق

والدست تستعمله العامة لتدبر الخاس قال سليمان بن عبد

الحق في بعض اهل الديوان وكان يلقب بالقط

ما نال قط الدست من فعله

غير سخام الوجه والسطر

ولّى عن الدست على رغبه

وانقلب الدست على القطر

انتهى المراد منه ولكن بقي ها هنا شيء وهو ان القدر لا تظهر له مناسبة بشيء مما ذكر من معاني هذه اللفظة في الفارسية فلعله مأخوذ من لفظ دسّتي بالياء التحتية بعد الياء الفوقية وهو بالفارسية ظرف للماء وغيره من المائعات يحمل باليد كالحجرة فلما اخذه المولدون والعوام تصرفوا فيه بمحذف يائه وكسر داله ومعربه دسّيج بالفتح ويوجد في الفارسية لفظ دست بالكسر الا ان معناه الشبر فقد علم مما ذكر ان استعمال لفظ دست في معنى القدر عامي مولد ليس بعربي ولا معرب ولهذا عبرت بالقدر

قال الانكليزي ذكرت بالدست والقدر بيتاً راجه في كلام شاعر من المصريين لا اذكر اسمه ولا اجيد ضبط بيته وهو

وقدر كمثل الفيل في القدر اشرفت

على منصب كالقيل في دست منصب

قال الشيخ . قوله وقدر هو بكسر القاف والمراد به القدر التي يطبخ فيها والفيل بالفاء معلوم والقدر من قوله في القدر بفتح القاف بمعنى المقدار والمنصب في قوله على منصب بكسر الميم على وزن منبر حديد تنصب عليه القدر له ثلاث قوائم والقيل في قوله كالقيل

بالثاف المفتوحة وهو الملك مطلقاً او من ملوك حمير او هودون  
الملك واصله قبل كَعِيل سمي به لانه يقول ما شاء فينفذ قوله  
والدست اراد به الديوان او صدر البيت ومنصب في اخر البيت  
واحد المناصب وصف بهذا البيت قدراً عظيمة يقول وقدر مثل  
الفيل في الكبر اشرفت وهي على منصبها اشرف الامير في ديوان  
منصبه او في صدر البيت المنسوب له وقد بالغ في عظم هذه القدر  
فجعلها كالفيل وان لم تكن كذلك

قال الانكليزي قد كنت متوقفاً في تانيث هذا الشاعر لضير  
القدر في قوله . اشرفت حتى رايتك تؤنثها

قال الشيخ القدر مؤثثة . قال ابن سيدة في المخصص القدر  
التي يطبخ فيها انثى وجمعها قدور ولا تكسر على غير ذلك وقد  
قدرتها اقدرها واقدرها (كصرب ونصر) طبختها ومرق مقدر  
مطبوخ في القدر والتقدير ما يطبخ في القدر والاعتدال الطبخ فيها  
انتهى . وبائع القدر قدوري وسخام القدر سوادها وقد مر له ذكر  
في البيتين السالفين ويقال للقدر العظيمة قدر أعشار كأنها  
ركبت من عشر قطع لعظمها وكبرها والقدر الوثية الواسعة  
وانشد ابو عبيد

وقدر كراأل المحصحات وثية

انخت لها بعد الهدوء الاثافيا

والاثافي حجارة توضع عليها القدر

قال الانكليزي سمعت رجلاً يقول في الدعاء على اخر  
رماه الله بثالثة الاثافي فما معناه

قال الشيخ ثالثة الاثافي الجبل وذلك انهم قد يضعون  
القدر على اثنتين الى جانب جبل ويسندونها اليه فيكون  
الجبل ثالثة الاثافي فيقال في الدعاء على الشخص رماه الله بثالثة  
الاثافي اي بذهاب عظمة كالجبل

قال الانكليزي فما معنى قول الشاعر  
وقدر جماع كاليفاع دمية \* زوازية سوداء غير صلود  
قال الشيخ . يقال قدر جماع وجامعة اذا كانت عظمة واليفاع  
النل ويقال قدر دمية ودميم اي مطلية بالطحال او الكبد او الدم  
بعد الجير والدم كغيب التي يسد بها خصاصات البرام من  
دمٍ أو لباء والدم والدمام ما يطلن به والقدر الزوازية  
والزويوزية هي التي تضم الجزور نقله ابن سيدة عن ابي عبيد  
وغير صلود اي غير بطيئة النضج يقال صلدت القدر تصلدها صلود  
ويقال قدر راسية اذا كانت ثابتة لا يطاق تحويلها لعظمها وفي  
التنزيل وقدر راسيات والبرمة القدر من الحجارة جمعها برام  
كخيال وبرم كصرد وبرم كدخن وصانعها المبرم وهو من يقطع  
حجارتها من الجبال واكبر البرام الجماع ثم التي تليها الميكلة وهي  
التي يستخف الحي ان يطبخوا فيها اللحم والعصيدة والصيداء حجر  
ابيض تعمل منه البرام



قال الانكليزي فهل تذكر قول الشاعر

رأيت قدور الصاد حول بيوتنا

قنابل دها في المحلة صبا

قال الشيخ نعم هكذا انشده ابن سيدة ولم يسنده والذي

احفظه حسبت بدل رأيت والبيت لحسان بن ثابت رضي الله

عنه من قصيدة طويلة يقول فيها

وندمان صدق تطر الخير كفه

اذا راح فياض العشيات خضروا

وصلت به زكني ووافق شيمتي

ولم اكُ عضا في الندامى ملوما

وابقى لنا من الحروب ورزوها

سيوفًا وادراعًا وجمعًا عرمرما

اذا اغبر افاق السماء وامحلت

كأن عليها ثوب عصب مسهما

حسبت قدور الصاد حول بيوتنا

قنابل دها في المحلة صبا

يقول اذا اشتد الجذب حسبت قدور الصاد حول بيوتنا

جماعة خيل قائمة يعني انهم يطعمون في الجذب والتحط كبيراً

والصاد الصفر وجمعه صيدان كنار ونيران قاله ابو علي وانشد

وسور من الصيدان فيها مذائب

رواه بكسر الصاد ورواه ابو عبيد بفتحها وقال الصيدان  
برام الحجارة والصاد قدور الصفر والنحاس قال ابن جنى  
والفه منقلبة عن الباء واستدل على ذلك برواية ابي عبيد  
من الصيدان بفتح الصاد قال وانا ارى ان القدر انما سميت  
صاداً من الصيد وهو التكبر وذلك لما في القدر من الغليان  
والحمى والفوران ولذلك يشبه بها المساورة والمضاغنة قال  
الشاعر

تفور علينا قدرهم فنديها \* ونقشوها عنا اذا حميها غلا  
( اه ) وذكرت بهذا قول امرء القيس في صفة الفرس  
على العقب جياش كأن اهتزاه

اذا جاش فيه حميه غلي مرجل  
العقب عقب الانسان خفف باسكان القاف والاهتزام شدة  
الصوت يريد ان هذا الفرس اذا حركته بعقبك حمى وجاش كما  
تميش القدر وكفى ذلك من السوط والمرجل القدر من النحاس  
وقيل كل قدر مرجل وهي مؤنثة وقال ابن دريد التساخين  
المراجل لا واحد لها الا انهم قد قالوا تسخان ولا احتته وشكيمة  
المرجل عرونها ويقال للقدر الصغيرة كفت بفتح الكاف وقد تكسر  
وتقول الترك وبعض مخالطهم من العامة للقدر التي يطبخ فيها  
تجرة وهو محرف تنكيره الفارسي ومعربه طخير بغير هاء كما في  
القاموس وطحيره بالماء كما في لهجة اللغات وفيها ايضا الهبطلة قدر

صانع الحلول وفي القاموس الهبطلة قدر معروف من صفر معرب  
باتيله والظرف الذي تصنع فيه الخيصة مخبضة ويقال للوعاء الذي  
يقل عليه مقلاة ويقال ايضاً طاجن وطيخن وهما معربان كما في  
القاموس وفيه ايضاً الطابق كهاجر وصاحب ظرف يطبخ فيه  
معرب تابه والخرقة التي تمسك بها القدر لتنزل عن النار يقال  
لها الجعال واجعلها انزلها بالجعال هذا بعض ما يتعلق بالقدر  
ولو اخذنا في استيفاء جميعه لطال الكلام وتشعب القول فلنكتف  
بهذا القدر وننتقل الى الكلام على العربية وما يتعلق بها

قال الشهاب الخفاجي في شفاء الغليل العربية بلغة اهل  
الجزيرة سفينة يعمل فيها ربح في وسط الماء الجاري مثل دجلة  
يديرها شدة جريده وهي مولدة فيما احسب . قاله في المعجم وانا لا ادري  
هل المركب المسمى عربية ( وهو ما نحن فيه ) اخذ من هذا او هو  
غير عربي وهو الظاهر ( اه ) كلامه

وفي تفسير الرازي ان مادة ( ع ب ر ) بجميع تقاليبها الستة  
التي منها ( ع ر ب ) تدل على العبور والانتقال ونص عبارته  
المسئلة التاسعة العبارة وتركيبها من ( ع ب ر ) وهي في تقاليبها  
الستة تفيد العبور والانتقال فالاول ( ع ب ر ) ومنه العبارة لان  
الانسان لا يمكنه ان يتكلم بها الا اذا انتقل من حرف الى حرف  
اخر وايضاً لانه بسبب تلك العبارة ينتقل المعنى من ذهن نفسه  
الى ذهن السامع ومنه العبرة ( بالفتح ) لان تلك الدمعة تنتقل

من داخل العين الى الخارج ومنه العبرة ( بالكسر ) لان الانسان يتقل فيه من الشاهد الى الغائب ومنه المعبر لان الانسان يتقل بواسطته من احد طرفي البحر الى الثاني ومنه التعبير لانه يتقل مما يراه في النوم الى المعاني الغائبة . الثاني ( ع ر ب ) ومنه سميت العرب لكثرة انتقالاتهم بسبب رحلة الشتاء والصيف ومنه فلان اعرب في كلامه لان اللفظ قبل الاعراب يكون مجهولاً فاذا دخله الاعراب انتقل الى المعرفة والبيان . الثالث ( ب ر ع ) ومنه فلان برع في كذا اذا تكامل وتزايد . الرابع ( ب ع ر ) ومنه البعر لكونه متقللاً من الداخل الى الخارج الخامس ( ر ع ب ) ومنه يقال للخوف رعب لان الانسان يتقل عند حدوثه من حال الى حال اخرى . السادس ( ر ب ع ) ومنه الربع لان الناس يتقلون منها واليه ( اه )

فعلى هذا مادة ( ع ر ب ) تدل على الانتقال والعبور مثل ( ع ب ر ) ومناسبة هذا المعنى لهذا المركب المخصوص الذي نحن بصدده واضحة ظاهرة لاختفاء فيها ولكننا لم نجد في كلام العرب ولا من قرب منهم ولا وجدنا من نقل عنهم اطلاق لفظ العربية على المركب المذكور وانما نسمعه في كلام المولدين وكلام الترك فقد خالطتهم وتعلمت من لغتهم ورأيت صاحب لهجة اللغات اوردته فيما ذكر من الكلمات وكتبه بالالف هكذا ( ا ر ه به ) قال الانكليزي فما هذه الهاء التي بعد الراء

قال الشيخ هذه الهاء لبيان فتحة الحرف الذي قبلها لا للتلفظ بها ونظيرها الهاء التي بعد الباء فليست هاء تانيث وإنما تكتب كذلك لهذا السبب ويسمونها هاء رسمية لكونها ترسم ولا تقرأ ولعل هذه الكلمة محرفة من عربية بإبدال عينها همزة كما صنعوا في عباء فقد رسمه في الكتاب المذكور (أبه) وقال هو عربي محرف وصحنه عباء وبعض الناس يزيد على لفظ عربية الباء ويقول عربية

قال الانكليزي فما يقال في العربية في محل لفظ عربية المذكور

قال الشيخ . قال في الكتاب المذكور هو بالعربي عجلة بفتح العين المهملة والجيم واللام وهاء الوقف آخره وحال وهي التي تتخذ للصبي ليتعلم عليها المشي ودراجة وهي مثلها (اه) وتسمى العجلة ايضاً زازية كما في القاموس وفيه ايضاً العجلة بالتحريك الالة التي يجرها الثور والجمع عجل وعجال وعجال والدولاب او المحالة وخشب تؤلف تحمل عليها الاثقال (اه) والان تطلق العجلة على تلك الدائرة التي تدبر بها العربية على الارض واسمها في العربية دؤارة بضم الدال ومدورة وكل شيء مستدير اذا لم يدرو لم يتحرك فهو دؤارة وفؤارة بفتح الدال والفاء فاذا دار او تحرك فهو دؤارة وفؤارة بضمها واذا اتسع ثقب الدؤارة من اكل المحور الذي فيها وضعت في ثقبها قطعة خشب ليضيق فتسي هذه الخشبة نخماس

بالنحاء المعجمة بعد النون وقيل النخاس طوق الدوارة والمحور  
المذكور يسمى القب والمسار الذي يكون فيه يسمى زازة كما وجدته  
في ترجمة مقدمة الادب وفيه المدهن ظرف يوضع فيه الدهن لطلاء  
بعض مواضع العجالة

وبينما هما في هذا الكلام وإمثاله اذا بهما قد وصلا الى موقف  
السكة بناحية كفر الدوار

قال الانكليزي هذا اخر موقف في هذا الطريق ليس بعده  
الا الموقف في اسكندرية ولم يبق عليها الا مدة يسيرة ودقائق من  
الزمن غير كثيرة

قال الشيخ سبجان الله لقد تقاربت البلاد والامصار بسبب  
هذا البخار تقارباً شديداً حتى صار يستغني الانسان في اسفاره عن  
عدة اشهر ببعض ايام وعن عدة ايام بيوم او بعض يوم فصار  
يمكن للانسان ان يسافر من القاهرة الى الاسكندرية ويرجع اليها  
من يومه بعد ان كان لا يمكنه ذلك الا في مدة اسبوعين او اكثر  
حتى ان بعض اصحابي اخبرني انه سافر مرة من الاسكندرية في  
البحر يريد القاهرة فلم يصل اليها الا بعد ثلاثين يوماً فقد رج  
الانسان مدة طويلة من عمره فضلاً عما توفر عليه من ماله الذي  
كان يصرفه في سفره واستراح من كثير مما كان يكابده من المشاق  
والمناعب والعوائق والمصاعب التي لم يكن يخلو عنها ولا يسلم  
مسافر منها فما اكثر فوائد هذه السكة وما اوفر ما لها من الخير



## والبركة

قال الانكليزي من اعظم فوائدها ما حصل بين الملل وبعضها من المساعدة الكلية فيما بطراء عليها من الحوادث الفظيعة كالغلاء والتحط فتصل الاخبار وتنتقل الارزاق من سائر الاقطار ويحصل الاسعاف من دون ان يشعر الخلق كما حصل غير مرة وقبل ظهورها كان اذا حصل مثل ذلك في اقليم من اقاليم المعمورة لم يمكن ان تصل اليه مساعدة من اقليم اخر الا بعد جهد جهيد وبلاء شديد حتى ان الناس في بعض الازمان اكل بعضهم بعضاً بعد ما اكلوا الرم والجيف وباعوا اولادهم وكذلك اذا حصل ببلد من البلاد بعض امراض وفساد في الهواء يسهل بواسطة هذه السكة مفارقتة بعض ايام والعود اليه بعد ذلك فعلم من هذا ان حصول التيسير بين الناس واتساع دائرة معاشهم وكثرة امنهم قد زاد عما كان عليه في الايام السالفة ومن تامل اصناف المبيعات من الخضروات والفواكه تحقق عنده فائدة البजार ومزيد منفعة فانا نرى الفواكه على اختلاف انواعها وبعد بلادها في جميع اوقات السنة مجلوبة الى البلاد المصرية مع انها ما كانت ترى فيها من قبل وكذا الخضروات الطرية فباي كيفية كان يمكن ذلك لولا استعمال البजार فقد حصل به ثمرات متعددة لكل من البائع والمشتري بتقل الفواكه والخضروات والبضائع في كل البقاع واتسعت دائرة الفلاحة بكثرة الرغبة في الزرع لكثرة ارباحه وازدادت درجة

الثروة في كل البقاع ومن يقارن كمية المنزوع بالطرق المعتادة من قبل بما هو منزوع الآن يجد بينها فرقاً كبيراً جداً في مقدار الفدادين والمحصول لان صاحب الارض في الزمن السابق كان لا يزرع الا بقدر قوته او قوة المزارع فكانت الزراعة موقوفة على حد معين لا تتعداه واما الان فبواسطة استعمال الآلات البخارية في الحرث والري والحج وما اشبه ذلك امكن له الخروج عن هذه الحدود والاتساع فيها والمحصول على عدة نتائج يزداد بها راس ماله وارباحه واصلاح ارضه بالخدمة والتنظيم فجميع هذه الامور ونحوها كالتيجارة والصناعة قد تحسنت وازدادت اضعاف ما كانت عليه وما زالت آخذة في زيادة التقدم والريج ولولا هذا البخار لكنت غالب بقاع الارض محرومة مما هي متمتع به الان من مزروعاتها واهلها محرومين من نتائج مصنوعات البلاد الاخرى ومحصولاتها واقول لك بالاختصار ان استعمال البخار اقوى مغذ لظاهر الانسان وباطنه اما ظاهره فبالروث والبهجة واكتساب راحة البدن والمهجة واما باطنه فباتقاله من قيد المضيق الى سعة الاطلاق وتحليه بمعرفة عجائب البلاد وغرائب الافاق وبسببه اعتادت الناس على حسن المخالطة والانس والائتلاف وزال ما كان بينهم من مرجبات الوحشة والبغضاء والاختلاف وتاكّد ذلك باستعمال الاشارة الكهربائية المعروفة بالتلغراف اذ لا يكون بين المخلق وبعضها رابطة اقوى من رابطة المنفعة وكل ذلك نتج

من استعمال هذا السر المودع في الماء فسبحان من ابدعه ودبره  
ولم يظهره الا في الوقت الذي اراده وقدره

قال الشيخ من نظر لظاهر صورة الانسان مع ضعفه وصغره  
جثته ودقة اعضائه ونخافته ونظر لافعاله وعجيب اثاره واحواله  
استغرب وتعجب ولم يهتد في نسبة ذلك له الى سبب فانه مع ضعفه  
وصغره يتصرف في الكون باسره بقوة نظره وفكره ليحصل منه على  
اغراضه ومقاصده ومنافعه وفوائده فتراه قد احال على الهواء فسخره  
وصار محبوب به البحار والقفار ويملاً به الجداول والانهار فتارة  
يجري به الماء وتارة يجمعه وتارة يصرفه وتارة يمنعه وتارة يرفع سطحه  
وتارة يخفضه حتى روى الارض المنخفضة والمرتفعة من غير فرق  
بين بقعة وبقعة فكانت الارض طوع يده منقادة في جميع احوالها  
اليه فظهرت له خيراتهما واغدقت عليه بركاتهما وكذلك سخر النار  
فصارت من ضمن خدمه يستعملها في مصالحه البرية والبحرية فلم  
يكن شيء من المخلوقات الا وقد دخل تحت طاعته وفي تصرفه  
وقبضته فجميع الحيوان والنبات والنار والهواء والتراب والماء خاضع  
لسطوته مدعن لياسه وصولته فمثل الانسان بالنسبة لغيره كالملك  
بالنسبة لرعيته وذلك بمقتضى ما منحه الله سبحانه من خلافته قال  
تعالى اني جاعل في الارض خليفة وقال سبحانه هو الذي خلق  
لكم ما في الارض جميعاً ولكن الانسان كما انه يستعمل فكره ونظره  
في حصول الكمال والوصول الى خير الاعمال يستعمل ما ذكر في

بعض الاحوال في الضرر والوبال والطغيان والضلال وكما كان العقل سبباً في هذا النفع بكماله قد يكون سبباً في ضرر صاحبه وضلاله والوقوع في سيء اعماله فيوقعه ذلك فيما يغضب الرب ويمنعه من منازل القرب ولا ريب ان هذا كله ما يدل على وجود الصانع العليم والمبدع الحكيم الذي اودع في كل ذرة من مخلوقاته لطائف صنعه ولطيف آياته قال تعالى في كتابه المكنون (وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون)

ففي كل شيء له آية \* تدل على انه واحد

فكيف يتعدى العبد حدود مولاه ويحمد ما منحه واولاه  
قال الانكليزي لا شك ان الانسان صفة الخليفة والملك  
الخليفة على غيره في الحقيقة وقد وصل الى ما وصل اليه من الكمالات  
العظيمة والدرجات العالية بالتدرج والتقدم شيئاً فشيئاً فكان  
كلما انكشف له سر من الاسرار او وقف على شيء من الآثار  
بحث عن غيره وطلب ما فوقه وهكذا ولم يزل كذلك من الاعصار  
القديمة والازمان الخالية الى هذه الايام الحاضرة وكذا يكون حاله  
في الاعصار القابلة بالقياس على ما سبق فكلما اتسعت دائرة  
استكشافه بوقوفه على شيء من اسرار الكائنات ولطائف مكنوناتها  
اتسعت دائرة علمه فيتسع نور بصيرته فيتمكن من الاطلاع على  
مكنونات اخرى اعظم من الاولى وانفع منها وكلما اطلع على سر  
استنتج منه غيره وبهذه الطريقة وصل للقوانين العمومية والنواميس

الحقيقية التي عليها مدار الكائنات وجميع ما استكشفه لم يكن إلا نتيجة بحثه في الموجودات ونسبتها الى بعضها من حيث الكيفية والافعال والصفات لان النوع الانساني في مبداء امره لم يكن يعلم ما يعلمه الان والدليل على ذلك اننا لم نجد امة من الامم الا وقد انتقلت من حالة الى حالة اخرى وهذا محسوس بالمشاهدة فكم من امة كانت في اسوء حال من نحو اربعين سنة قد انتقلت عن حالتها حتى صارت اول امة وما ذاك الا من حسن تدبيرها وإدارة امورها بموافقة قوانينها وكم من امة كانت تخشى سطوتها الام آلا حالها الى الدمار والعدم وكان عاقبة امرها ان صارت تحت رق غيرها فالبسها الله لباس الذل والمهانة وانحطت عما كانت عليه من علو المكانة ومن هنا علم ان نوع الانسان بالنسبة لما هو عليه الان كان غارقا في بحار الجهل زمنا طويلا يرتع كالانعام بل اضل سبيلا كاهل البقاع المتوحشة بافريقيا واسيا وامريكا فاستمر بهم الامر على ذلك حتى وجدت الاسباب التي اضطر بها الناس الى الالفه والاجتماع فديت بينهم علائق التانس ومبادئ التمدن وذلك انهم اخطوا مدنا وامصارا وقرى وديارا سكنوا بها واجتمعوا فيها فاحتاجوا الى الضبط والربط والتعامل والتعامل فكان ذلك من الاسباب والذرائع لوجود القوانين والشرائع والعلوم والمعارف وسائر اللطائف فمن ذلك الوقت بدا العلم في بعض البقاع ودب في الخلق حب الاتساع فتعلقوا من الشرائع بحبالها

فاوصلتهم الى فهم القوانين والنواميس التي عليها مدار احوال الموجودات حتى وصل العلم الى الدرجة التي هو عليها الان وان كانت ليست الدرجة التي يجب الوقوف عندها بل كل زمن يأتي معه فوائده على حسب ما تقتضيه احواله وعوائده فكما تنقل النوع البشري في الازمان الماضية كذلك يتنقل في الازمان الاتية وحيث علم ذلك ظهر ان اكبر باعث للانسان على البحث ومعين له في مقاصده هو الخليفة نفسها والموجودات اعيانها . قال الشيخ . نعم وانما عليه ان يخص كل فرد من افراد الاشياء بما يوافقه على حسب ما علمه فان وفق للحق واسند الى كل شيء ما استحق ولم يخرج عن الحدود المرسومة والقوانين المعلومة كانت اعماله راجحة وافعاله ناجحة وان نسب الى افراد الاشياء ما ليس لها وصورها في نفسه بصورة تخالف حالها لبست غير كسوتها وظهرت على خلاف حقيقتها فاذا اعتقد ذلك ووثق به وجرى على موجبيه وحكم بحسبه ضل عن طريق السلامة ووقع في مهاوي الندامة فيكفر بربه الذي خلقه من ماء مهين ورزقه وهو خير الرازقين ويعيش بين خيالات واوهام ووساوس والام ويستمر على هذه الحالة مدة حياته ويؤثر امره الى العذاب المهيّن بعد مماته فعلم ان عقل الانسان قبل علمه كان ناقلاً عن افراد الخليفة ومقلداً لها واما بعد العلم فيكون لها كالملك بالنسبة لرعيته فكما ان احوال الرعية مرتبطة باحوال الملك وكل ما يصدر عنه من قول او فعل يسري الى



الرعية فكذلك الانسان بالنسبة للخليقة فان اهتدى الى الطريق  
الحق وصل واتصل وان عدل عنه ضل واضل  
وقد امتد بينها القول في هذا المعنى الى ان وصلا الى  
اسكندرية

فقال الانكليزي للشيخ قد قطعنا المسافة بين القاهرة  
واسكندرية وهي مائة وثلاثون ميلاً انكليزياً في اربع ساعات  
ونصف ساعة وكان يلزم لقطع هذه المسافة بغير سكة الحديد  
نحو اربعة ايام واكثر فهل تعلم احسن من هذا الاختراع العجيب  
الذي كان سبباً لقطع تلك المسافة الطويلة في هذا الزمن القريب  
ثم انهم نزلوا في موقف السكة بالاسكندرية فوصل الى الانكليزي  
هناك ورقة على يد احد خدمة البوسطة فاخذها منه فلما فتحها  
وقراها ضحك ملياً وقال للشيخ اتعلم سبب ضحكي قال الشيخ لا  
قال اتريد ان تعلم سببه قال نعم ان شئت فقال الانكليزي  
ان الكلام المسطر بهذه الورقة برز من فم قائله وهو الذي من  
منذ ساعتين من لوندرة وبيننا وبين هذه المدينة بحسب الطريق  
الذي نسلكه اليها نحو ثلاثة آلاف ميل فعجب الشيخ اكثر من  
تعجبه من سرعة الوابور فقال له الانكليزي سأشرح لك بعد  
الاستراحة سبب هذا السر العجيب ان شاء الله تعالى

المسامرة المحادية عشرة  
المخانات واللوكندات

ثم ساروا جميعاً ودخلوا اسكندرية ونزلوا في خان من خانات المسافرين المعروفة باللوكندات ليقسموا به الى ان يحضر وابور البوسطة ولما كان الشيخ لم يسبق له دخول مثل هذه المحلات وانما قضى عامة اوقاته في الجامع الازهر وداره بمصر ظن في نفسه هذا المخان داراً للانكليزي اولا حد احبابه ولكنه كان يتأمل في حسن روثقه وبهجنه ونظافة مفروشاتة ولطافته فيتعجب مما يراه لا سيما من كثرة المسافرين الواردين على هذا المحل ووجدهم قد خصصوا له ولولده حجرة بها سريران ودولابان وطرايزة وشمعدانات وساعة دقاقة وفيها جميع ما يلزم من الماء والصابون والمناشف والكراسي بحيث لا ينقص شيء مما عساه يلزم للانسان من امثال ذلك فقال لولده يلزم ان يكون الانكليزي صاحبنا ذا مال كثير وثروة عظيمة حتى يكون له منزل مجمل بهذه الصفات غاص بهذه المخلوقات فقال له ولده وقد رأى غير هذه الحجرة ان هناك حجرات وغرفات اعظم من حجرتنا زخرفة ولطافة وفي كل منها من الاسرة والادوات الكثيرة مثل ما هنا واكثر واظن ان هذه الدار ليست ملكاً له بل ل احد اصحابه وقد شاهدته عند

دخولنا يتكلم مع واحد من ابناء جنسه بكلام يدل على المحبة والالفة فقال له والده هي على كل حال تدل على عظم قدر صاحبنا سواء كانت له او لغيره اذ لولا ذلك لم يمكن له ان ينزل بدار مثل هذه وبينما هما في هذا الكلام ونحوه اذ دخل الانكليزي وسأله عما يلزم له وعرفه كيفية الاقامة بهذا المحل وأشار له الى خيط نازل من اعلى المحل يقرب من الارض وقال له اذا لزم لك شيء مما تريده فشد هذا الحبل وحركه يتحرك بحركته جرس يسمعه الخادم ويأتي اليك فتخبره بما تريد يأتيك به في اقرب وقت فسر الشيخ من ذلك وشكره واثني على اخلاقه فقال الانكليزي اخبرك ايها الاستاذ ان الانسان في مثل هذه الدار لا ينبغي له ان يمنعه الخجل عن طلب ما يلزم له لان اصحابها لم قانون مربوط وقدر معين مضبوط على كل شخص بحسب المكان الذي ينزل به سواء طلب ما يلزم له او امتنع من طلبه وعليهم لكل محل فروض يجب اداؤها . فقال له الشيخ اليس هذا المكان لك او لبعض احبابك نزلت عنده فقال لا بل هو خان يعرف بلفظ (لوكاندة) او (اوتيل) وهو معد لاقامة من يرد عليه من الاغراب والمسافرين ومن لا مأوى لهم في البلد كالمحلات التي تعرف عندكم بالوكايل . فقال الشيخ سبحان الله ارى الافرنج يعتنون باثقان جميع الاشياء حتى خاناتهم ووكايلهم لا يتساهلون فيها كشاهلنا في خاناتنا ووكائلنا فنرى المسافر اذا نزل بمكان من

خاناتنا ووكائلنا وجد المكان مجرداً من كل شيء فلا يجد به ما يأكله أو يشربه أو يفرشه أو يستعمله والويل لمن يمضي عليه بها الليل لانه يكون تحت تصرف انواع الحشرات من البرغوث والقمل والبق والبرغش بيت مسهداً ومثل هذا منشداً

ثلاث باآت بلينا بها \* البق والبرغوث والبرغش

ثلاثة اوحش ما في الوري \* ولست ادري ايها اوحش

وهكذا النمل وجميع الموزيات فلا يرى فيها ما يسر الناظر ويرجج القلب والخاطر تنهال عليه الاتربة من كل جانب وتدب اليه الهوام من سائر الجوانب فلا يطرق جفنه المنام ولا يستريح في قعود ولا قيام لا يأمن فيها الانسان على نفسه ولا يجد طريقاً لانه تراها تقدمها الى السقوط آت وتخرّبها تساقطت اتربتها وانها لات فتضي عليه المدة في قلق ويقضي ليله في سهر وارق خصوصاً من كثرة نباح الكلاب وشحج البغال وطنين الذباب ورغاء الانعام وكشيش الهوام وصهيل الخيل ونهيق الحمير وهنالك يستغيث ويستجير وهيئات المغيث والمجير وليس بها منافذ لتجديد الهواء ودخول الاضواء غير فتحات صغيرة وكوات حقيرة عليها ابواب من الاخشاب غير متقنة الصنع ولا محكمة الوضع ان اغلقت حجب الانوار واشتبه الليل بالنهار وان فتحت جلبت المضار ولم يتنفع بها في دفع الحر والبرد والغبار فهي في الشتاء زمهرير وفي الحر نار وسعير وسقفها مسكن للحشرات والهوام وشرابال المترايب يخله

على الاجسام وينثره على الجفون ويذرّه في العيون فان فزع الانسان  
 عينه امتلأت قذى وان اغمضها لم يأمن من الاذى فان نزل  
 المطر فخير لمن بها ان يستتر بالسماء ويلتخف بالانواء فهذا السقف  
 يطر الطين والسماء انما تمطر الماء ولقد حكمت عليّ صروف  
 الاقدار فدخلت احداها ليلة في بعض الاسفار  
 فبت كافي ساورتي ضيئة

من الرقش في انيابها السم نافع  
 ولقد تذكرت ليلة بت بها القصيدة المشهورة للاديب كمال  
 الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الاعمى في صفة دار كان  
 يسكنها فبت اترنم بابياتها واتسلى بكلماتها فقال الانكليزي اي  
 القصائد هي فقال الشيخ ها هي  
 دار سكنت بها اقل صفاتها

ان تكثر الحشرات من حشرات  
 الخير عنها نازح متباعدا  
 والشر دان من جميع جهاتها  
 من بعض ما فيها البعوض عدته  
 كم اعدم الاجفان طيب سناتها  
 وتبيت تسعدها براغيث متى  
 غنت لها رقصة على نغماتها

رقص بتنقبط ولكن قافه  
 قد قدمت فيه على اخواتها  
 وبها ذباب كالضباب يسد  
 من الشمس ما غي سوى غنائها  
 اين الصوارم والقنا من فتكها  
 فينا واين الاسد من وثباتها  
 وبها من الخطاف ما هو معجز  
 ابصارنا عن وصف كفياتها  
 وبها من الجردان ما قد قصرت  
 عنه العناق الجرد في حركاتها  
 وبها خنافس كالطنافس افرشت  
 في ارضها وعلت على جنباتها  
 لو شم اهل الحرب منتن فسوها  
 اردى الكاة<sup>٩</sup> الصيد عن صهواتها  
 وبنات وردان واشكال لها  
 ما يفوت العين كنه ذواتها  
 ابدا تمص دماءنا فكأنها  
 حجامه لبدت على كاساتها  
 وبها من النمل السلياني ما  
 قد قل<sup>١٠</sup> ذر الشمس عن ذراتها



ما راعني شيء سوى وزغاتها  
 فتعوذوا بالله من لدغاتها  
 سحبت على أوكارها فظننتها  
 ورق الحمام سحبت في شجراتها  
 وبها زنا بئر تظن عقاربها  
 حر السموم اخف من زفراتها  
 وبها عقارب كالأقارب رتع  
 فينا حمانا الله لدغ حماها  
 كيف السبيل إلى النجاة ولا نجا  
 ة ولا حياة لمن رأسه حياتها  
 منسوجة بالعنكبوت سماؤها  
 والأرض قد نسجت على آفاتها  
 واليوم عاكفة على أرجائها  
 والدود يبحث في ثرى عرصاتها  
 والجحش تاتيه إذا جن الدجى  
 تحكي الخبول الجرد في حملاتها  
 والنار جزء من تلهب حرها  
 وجهنم تعزى إلى نفعاتها  
 شاهدت مكتوبا على أرجائها  
 ورأيت مسطورا على جنباتها

لا تقربوا منها وخافوها ولا  
 تلقوا بأيديكم الى هلكاتها  
 ابدأ يقول الداخلون بياها  
 يارب نج الناس من افاتها  
 قالوا اذا ندب الغرب منازلنا  
 نتفرق السكان من ساحاتها  
 وبقارنا الف غراب ناعق  
 كذب الرواة فاين صدق روايتها  
 صبراً لعل الله يعقب راحته  
 للنفس اذ غلبت على شهواتها  
 دار تبث الجحش تحرس نفسها  
 فيها وتندب باختلاف لغاتها  
 كم بت فيها مفردا والعين من  
 شوق الصباح تسبح من عبراتها  
 واقول يارب السموات العلا  
 يارازقا للوحش في فلواتها  
 اسكتني بجهم الدنيا ففي  
 اخراي هب لي الخلد في جناتها  
 فلما اكمل الشيخ قال الانكليزي لقد احسن هذا الشاعر  
 واحاد وبلغ ما اراد من المبالغة في صفة تلك الدار وذمها وتسميتها

وتهويل امرها ووصف كثرة شرها وقلة خيرها  
 فقال الشيخ كل ما ذكره من المقام العظيمة والاصناف  
 الذميمة مجموع في تلك الخانات والوكائل القديمة بخلاف هذا  
 الخان اللطيف والمكان الظريف فانه خال من جميع تلك المضار  
 مشتمل على كل ما يجلب المسار من حسن بنائه وتجدد هوائه  
 ونظافته محلاته وكال ادواته فيقيم به الانسان في دعة وراحة  
 وسعة لا يرى الا ما يسر ولا يجد ما ينفره او يضره ولا يفقد ما  
 يحتاجه في وقت من الاوقات من جميع اللوازم والادوات فليت  
 ما عندنا من الوكائل المذكورة يستبدل ولو على التدرج بما يقرب  
 من هذه الصورة

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ايها الصاحب الفاضل  
 والعالم العامل ان الامور مرهونة باوقاتها والاسباب ملازمة  
 لمسبباتها ووقتنا هذا ليس كالاوقات التي مرت على مصر فكان  
 من يسير او يسبح بها قبل الآن بنحو خمسين سنة لا يرى مثل هذا  
 الخان في مدينة من مدن مصر لانه كان غير لازم في تلك  
 الاوقات بسبب فقر الاهلين واضمحلالهم وندرة وجود الاغراب  
 بها لعدم امنهم اذ ذاك فيها على انفسهم واموالهم فكان من يأتياها  
 منهم ليتقف على اخبارها او يطلع على اثار الماضين من سكانها  
 يكابد مشقات عظيمة ويصرف في الحصول على ذلك مبالغ  
 جسيمة ويستغرق ازمة طويلة ويحتاج الى مكاتبات للوصية عليه

ومخاطبات رسمية لعدم التعرض له وتحفظات كثيرة على نفسه وماله وما معه لان الفتن كانت مستمرة والاحوال لم تكن مستقرة والاهوال مترادفة والاهواء متخالفة فكانت الاغراب تعد دخولها والاقامة فيها من باب المخاطرة لما ذكر ولا سيما لتسلط الامراض الوبائية الدورية فيها على الاغراب في تلك الاوقات وكان ذلك امرًا مشهورًا بين اهل اوروبا يصل اليهم في رسائل محررة بالسنة مختلفة من ورد عليها واطلع على احوالها وهذا فضلاً عن قلة العلائق بين اهل مصر والاقطار الاخرى فكانت مصر في معزل عن جميع الاحوال الانسانية كأهل دارفور وكردفان الان فكل جهة كانت مختصة بما عندها محرومة من فوائد غيرها وكانت المحكام والمتصرفون في امور العامة اذ ذاك مشغولين باحوالهم الخاصة بهم كل منهم مقتصر في تحصيل معيشته وما يزيد في ثروته على اسباب فاسدة واعمال كاسدة كالقتل والنهب والسرقة والسلب صارفاً كل فكره في الوصول الى مال غيره ولو باضرار لا يبالي في فعله بجرمة ولا حل ولا يراعي حق صاحبه في نسب ولا آل ففسد امر الناس وتضعضع وانحط حالهم وتزعزع لقله الناصر وعدم المنصف القاهر فأهملت اسباب الثروة والتقدم وآل امر اهلها الى الفقر والعدم لتسلط الافات المتنوعة والعاهات الكثيرة المستفظة وتعطلت حركة التجارة والفلاحة ولم يجد اهلها من عدم الراحة ما يملأ الراحة وتعطلت الارض من الزراعة

ووقع اهلها في اشد مجاعة فلاجل هذه الاسباب انتقطع عنها توارد  
الاغراب وقل تردد الخلق اليها وبانتقطاعهم عنها خلت افكار  
اهلها منهم فعملوا ما عملوا من خاناتهم ووكائلهم مناسبة لحال  
انفسهم وعوائد امثالهم وربما كانت الخانات والوكائل التي وضعوها  
فوق الكفاية اذ لم يكن المقصود منها الا الوقاية الوقفية مدة  
الليل وعلى الخصوص الأمن من اللصوص واما بالنهار فلا لزوم  
لها بسبب اشتغالهم بما يلزم لقوتهم ومعاشهم وبهذه الكيفية كان  
الغرض الحقيقي منها انما هو مأوى بعض الناس فيها بالليل ليس  
غير بخلاف هذا الوقت فانه قد اطمئنت القلوب وحصل الامان  
وساعد الزمان بوجود علائق المحبة بين الممل خصوصاً بين اهل  
مصر وسائر الدول بحصول الامن على المال والنفس ووجود  
انواع السهولة اللازمة للاسفار فاطمان الغريب وامن وسهل  
عليه مفارقة الوطن وهرع الناس الى مصر من سائر البقاع  
وتواردوا عليها من جميع الاطراف بمقاصد ممدوحة وان كانت  
مختلفة فمنهم من يقصد الإقامة فياخذ له بها مسكناً ويتخذها موطناً  
ومنهم من يقصد التجارة ومعاملة اهلها فيجيء من بلده اليها ثم يذهب  
منها الى بلده وهكذا على حسب مقتضيات الاحوال وبسبب  
اعتدال هوائها ولين طباع اهلها وكثرة احتفالهم واعتنائهم بالقادم  
عليهم كثرت الرغبة فيها لتغيير الهواء وتعديل المزاج وكنساب  
الصحة وبما اكتسبته من التمدن صارت قبلة لجميع اهل اوروبا

لا يتقطع تواردهم عليها وترددهم اليها من اول السنة الى اخرها  
ولكونها من قديم الزمان مجمع لجميع تجارة بلاد العرب والسودان  
كانت مركزاً يجمع فيه جميع التجار واصناف التجارة من جهات  
المعمورة كافة وما زاد في الرغبة في مصر ووسع في دائرتها وجود  
سكك الحديد الموصلة لجميع جهاتها وسلك التلغراف المار بينها  
وبين بلاد الهند واوربا فانقطع بذلك ضياع الوقت واتصلت  
الاخبار وجرت الامور باوقاتها من غير تطويل في الزمن ولا  
زيادة في المصروف فمن كثرة وجود الاغراب عندهم حدثت بالضرورة  
في البلد عوائدهم ومنها هذه اللوكاندات اذ لا ياورون الا اليها  
ولا يمكنهم الاستغناء عنها لانه كما يقال في الامثال (من شب  
على شيء شاب عليه) فمن ثم ظهر بالمدن التي ظهروا بها اولاً  
خانات ومحلات للملاهي وقهauer مشبهة لما في بلادهم ومناسبة  
لحال ثروتهم وكان اول ظهورها بالاسكندرية لانها المينا والمرسى  
للمراكب الواردة والصادرة واول بلد ينزل به الغريب بعد مفارقة  
البحر ثم سرى ذلك الى غيرها شيئاً فشيئاً وهكذا كلما مدت التجارة  
اغصانها واستظلت القرى بظلالها واقتطفت اهلها من ثمارها كثرت  
اثار التمدن والعمارة والتأنس والحضارة وعماً قليل يتألفون  
بالاغراب وثناكد بينهم الاسباب ويسعون في فعل ما يجذب  
قلوبهم اليهم ويحسنون امر ما بينهم ويتقل القطر ومبانيه واحواله  
واحوال ساكنيه! ويكون هذا الانتقال ثرة وجود الاغراب ولو



شرحت لك هذا المقام لطال الشرح واتسع الكلام ولكن يكفي  
الآن ما قلته لك وسنعود لهذه المسئلة فيما بعد هذا وقد جاء  
وقت الطعام فقم بنا انت وولدك ناكل ونستريح وفي غد ان شاء الله  
يكون السفر والانتقال عن هذا المستقر لان وابور البوسطة قد  
وصل ويسافر غداً بعد الظهر فقام معه الشيخ والغلام ودخلوا  
جميعاً محل الطعام فنظر اليه الشيخ فوجده متسعاً وفيه خلق  
كثير من نساء ورجال وشبان واطفال فداخله الحياء والهيبه  
لعدم اعتياده مثل تلك الجمعية العظيمة خصوصاً وقد رآهم  
جميعاً شاخصين بابصارهم اليه لمخالفة هيئته وملبسه لما هم عليه  
ولما علم الانكليزي منه ذلك مازجه ومازحه وازال ما داخله من  
الحياء وقال له تعلم ان ما يلزم معرفة العادات والرسوم المختلفة  
بين اصناف العباد بحسب الجهات والاقطار والبلاد لما في  
ذلك من عظيم الفائدة باتساع دائرة الاطلاع والتمكن من تمييز  
الحسن والقبح من احوال الناس والبقاع فقبل الشيخ منه تلك  
العبارة وقعد بقربه وقعد ابنه الى جانبه وصار يتأمل في هذه  
الجمعية وما كوها ومشروبها ووجد امامه على السفرة ملقعة وسكيناً  
وشوكة واقداحاً صغيرة وكبيرة لم يدرك ما المراد بها وكذلك ولده  
فاراد ان يستفها عنها من صاحبها الانكليزي الا انها رأياه يتكلم  
مع من بجانبه من الطرف الآخر فلم يريد ان يقطع كلامه ورأيا  
امام كل واحد من المحاضرين مثل ذلك فانقفا على ان يصبرا

حتى ينظرا ما يصنع كل احد بما امامه من تلك الادوات وكيف  
يتفع بها فيفعلا مثلما يفعل غيرها

وبينا هما في هذا الكلام دارت صحاف الطعام ورأيا كيف  
يستعمل الحاضرون هذه الادوات والتفت الانكليزي اليها وعرفها  
بما رآه قد يخفى عليها واعلمها ان جميع ما يحضر لذلك المحل من  
اللحم اصله ماخوذ من جزارين من اهل البلاد فضلا عن كون  
اصحاب المحل من اهل الكتاب فاكل الشيخ وابنه كسائر الحاضرين  
واستعملا بعض ما امامهما من الاقداح في شرب الماء القراح  
وتركا ما اعد منها للراح

وقال الانكليزي للشيخ فيما بينه وبينه انما قصدت بحضوركما  
على هذه المائدة بين هؤلاء الناس المخافين الاجناس ان  
تطلعا كما اخبرنكما على الرسوم والعادات وتعودا قبل دخول  
اوروبا على مثل هذه الحالات وهذه المائدة قد جمعت اغرابا من  
بلاد شتى والجميع من اوربا بعضهم ورد من قبل بقصد السياحة  
او الاقامة بمصر وبعضهم حضروا من مدة وقضوا ما ربههم واغراضهم  
ويريدون العود الى بلادهم ومن جملتهم عائلة انكليزية تريد ان  
ترافقنا في ابور البوسطة الذي نسافر فيه فان شئت واذنت  
عرفتك بهم لانه لا يخفى عليك مزايا المعارفة والائتلاف بالناس  
والمخالطة وحسن المعاشرة فقبل الشيخ منه ذلك وقال هذا مما  
ندب اليه نبينا صلى الله عليه وسلم حيث قال التودد الى الناس

نصف العقل وتعرف بهم وكان ممن حضر على المائدة بالقرب من الشيخ شابة طليانية تعرف اللغة العربية وغيرها فكانت تارة تتكلم بها وتارة تتكلم بلغتها او غيرها من اللغات الاجنبية على حسب لغات المحاضرين وكانت بديعة الجمال نادرة المثال ظريفة الشائل ثابتة الجاش فصيحة اللسان لا تقتصر في كلامها على الالفاظ العادية بل تاتي بمجاسن الالفاظ اللطيفة والنكات الظريفة وتدخل مع الرجال في المباحث العلمية والسياسية مع صغر سنها فتعجب الشيخ من ذلك واستغرب حالها لكونه لم يعهد في نساء البلاد المشرقية امثالها فانه يراهن دائماً عن الرجال بمعزل ولا شيء عليهن سوى خدمة المنزل ولا يتكلمن الاً مع أزواجهن وذوي قرابتهن وإذا تكلمن مع الرجال يتكلمن بنجل واستحياء بخلاف ما رآه في الطليانية ومن معها من النساء اذ لم يجد بينهن وبين الرجال فرقاً في المخاطبة والمجاوبة والمحاورة والمسامرة وكانت يرى الخادم يبداء في تقديم الطعام بهن قبل الرجال وإذا طلبن شيئاً بادر بتقديمه اليهن من كان قريباً منهن لا فرق بين صديق وغريب واجنبي وقريب فالكل محنفل بأكرامهن كل الاحفال ولا ياتي الاً بما يسرهن من الاقوال والافعال فامعن في ذلك النظر واجال فيه قدامج الفكر وقارنه في نفسه بعوائد نساء المشرقيين لينظرايهما افضل فراى ان عوائد المشرقيين اجمل واكمل لانها اعون على حفظ الشرف واصون للعرض من اسباب التلف

ولما انتهى امر الطعام وحن وقت القيام توجهوا جميعاً الى محل شرب القهوة فثمنهم من اقام بها يقرأ صحف الاخبار ونحوها ومنهم من خرج لاشغاله ومضى لحاله اما الانكليزي فتوجه مع الشيخ لمحجرته ومعها برهان الدين وكان الانكليزي قد تفرس ما دار بخاطر الشيخ في اثناء الطعام الا انه منع نفسه من الكلام في ذلك المقام ولما استقر بهم الجلوس وساغ ابداء ما حاك في النفوس

### المحاضرة الثانية عشرة النساء

قال الانكليزي قد اطلع سيدنا الشيخ في هذه اللحظة اليسيرة على كثير من عاداتنا واحوالنا ولا بد انه ادار نظره واجال فكره في المقارنة بينها وبين عادات هذه البلاد وتامل فيها تامل اعتبار وانتقاد فمن اجل هذه الفائدة قد رغبت في حضوره على هذه المائدة

فقال له الشيخ نعم كنت اتامل فيما اراه من الاحوال لاسيما في اختلاط النساء مع الرجال فوجدت في اختلاطهن فوائد لمن من حيث انهن يتلذذن بما يريدن ويعلمنه من الحوادث والاخبار

وما يظعن عليه من محاورات الرجال لكن ربما ترتب على هذا الاختلاط ما يخرجهم عما هو اليق بهن من الصيانة والحياء لان كثرة المخالطة والملازمة بين الرجال والنساء قد تفضي الى ضد ذلك فلا شك ان عادات المشرقيين ارجح وراهم في اختجاب النساء عن الرجال اصح واصح اذ ذلك مما يوجب زيادة ائتلاف المرأة باهلها ويؤكد ارتباطها بزوجها وارتباطه بها وامنه عليها ورضاها بحاله بخلاف ما اذا كانت تنظر لغيره في جميع الاوقات وتطلع على معاش الناس مع اختلاف الحالات فان ذلك قد يحرك عندها الشهوات ويجدد لها لوازم ربما اوقعت بينها المنازعات والمخاصمات فيؤل الامر الى الفرقة وخراب المنزل او انقسام العائلة ولهذا المصالح ورد شرعا باحتجابهن واظن ان اصل شريعتكم لا يخالف ذلك وهو ايضا مقتضى اراء العقلاء والنبلأ واكابر الحكماء قال علي كرم الله وجهه اكفف ابصارهن بالحجاب فان شدة الحجاب خير لهن من الارتياح وليس خروجهن باضر من دخول من لا يوثق به عليهن فان استطعت الا يعرفن غيرك فافعل . قال السمعاني لاتامنن على النساء ولو أخا \* ما في الرجال على النساء امين ان الامين ولو تحفظ جهده \* لا بد ان بنظرة سيخون وقال عمر الفاروق استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر

فقال الانكليزي ان الذي ذكرت ايها الشيخ من المحذورات

لا تمنع منه العزلة بالكلية لان كل امرأة يمكنها ان تعلم كل شي وهي في منزلها بان تنظر من الشباك مثلاً فتري كل ما يمر بالشوارع والمحارات فتعرف اوصاف النساء والرجال واحوالهم فمن احبته خاطبته وما اعجبها فعلته وحيثئذ يكون حال من فعدت في منزلها من النساء كحال من تكون مع الرجال سواء بسواء ومع ذلك فالمرأة على حسب عوائدكم لم تمنع كل المنع عن الخروج من منزلها بل تخرج لزيارة اهلها وجيرانها واحبابها من اهل البلد فيمكنها ان تطلع على صفاتهم واحوالهم وتعلم درجة ثروتهم في منازلهم واذا اراد منعها من الخروج فربما تعللت بان عليها ريجاً من الجن او بها مرضاً من الامراض فلا تستريح الا بزيارة بعض الاولياء او المضي الى بعض النساء او تريد الذهاب الى الحمام او صلة بعض الارحام ونحو ذلك من الاعذار والحيل التي يمكنها ان تباع بها الامل وهذا كله فضلاً عن اخبار المترددين اليها بجميع ما يكون من اخبار الناس وحوادثهم كل ذلك امر مشهور وواقع في بلادكم فلو صرح لها بالذهاب الى اي جهة ارادت لما علمت زيادة عما تعلم ولا الم بها اكثر مما الم فان قلت ان في العزلة بعض صيانة لعرضها ومحافظة على شرف زوجها واهلها بتقليل خروجها من منزلها ومخالطتها لغير بعلمها اذ ليست من تخرج متى شئت وتجنّب بمن ارادت في اي وقت كان مثل من لا تخرج الا باذن وسبب وعلة . قلت ليس هذا اقوى في الصيانة من التربية بين اهلها واقاربها فان حسن



التربية يرشدها لما يجب عليها من الفروض ويكسوها حلل المروءة اللاتمة بها وبزوجها وإقاربها فكما لا يكتفى بمجرد العلم مع الحرية كذلك لا يكتفى بمجرد العزلة مع الجهل بل لا بد في كلا الحالين من حسن التربية في الابتداء لانك تعلم ان حسن التربية يهذب عقل الانسان ويصفي طباعه ويعوده على الفضائل ويعده عن الرذائل فهو زمام ذلك كله والقاطع لعرق الشبهة من اصله ولم ارَ هذه العادة المخالفة لعاداتنا الا في بعض مدن البلاد الشرقية فاخصاصها بهذه المدن القليلة يدل على انها بدعة حدثت لاسباب طارئة فان جميع نساء الارياف ونساء عربان البادية وبلاد العرب واهل المغرب وسواحل الشام وارض الحجاز لا يحتجبن عن الرجال وربما قمن مقام ازواجهن في بعض الاحوال كاكرام الضيف والخذ والاعطاء مع الاجانب وكثيراً ما يكون امر المنزل وادارته موكولاً الى رأيهن وتديبرهن وقد رأيت فيهن من عاونت الرجل في اعماله الشاقة وهذا كله بالاخيار من غير اكراه ولا اجبار فلولا ان الحكم بالعزلة لامر قهري وسبب جبري لما وجدت في المدن واظن ان هذه العادة مأخوذة من الاعاجم وسرت الى امثال هذه البلاد عند دخول التار والترك بها واستيلائهم عليها فنشأ من عظمتهم وكبرهم احتقار غيرهم واكثروا للخدمة من الجواري وللفرش من السراري ولما اكثروا منهن خافوا عدم رضاهن بهم فمنعوا حرمهم من الدخول والخروج والاختلاط بالرجال

والزموهن البيوت والعزلة عن سائر الاجانب وما يقوي هذا  
الظن اتخاذهم الاغاوات للمحافظة عليهن خارجاً وداخلاً فنجدهم  
ملازمين لهن موكلين بهن من قبل ساداتهن يخبرونهم بكل ما  
يحصل منهن من قول وفعل فتكون العائلة دائماً في اضطراب  
ورعب وعذاب خائفة من ان تزل او يقال في حقها شيء لسيّد  
المنزل وان كان هناك تلذذات منزلية فأظن انها وقتية وربما  
كان غالبها تصنعاً وتكلفاً وتطبعاً لان اللذة الطبيعية لا تكون  
الا عند تساوي المتحابين وخلوص الود من الطرفين وقل ما  
يوجد ذلك بين السيد وجواريه او بينه وبين سراريه اذ لا  
مساواة بينها ولا نسبة فكيف يوجد الحب او يكون للألفة اثر  
بالقلب بل يكون بينها غالباً بعض وحشة وكدر وحيث لا يمكنها  
الانفصال لا يسمعها الا الطاعة والامثال والاعاشت فيهم ونكد  
وكدر مستمر الى الابد وما تراه حولها من المستلذات والجواري  
والخدم والاغاوات وانواع المحلى وزخرفة المنزل والملبوسات  
لا يفيدها الاغما على غم وعيشة كعيشة من وقع بينهم عطر منشم  
فيتزايد ضررها خوفاً من ان يتمتع به غيرها لعلمها حيثئذ بدرجته  
في السعة واليسار فلا تهناه بحال ولا يقرها قرار

فقال له الشيخ انا نرى هذه العادة التجارية عندنا لازمة عقلاً  
وشرعاً اما عقلاً فمن وجوه منها . ان الطبع البشري لا يستحسن  
ان يطلع احد على حرم غيره فضلاً عن حرم نفسه لما

ركب في طباع اناث هذا النوع من الشهوة القوية الدائمة التي لا تزال الدواعي لاختادها وكسر عاداتها قائمة في كل وقت على خلاف بقية الانواع الحيوانية فانك لا تجد الانثى منها تتحرك شهوتها وتشتد غلتها الا في وقت معين من اوقات السنة حسب ما طوى في ذلك الخالق الحكيم من ايجاد النسل لابقاء سلسلة الانواع ولذلك تجد اناث الحيوانات ممتنعة بنفسها صادة ما يريد من الذكور فكل الفة من الحيوانات التي طبعها التألف والاختصاص كافية الفها مؤنة صياتها وربما تقاربت اوقات سورة الشهوات في بعض الحيوانات المؤتلفة فمكنت غير الفها من نفسها فحصل بذلك مقتلة يقتل فيها القوي الضعيف وقد جعل هذا النوع ذا عقل يحكم به ويميز ما ينبغي وما لا ينبغي فلو ارسلت احاد هذا النوع على مقتضى شهواتها لحصل من ذلك فساد عظيم لا يحصل مثله بين البهائم ومنها ان النساء عند الرجال كالاسرار ولا تسمع النفس باطلاع غيرها على سرها

ومنها ان مبادئ ميل النفس الى الشهوات انما هو الاجتماع والميل للشيء لا يكون الا بعد رؤيته فلذلك منعت النساء من الكشف بمحضرة الاجانب وامرت بالاحتجاب عنهم غيرة عليهن وكرراً لهذه المفاسد ولا تظن ان المنع من الاختلاط خاص بالنساء بل الرجال كذلك ممنوعون من رؤية النساء الاجانب والمخلوة

بين ولكن لما كانت الرجال بمقتضى الحكمة الالهية هم الذين يقومون بمصالح المعاش وعمار الدنيا بنحو الفلاحة والتجارة والصناعة اضطروا الى الخروج من منازلهم للاسفار وتحصيل معائشهم واما النساء فلما لم يكن عليهن سوى خدمة المنزل الزمن بملازمته . على ان المرأة في بيت زوجها لا يلزمها الا تسليم نفسها له فلم تتخذ للخدمة ولا للطبخ ولا لغسل الثياب ولا لكس البيت ونحو ذلك بل كل ما فعلته زيادة عن تسليم نفسها فذلك من لطف طبعها وحسن عشرتها مع بعلمها كما روي ان رجلاً جاء بباب عمر بن الخطاب ايام امارته يشكو له سوء خلق زوجته عليه فبعد ان دق الباب سمع صوت امرأة مرتفعاً على امير المؤمنين تناول منه وتوذيته فالتفت الرجل راجعاً وقال في نفسه هذا حال زوجة امير المؤمنين فانا اصبر وكان عمر سمع دق الباب فخرج ووجد الرجل منصرفاً فناداه واستخبره عن شأنه فقال وجدت عندك مثل ما جئت اشكو اليك منه فقال امير المؤمنين ان النساء يخدمتنا بما لا يجب عليهن يغسلن ثيابنا ويصنعن خبزنا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة وانما هي لحظة وتسير فليحسن خلقك يحسن خلقك

وايضاً فما الفائدة العائدة عليها او على الزوج من مخالطة الاجانب فضلاً عن الكشف عليهم حيث ان الزوج قائم بجميع لوازمها ولوازم منزله فلا اقل من ملازمة منزلها اذ لا يعود من اختلاطها بالاجانب الا تضررها بزوجها او تضرر زوجها بها لانه

لو فرض ان زوجها فقير او متقدم في السن واجتمعت بين هو اغنى منه او اصغر لبطرت معيشة زوجها وكرهت الاقامة معه وكذلك الزوج ربما عرضت له خواطر نفسية باجتماعها على اغنى منه او اصغر فيؤثر الامر الى الفرقة وخراب المنزل وكما ان الرجل لا تسمع نفسه بروية غيره لحرمة فكذلك المرأة لا تسمع نفسها بروية غيرها لزوجها اذ النساء اشد غيرة من الرجال كما هو معلوم وايضا فان غالب نساء المشرقين بسبب تعودهن على القيام بالامور المنزلية وبسبب حرارة البلاد الشرقية يمتنعن من الخروج من المنزل بطبعهن واذا خرجن فلا بد لهن من الملابس التي نراها عليهن وقاية لوجوههن من حرارة الجو والأتربة لانهن لو لبسن ملابس نساء الافرنج لأثرت العوارض الجوية على اعضائهن وازالت بعض جمالهن ولذلك نرى نساء الافرنج لا يمشين الا بالشمسيات خوفاً من تلك العوارض وربما اعتكفن في الاوقات الشديدة الحرارة او ذهبن الى بلادهن وحيث لم تكن عوارض البلاد واحدة لم تكن عوائد اهلها واحدة لان النوع الانساني مجبول على ان يجعل احواله مناسبة لاحوال بقعته التي هو بها ومن تأمل احوال الامم يجد هذا الامر عموماً فطبائعكم مناسبة لبلادكم وطبائعنا مناسبة لبلادنا

واما دلائل لزومها فالآيات القرآنية والاحاديث النبوية المنبهة على محاسن احتجابهن واعتزالهن عن غير محارمهن كثيرة

وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ عَلَى عَوَائِدَ قَرْيَةٍ مِنَ الْعَوَائِدِ الْأَرْوَابَاوِيَّةِ .  
فَكَانَتْ النِّسَاءُ يَحَادِثْنَ الرِّجَالَ وَيُنَاشِدُنَهُمُ الْأَشْعَارَ وَيُنَاقِلُنَ الْأَخْبَارَ  
لَكِنْ كَانَتْ أَمْرَ الْحَرِيَّةِ وَتَصَوُّنِ النِّسَاءِ فِيهِنَّ قُوًى وَكَانَتْ أُمُورُهُمْ  
مُنْكَشِفَةً لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ ظُهُورِ الْبِدَاوَةِ وَلَمْ تَكُنْ مَتَكَثِفَةً عَلَيْهِمْ  
الْأَسْتَارُ الْمَدْنِيَّةُ فَجَاءَ الْإِسْلَامُ وَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْعَوَائِدِ فَقَامَ الْعَقْلَاءُ مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ  
وَكَثُرَ الْجَمَاعُ وَاشْتَدَّ اخْتِلَاطُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ مِنَ الْعَرَبِ  
وغيرهم وَظَهَرَ الْفَسَادُ مِنْ اخْتِلَاطِ الشَّبَابِ فَهَلَّا أَمَرْتُ بِالْحِجَابِ  
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ أَوْمَرْ بِذَلِكَ ثُمَّ أَوْحِيَ إِلَيْهِ  
كَأَنَّ هُوَ شَانَ اللَّهِ مَعَهُ حَيْثُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ حَكْمًا إِلَّا عِنْدَ اقْتِضَائِهِ  
بِحَكْمِ تَغْيِيرِ الْعَوَائِدِ وَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتُ تَوَاتَرَتِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ  
بِحِجَابِ النِّسَاءِ وَمَنْعُهُنَّ مِنَ الْخُرُوجِ وَاحْدَثَتِ الْإِخْلَاقُ فِي الْبُيُوتِ وَلَمْ  
تَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ عِنْدَ الْعَرَبِ وَشَدَّدَ أَمْرَ الْحِجَابِ عَلَى التَّدْرِيجِ فَكَانَ أَوَّلًا  
مَنْعُ النِّسَاءِ مِنَ الْخُرُوجِ نَهَارًا وَكُنْ يُخْرِجْنَ إِلَى الْبَرَارِ عِنْدَ اقْبَالِ  
الظَّلَامِ فَوَقَفَ عَمْرُ لَيْلَةٍ فِي طَرِيقِ ذَهَابِ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ إِلَى الْبَرَارِ فَرَأَى عَمْرًا أَحَدَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
وَهِيَ سُودَةٌ بِنْتُ زَمْعَةَ فَقَالَ قَدْ عَرَفْنَاكَ يَا سُودَةُ فَرَجَعْتَ وَمَنْعَن  
لَيْلًا أَيْضًا إِلَّا مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَسَاجِدِ لِلصَّلَوَاتِ فِي مَوْضِعٍ مِنْهَا  
خَلْفَ الرِّجَالِ كَمَا هُوَ تَرْتِيبُ الصُّفُوفِ الشَّرْعِي فَلَمَّا أَزْدَادَ اجْتِمَاعُ  
النَّاسِ مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِي وَصَارَ غَيْرُ الْعَرَبِ أَكْثَرَ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَهَدَ



عمر اجتهاداً دينياً في منع ذوات الهيئات من الخروج الى المساجد حتى ان زوجة له خاصته في ذلك وقالت من هو افضل منك لم يمنع النساء من المساجد فتركها وخرجت الى المسجد فخالف اليها الطريق وجأها من حيث لا تشعر فضربها على عجزتها فرجعت وهي تقول نعم ما رأيت يا امير المؤمنين فقد فسد الزمان ومثل ذلك سبقت الاشارة من النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال اعروا النساء يلزمن البيوت

انما يلزم المرأة شرعاً اذا ارادت الخروج ان تستأذن زوجها لانها لو خرجت من غير اذنه كان على جهل من احوالها فربما يسو الظن بها فيحدث له عند ذلك اوهام ربما جرت الى النزاع او الفرقة واذا اذن لها زوجها بالخروج يلزمها ان تكون في هيئة الكمال والوقار على حسب الحال من الاعسار واليسار فجميع ذلك لم يكن فيه احتقار لهن ولا ازدراء بهن بل هو من باب التعظيم والاحترام والصيانة اذ المرأة عند الرجل كالجوهرة النفيسة يجب صيانتها عن كل ما يشينها او يشين عرضها كما ان الجوهرة تصان عن كل ما يضر بلونها او يغير شكلها او ينقص بقيمتها واما ما قد يتفق من ان بعض النساء يخرجن من منازلهن او يتكلمن مع الاجانب فذلك لا يكون منهن الا لضرورة والضرورات تبيح المحظورات فان لم يكن الخروج والاجتماع لضرورة ولا عذر شرعي بل كان لمقاصد شهوانية فذلك نادر وهو لا حكم له بل الحكم

لـلـغالب وهذا النادر كما يتفق في نساءنا يتفق في نساءكم من غير فرق بيننا وبينكم

واما ما كان من امر الاغاوات فلم يكن اتخاذهم امراً قديماً وانما هي بدعة دخلت بلادنا ولم تكن من عوائدنا السابقة ولا اللاحقة ولم يرد بها شرع فلا ينسب اليها ما خرج عن حدوده فكم من بدعة حدثت على ان هذه البدعة لم توجد الا عند بعض الامراء لزعيمهم ان الاعتبار لا يتم الا بها او انها علامة على العظمة وعلى حسب حال الامير وتعدد زوجاته وسرايره تعدد الاغاوات ومع ذلك لم يقصدوا باتخاذهم لهم الا اكرام النساء وتعظيمهم واما جميع الاهالي على اخلاف طبقاتهم فلا يتخذون الاغاوات ولا حاجة لهم بهم وان وجدوا عند بعضهم فذلك نادر ولا يكون الا تقليداً بسبب تشبهه بالامراء العظام فلا يحكم على الامة كافة بما وجد عند البعض ولا ينسب الى الشرع ما حدث بالبدعة فلم تكن العرب تعرف خصاء الانسان اصلاً وكان شائعاً في الروم فلم يرد في الشرع نص في امر استعمال الخصيان هذا الاستعمال القائم بين الناس غير ان الكتاب العزيز تعرض في احكام النساء الى الرجال الذين لم يخلق فيهم الفحولة وهم المعبر عنهم بغير اولي الاربة والاربة حاجة الرجال الى النساء في امر جواز ابداء زينتهم حكم بامتناعها وحرمتها الا على اجناس من القرابة وغيرهم منهم اولئك الرجال فكان امر استعمال الخصيان من الامور الاجتهادية فلما اتسع

الاسلام ودخل بلاد الروم واطلعت العرب على الخصبان راى  
امير المؤمنين معاوية رضي الله عنه رأيا مذهبيًا بالقياس على غير  
اولي الاربعة جواز استعمال الخصبان فلما اقتنى منهم من اقتنى واراد  
ان يدخله على بعض نسائه امتنعت من ذلك فاحتج بكونه خصيًا  
فقلت له ان المثلة به لم تحل منه ما حرم الله ولم ير غيره من اهل  
الاجتهاد جواز ذلك فكان استعمال الناس للخصبان تقليدًا لمذهب  
معاوية رضي الله عنه فهو من الشرعيات الاجتهادية دون النصية  
ولقد ترتب على ذلك من الاثار المذمومة ما لو اطلع عليه معاوية  
لكان عساه ان يحكم بتحريمه فقد بطراء على الخلق ما ليس من  
طبائعها ويحدث في عوائدها ما يخالف دينها وشرائعها وبعد ذلك  
لا يمكن ازالته فيكون كالدآت التي تستحكم بالجسم فتوهنه ويمتهد  
من ابلي بها في الشفاء منها فلا يمكنه ومن هذا القبيل الاغاوات  
بل هم اضر على ساداتهم من الداء بدرجات فان ضرر الداء قاصر  
على صاحبه واما ضررهم فتمتد من رب المنزل الى عائلته وحاشيته  
واقاربه فمن تأمل حال الاغاوات مع ساداتهم وجد ان السيد  
ما جلب لنفسه الا ضرراً وما اكتسب باتخاذهم الا مخالفة الشريعة  
الغراء وتمكين غير عشيرته من الحكم على اهل بيته وعائلته مع ان الامور  
المطلوبة منهم يمكن الحصول عليها بغيرهم كامرأة عجوز او بنت او  
ولد صغيرين وعلى اى حال ففائدتهم لا تفي بضررهم لان غالب  
النزاع والفساد الذي يوجد في البيوت لا يكون الا بسببهم لما

يلقونه من الفتن بين السيد وعائلته او بين العائلة وبعضها او بين صاحب البيت واحبابه بما يزخرفونه من القول والفعل ويخلقونه من التزوير الذي ليس له اصل وكثيراً ما يكونون سبباً في غضب الزوج على عائلته وشذوذ الزوجة عن طاعته او خروجها من بيته فيكون سبباً في زوال نعمتها وعدم الراحة بينها وبين رب المنزل وبالجمله فلا حصر لما ينشأ من اقوالهم وافعالهم بل كثيراً ما اتفقت الاغايات والمحرم على اتلاف رب المنزل وفقده وكتب السير مشحونة من هذه الاخبار وفي ذلك عبرة لاولي الابصار

فقال الانكليزي كيف من يكون قدوة لغيره ينحرف عن الصواب ويدخل مدخلاً لم يكن لحسنه في الشريعة ولا في العقل باب فان الامراء بالنسبة للرعية في كل زمن على الاطلاق كاللكواكب والشمس المضيئة في الافاق فكما ان كل احد ياخذ منها ما يلزم لحياته من الحرارة والضوء وما يقي به نفسه من السوء كذلك الامراء تاخذ الرعية من عوائدهم واخلاقهم ويقتدون بهم في اقوالهم وافعالهم فاهل القرى يقلدون مشايخها وعمدها واهل المدن يقلدون امراءها واعيانها وكذلك الامراء تقلد ساداتهم ورؤسائهم فان كانت الامراء سائرة سيرة حسناً انتشر ذلك في افراد الرعية فصلاح حالها وقويت شوكتها وعلت شهرتها ولا انتلب الحال واخذ في الاضمحلال فان الناس بالنسبة لامرائهم كالاطفال بالنسبة

لعلمهم وذلك امر ظاهر لا يحتاج الى دليل ولا توضيح ولا تمثيل  
فكل احد يحب ان يتشبه بمن يقرب منه على حسب طاقته فكما ان  
الدآءت تسري باللامسة كذلك عوائد الامراء تسري لاتباعهم  
وتنتشر من بلد الى بلد حتى تعم القطر . الا ترى ان اصحاب الوظائف  
تبع لرئيسها فان كان الرئيس قائما بما يجب لها مؤديا جميع حقوقها  
قام كل منهم بها هو مفروض عليه من غير كسل ولا تساهل  
ولا ملل وتحصلت ارباب الحقوق على حقوقهم باوقاتها والعكس  
بالعكس ولا يخفى عليك ان كل انسان لا يلوذ به الا من يشا كله  
ويجانسه وفي اوصافه بماثله فاصحاب الكبار من الامراء لا يلوذ  
بهم الا مثلهم وكذلك ذوو الفضائل منهم وهكذا اهل كل منزل  
بالنسبة لرب المنزل فاخلاقهم وعوائدهم مكتسبة من اخلاقه  
وعوائده فان اكثر من الموبقات والملاهي وانواع الشهوات سرى  
ذلك في اهل بيته وعائلته وذريته وان استقام وقام بما يجب عليه  
حق القيام تبعته عائلته وذريته وحاشيته وقياسا على ذلك حال  
كل راع مع رعيته فان حافظ على ناموس شريعته وقوانين ملته  
تبعته رعيته فكثير خيرها وان سلك طرق الفساد انحل امرها  
واتضع وفسد حالها وتضعضع ومن يتأمل احوال المتقدمين يرى  
ان كل طائفة تبع لسير من تبعته فتارة ترتفع وتارة تنضع فكم من  
قوم مضى عليهم اوقات زهو وظهور ثم انحط امرهم بعد ذلك وقصمت  
منهم الظهور ثم بعد انقضاء مدة من الزمان عاد لهم حالهم الاول

او احسن مما كان وذلك كما يحصل لذرية الرجل من القبر  
والفاقة بعد موته وان كان ترك لها اموالاً وعقاراً وعزاً ووقاراً  
فيمضي اثرها بالكلية وبعد زمن يتجدد لها روتها الاول على يد  
ناجب من الذرية يلم شعنها ويصلح وعثها فيعود لها مجدها ويرجع  
اليها سوءدؤها ما ذاك الا لتفريط الذرية وخروجها عن الحدود  
الاصلية فلو حافظوا على فخرهم وشرفهم واتبعوا قوانين سلفهم ورفضوا  
اغواء الغاوين ولم يقتدوا برأي المفسدين لاستمروا على سعدهم ولم  
يحتاجوا الى من جاء من بعدهم بل ربما زادوا عن الاصل وتضاعفت  
عليهم حلال الفضل ولا سيما اذا انضم الى ذلك ما يعلمونه من  
الاصطلاحات المتجددة بتجدد الاحوال والاوقات فان النصيحة  
لا تؤخذ عن اشتهر بالفساد او عرف بدناءة بين العباد او كان  
من المتملقين واهل النفاق او من ارباب المعاصي على الاطلاق  
لان مثل هؤلاء وان جلت معلوماتهم وحلت كلماتهم لا يقصدون  
الا التوصل الى اغراضهم فلا يصلحون دليلاً في الامور الدنيوية  
ولا قدوة في الاحكام الدينية بل لا تؤخذ النصيحة الا عن عهد  
عليه الصدق وعرف بين الخلق باتباع الحق وكذلك الشريعة  
لا تؤخذ الا عن اربابها والكلام في هذا المعرض متسع وان  
اردت الزيادة ففي وقت اخر تسمع فان ما قلته لك بعض ما  
يقال اقال الله عثرتك في من يقال

قال الشيخ ما احسن هذا الكلام واوصله الى اقصى المرام



فان النصيحة لا يكون لها تاثير حتى تصدر عن حر الطبع تقب  
الصنع بالفضائل بصير كما يحكى ان رابعة العدوية وقفت يوما  
على واعظ حوله جم غفير وهم عنه لاهون فقالت له كيف يداوي  
العليل من هو سقيم فانشد

فخذ بعلمي ولا تركز الى علمي

ينفعك علمي ولا تضرك اوزاري

ان الرجال كاشجار لها ثمر

فاجن الثمار واخل العود للنار

فقالت له لا والله حتى يكون عملك على وفق علمك

وانشدت

ابدا بنفسك فانهرها عن غيرها

فاذا انتهت عنه فانت حكيم

لا اتنه عن خلق وتأتي مثله

عار عليك اذا فعلت عظيم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا

كما يصح به وانت سقيم

فعند ذلك قام الواعظ واجتهد في تطهير قلبه وسعى المساعي

الحميدة فمرت عليه بعد ذلك ذات يوم فوجدت من حوله ما

بين باك ومغشي عليه فقالت له كيف رأيت فبكى وقال

نفعك الله ياسيدي ونفع بك

قال الانكليزي كذلك يكون فان منبع الخير طهارة يقتدى به من العلماء والامراء وها نحن قد تهيئنا للسفر فان كان في بيتك تحرير خطاب للعائلة فاكتبه الليلة فان مركب البوسطة يقوم بعد ظهر غد ومتى طلع النهار اشتغل الانسان بأمر شتى فربما يطرا عليه ما ينسيه او يحصل له شاغل يلهيه فقال له الشيخ جزيت عني خيرا فقد اظهرت ما اضرمت في نفسي ان اسألك عنه

### المعامرة الثالثة عشرة البوستة

فقال الانكليزي الامر الان ممكن من غير صعوبة لان البوستة بالديار المصرية وكذلك في البلاد الاوروبية مصلحة قائمة بذاتها من شأنها استلام الخطابات والجوابات من اربابها باجرة معلومة على حسب وزنها وهي ملزمة بتوصيلها الى محل ارسالها مع غاية الامنية وهذه المصلحة ليست مخصوصة بتوصيل المخاطبات بل تستلم النقود والجواهر والفواتير المرسلة من قبل التجار كذلك ولها قانون تجري على مقتضاه ولها خدمة مختصون بها لم مرتبات على قدر وظائفهم وناظر عمومي وحساب تلك المصلحة يقطع سنويا

بمعرفة ناظر المالية

فقال الشيخ "وهل هذه المصلحة مخصوصة بأهل مصر واسكندرية أم عامة لجميع الجهات المصرية من المدن واقرى وكيف سهولتها في النقل

فقال الانكليزي انه سهل جدا بواسطة وجود السكة الحديد لان المصلحة جعل لها جملة مكاتب في المدن وبعض محلات شهيرة في الجهات البحرية والقبلية من القطر وفي المدن الكبيرة مكاتب مركزية فالخطابات بعد نظريفها وختمها يوضع بعنوانها الجهات التي يراد الارسال اليها واسم الذي تسلم اليه ثم توضع في صناديق او علب على هيئة مخصوصة مثبتة في حائط المكاتب ثم تجمع هذه الخطابات وغيرها في المكتب المركزي في اوقات معينة وتوضع في مخال او علب تسلم لاحد مستخدمى البوسطة مع النقود والاشيا الثمينة ان كانت بمقتضى سندات بيد اربابها فياخذها احد الخدمة المذكورين ويسافر بالعربة المخصوصة لذلك وعند مروره على كل محطة يسلم اوكيل البوسطة الذي في تلك المحطة ما كان مختصا بجهته وهكذا . ثم يصير توجيهها الى اربابها بمعرفة الوكلاء بمقتضى سراكي معلومة بينهم واما الاجرة فتارة تؤخذ من المرسل اليه وتارة تأتي له خالصة الاجرة اذا كانت دفعت وقت الارسال ويعلم ذلك بعلامات توضع على ظهر الظرف معروفة فيما بينهم وبما ذكر صار الامر هينا وهذه من فوائد تلك

المصلحة ومنها انه يتأتى بها للتجار الوقوف على حقيقة تجارتهم واجراء حركاتها بالسرعة التي يريدونها فان اراد احدهم الوقوف على امر شريكه او صاحبه او من يعامله ارسل الخبر بالتلغراف فيأتيه الجواب حالا ولا يستغرق الا بعض دقائق وان كان الامر يلزم له زيادة توضيح ارسله بالكفاية في البوسطة على الوجه الذي ذكر أولا وفي بعض الاحيان يرسل الخبر أولا بالتلغراف مجبلا ثم يتبعه بطريق البوسطة مفصلا فمن ذلك حصل لامور التجارة انقلاب حسن محسوس بسبب سرعة تواصل الاخبار بين مراكز التجارة وهذا بخلاف ما كان في الازمان السابقة لان الاخبار اذ ذاك كانت لا تصل الا بالمكاتبة فكان يمضي عليها ايام في اثناء السفر وربما لا تصادف الوقت المطلوب وبهذا كان يضيع على التجار اغلب الفرص لانها كانت تابعة لسير تفويض لاحظ للنظر فيه كما تحكم به طبيعة الحال واما الان فقد تمكن التاجر في وقته وساعته من العلم بما يلزم مشتراه وما يجب التصرف فيه وبما راج منها وما كسد اذ بواسطة التلغراف والبوسطة في البر والبحر صارت جميع بقاع الارض متصلة ببعضها والاخبار واردة من جميع جهاتها مع السرعة التامة اذ في ظرف الاربع والعشرين ساعة تعم الاخبار جميع جهات المعمورة ولا يخفى عليك ان النوع الانساني بحسب ما جبل عليه من تطلبه زيادة السعة تجدد في معلوماته هذا السر الذي كان كامنا في الخلق فاستعمله واتفع به فزادت بذلك ثروته

ولما في الازمان السابقة فكانت المخاطبات والاخبار بطيئة الوصول لانها كانت ترسل مع احد الاحباب او المتوجهين للجهات فيطول الزمن ويضيع وقت انتهاز الفرصة الى ان حصل بعض رفاهية وتقدم فاتخذت السعاة ثم الخيل وبعد ذلك وضعوا بسطا على ابعاد متساوية فكانت هذه الطريقة اسرع من الطريقتين قبلها لكنها كانت في مبداء الامر خاصة بالملوك والامراء ولم يصرح لعموم الناس بالانتفاع بها الا فيما بعد فاتسع هذا الامر واستعملته جميع البلاد وحسنت قوانينه فعم نفعه ولما فشا امر التجاره واتسع في البر والبحر وزادت علائق التجارة بين الملل احناجوا جميعاً الى استعمال هذه البوسطة للحصول على مقصودهم في اقرب زمن وقد كان حتى صار من احسن نظمات الدول واكبر مولف بين الملل وكانوا قديما في البلاد الشرقية ك مصر والشام يستعملون الحمام في توصيل الاخبار كما يعلم ذلك من اطلع على توارخ المتقدمين ويقال ان اول استعماله كان من رشيد الى دمياط وقد اختلف في اول من رتب البوسطة ونظم لها اربطة موزعة في الطرق فذكر بعض المؤرخين انه (دارا) ملك الفرس وقيل (دارا) ملك (الديلم) وفي بلاد الروم (قيصر) وفي بلاد فرانساً شرماني فوسعوا في دائرتها وما زالت يتسع امرها شيئاً فشيئاً الى ان صار لا يخلو قطر من الاقطار عن بوسطة حتى انه يوجد في بعض المدن الكبيرة مثل التخت بوسطة مخصوصة بنقل الخطابات من حارة الى حارة فينتجه خادم

البوسطة من غير انحراف ولا سوال من احد الى ان يصل المنزل الذي يقصده وذلك لان رسم المدن وخرطتها مبين فيه اسماء الحارات ومواقعها والعطف والشوارع وللمدينة قاموس وخرطة ودفتر مشتمل على اسماء السكان ووظائفهم فتمت راجع الخادم الخرطة والقاموس اهتدى لمقصوده فيتم مامورينه من غير مشقة الا ان القاهرة وان كان بها ثمر موضوعة على المنازل والحارات والعطف لكنها غير كافية حيث لم يكن للبلد رسم ولا قاموس فمن ذلك يحصل لخدمة البوسطة في اداء الوظيفة بعض مشقة لكن اذا اخذ المسافر قبل سفره الاحتراسات اللازمة بان اتفق مع بعض اصحابه او خادمه على التوجه للبوسطة في ايام معينة لياخذ الخطابات ان كان هناك امتنعت الصعوبة وكذلك اذا اتفق مع احد من الناس المشهورين ويحضر خطاباته ويجعلها في ظرف ويكتب علي ظهره اسم ذلك الشهير فيكون كالوكيل عنه

فقال الشيخ لم يخطر هذا الامر ببالي ولم اعرف غير ما كنت ارسله من قبل حين كنت ارسل بعض خطابات لوالدي المرحوم فكنت اذا اردت ارسال خطاب انتظر اليوم او اليومين فلا اجد من ارسله معه وربما اتوجه بالخطاب الى ساحل البحر لأعثر ببعض التجار فلا اجد احداً من اعرفه فارجع ثم اعود واذا صادفت منهم احداً واخذه مني فكثيراً ما يقعد واذا سهل المولى ووصل الخطاب الى والدي لا يأتيني جوابه الا بعد شهر من

تاريخ الخطاب واما بهذه الكيفية فقد سهل الامر الا اني لا اعرف احداً من مشاهير مصر لاني مدة اقامتي بالجامع الازهر ما كنت اخرج منه الا الى منزلي بسبب اشتغالي بطلب العلم وكذلك نرة المنزل لا اعرفها لاني ما كنت ارى لمعرفتها لزوماً خصوصاً والمنزل ليس ملكاً لنا فاذن ان الحالة ما حالت والصعوبة ما زالت

فقال الانكليزي لا بأس عليك في ذلك ولا عدم الدهر وجود امثالك خطاباتك ارسلها مع خطاباتي لاحد احبابي بالقاهرة والزمه بتوصيلها الى اهل منزلك واؤكد عليه باخذ المكتوب منهم وارساله الينا فشكره الشيخ ودعاه وانصرف الانكليزي ليقضي اشغاله

#### المسامرة الرابعة عشرة المكاتب

واما الشيخ فاخرج الدواة والقرطاس واعتزل هو وابنه بعيدين عن اعين الناس وحرر خطاباً لزوجته ضمنه نصائح وحكما من فكرته وصورته



السيدة المصونة والدة المكنونة من لا اصرح باسمها ولا يغرب  
عن خيالي لطف طبعها ورسمها حضرة قرّة العينين وزوجتنا  
ان شاء الله في الدارين . اما بعد بث الاشواق وابلاغ  
ما اكابد من الم الفراق فنعرفك اتنا بفضل خالق البرية  
قد وصلنا بالصحة والسلامة الى ثغر الاسكندرية وبمشيئة اللطيف  
القادر نركب البحر في غد ونسافر صحبة رفيقي وعزيزي حضرة  
الخوaja الانكليزي قاصدين بلاد الانكليز فلا تهمني بامري ولا  
تشتغلي بغيابنا وسفرنا وخلاصة القول بالاختصار والابجاز اتنا  
في غاية من الاعزاز شاكرون من صاحبنا ازياة التفاته وموانسته  
يزيد تفضلاً وازيد شكراً \* فذلك دأبه ابدًا ودأبي

واما ما كان من امر ولدنا برهان الدين فقد اخذ في مبادي  
اللغة الانكليزية واصول اللغة العربية وان شاء الله ببركة دعاء  
والديه يتحصل على ما تقرر به اعيننا وتشرح له خواطرنا واني  
لراض عنه لما فيه من الادب والامثال والاجتهاد فما من يوم  
الا وتظهر عليه بشائر الفلاح وعلامات النجاة والنجاح فنسال الله  
ان يققه في الدين ويمنّ عليه بحسن اليقين حتى ينفع اهله  
والمسلمين

واما من قبل ما عندك من الاخوات والاولاد فارجوكم ان  
لا تكتفي عنهم شيئاً من طرق الرشاد وان تكرري عليهم ما جمعناه  
في كتابنا المؤلف ايام طلبنا الموسوم بالارشاد لتربية الاولاد

ففيه الكفاية والاولى عدم ارسالهم الى الكتاب لتكون تربيتهم في  
 المنزل تمت نظرك ونلاحظي حركاتهم وسكناتهم واخلاقهم فاني  
 اخشى من اخلاطهم بشيرهم من الاطفال ان يتطعموا بطباع غير  
 مرضية فتضر بهم في كبرهم لانهم الآن في سن التعلم والواجب ان  
 نضمن طباعهم ما ينحس عليهم منه فان انت اخترت لهم محلات  
 من محلات المنزل وتقيه من الاتربة والوساخ والقمامات ووضعت  
 فيه حصيرا او شئاً من المفروشات كان اولى من ان يتوجهوا الى  
 الكتاب فتشغ من التراب ملابسهم وتضيق من التعود على البلاط  
 منافسهم ويذهب اليهم التهل من كل حذب فيخل بصحتهم وربما  
 نشأ منه ذلك الجرب خصر ما ونوع من المؤذنين عوائد قبيحة فلا  
 نعرض اولادنا لما افلم نكرار نعم الوالدين والاتيان بحكايات  
 كاذبة وعبارات اسدة يكررونها من اول النهار الى اخره ما  
 دام الطفل يخدمهم قرباً بحفظها فتضر بتصوره وعقله فاني الى  
 الان راسخ في ذهن ما كان سرته علي مؤذي في صغري ان  
 اتى له شيء من الثياب وكنت اتمال قبال اللصوص حتى اخلسه  
 وانته به وان انتهت او انتهت باقل ما طلب نوعتي او ضربني  
 وكان احياناً بعامانا ماماه الخدم فانا من يخدم الزوجة فيلأ لها  
 الزير ويكس البيت وينفخ الحفير ومنا من يخدمه فهذا يهي  
 له غذاه وبهليه وهذا يملأ السبيل ويرثيه وهذا يدق له الشوق  
 وهذا يجمع له النوى من السرقة وهذا يجمع القوايح للتهوة وهذا

يكون بيده مفاتيح السهوة وهكذا ولا يخفى ان الطفل لقصر عقله لا يعلم ما فيه مصلحة لنفسه فميل بطبيعته للعب فكنا نحب خدمته اكثر من حبنا للتعليم فكان كثير من الاطفال تمضي عليهم عدة سنين بلا فائدة فان تعلم شيئاً كان ضرره اكثر من نفعه وربما اكتسب في مدة الإقامة اوصافاً ذميمة فتصير له كالطبع ويتعذر على اهله تحويله عنها فيما بعد فتستمر معه بهية عمر فارجوك ان لا تبعثي الاولاد الى الكتاب ولا عليك ما يلزم لهم من المصروف فقد غمرني الله بنعمته واجزل علي عظيم منته ولا يخفك ان من مهم ما يجب على الانسان في ماله ما يصرفه بيرية اولاده وفلذ اكباده وانت تعلمين ان اولادنا ثمار فلورنا وثمار ظهرونا ونحن لهم سماء ظليلة وارض ذليلة فان غضبوا فارضهم وان سألوا فاعطهم وان لم يسألوا فابتدئهم ولا تنظري اليهم شزراً فخلوا حياتك ويتمنوا وفاتك وبحسن التربية ينصلم حالهم ويعلمون بين الناس شأنهم ولا شك في انك تحبين ان تظهري نعم الله عليهم فتاتي لهم بما يوافق حالهم من الملابس والماكل فان نعت ذلك ورأيتهم واشركتهم معك في الاقوال والافعال وسلكت بهم طريق التدرج ثبت في ذهنهم ما تلقينه اليهم من القواعد الدينية والالفاظ الادبية وكلما تقدموا في السن قويت قواهم البدنية وحواسهم العقلية فاذا بانغوا اشد لم لا يكون للاوهام الفاسدة على عقولهم تأثير فيثبت يقينهم ويصح ايمانهم وبما يتعودونه في الصغر

من الاخلاق المرضية تنعطف نحوهم القلوب وينتشر لهم بين الخلق سيرة حسنة ومن حسن سيرتهم وخلوص نيتهم وسريرتهم يغمرهم الله بنعمته ورضوانه ويدخلهم مع الذين انعم عليهم غرف جنانه واذا اخترت مؤدباً فالاولى ان يكون موصوفاً باوصاف اهل الكمال ذا فقه ووقار وسكينة وجلال وان يكون في فن الحساب كاشفاً عن وجه مخدراته النقاب وفي فن اللغة والأدب كأنما حفظ لسان العرب وفي العقيدة اشعرياً وفي الاخلاق احنياً وفي علم السير مجراً وفي الحديث كأنما تحنث بحراً ولا يلزم ان يقيم معهم طول نهاره بل يكفي ان ياتي لهم في وقت معين والاولى ان يكون بعد وقت افطاره ثم يخرج بعد ان يقسم لهم اليوم نصفين نصف يشتغلون فيه بالمطالعة والمذاكرة والنصف الاخر يلعبون فيه والاولى ان تكون حصة اللعب متخللة بين اوقات التعلم والمذاكرة لئلا يطول عليهم الجلوس فتخمد فكرتهم وتضعف بنيتهم وارجوك منع الضرب مطلقاً وان تسلكي بهم طرق النصيحة والاسباب الموجبة لزيادة الاجتهاد وصفاء القريحة كان تهدي للجهتهد منهم بعض تحف من ملابس او ماكل او كتب او مصحف ونحو ذلك مما تميل اليه الاطفال على حسب ما يظهر لك من الاحوال فان ذلك باعث لغيرتهم وازدياد رغبتهم اكثر مما يكون بالاذى والضرب فان الضرب يوتر في الاعضاء الظاهرة فقط وبعد برهة من الزمن يزول كأن لم يكن بخلاف ذلك فانه يوتر في الباطن وتبقى لذتها

لمن اغثنها والمها لمن حرمها ما دامت الهدية وايضاً فان الضرب يحرك الشهوات الغضبية عند الضارب فلا يقف في ضربه عند حد العقاب بل يتعداه لما يخطر في باله من سوابق ذنوب المضروب وربما اضر باعضائهم او ترتب على الخوف والرعب البحث عما يخلصهم من يده فيجتنون بكل ما امكنهم من الحجج من غير تمييز قبيحها ومليحها حتى يتجول من يده وربما الجأهم الاحتجاجات والتعللات الى اسباب الدناءة وخسة الطباع فتبقى فيهم طول عمرهم وحيث ان مقصود الاباء في تربية اولادهم ليس الا اكتساب الشرف فمن الواجب ان لا يعرضوا اولادهم حال صغرهم لما يخل بهذا المقصد وان يختاروا لتربية اولادهم مؤدبين موصوفين بالادب والرافة وحسن الفعال حتى لا يصدر عنهم الا ما كان حسناً وبسبب ما عندهم من الرافة يعاملون الاطفال بما يناسب سنهم فيبتدئون لهم بالكلمات الصغيرة والحكم القصيرة ثم منها الى ما فوقها وهكذا فيملون من انفسهم الى التعلم وحب العلم خصوصاً اذا ارشدهم الاستاذ على ما في كل كلمة او حكمة القاها اليهم من الفائدة الدقيقة واستعمل في مخاطبتهم الالفاظ الرقيقة فارجوك ان تعلي بنصحتي وان تخبريني في كل خطاب ترسلينه الي عن حال كل منهم ودرجته خصوصاً عن حال اخواتي البنات وقد اتفقت مع صاحبنا الانكليزي على ان يكتب لصاحبه بمصر باستلام ما ترغبين ارساله من الخطابات وهو يرسله الينا ولا بأس ان

تخبرني بما عندك من اخبار البلاد لان الانسان في غربته يشتاق  
الى مستط راسه واصل تربته وفيما سطرته في هذه الدفعة كفاية  
وان شاء الله تعالى اشرح لك جميع ما اراه ويناسب ذكره من  
المحادثات وامور البلاد التي تقصدها لتفني على اثارنا وليكون  
عندك علم من اخبارنا

واما ما تعهدتني من اكيد الود وقديم العهد فهو باق لا يغيره  
بعد ولا فراق ولو علمت ما لي من تذكري اياك حال اغترابي لم  
ترقأ لك دمة ولم تهدهاء لك لوعة  
اما وجلال الله لو تذكرتني

كذكرك ما كفكت للعين ادما  
وانت تعلمين ان هذا السفر لم يكن لي ببال ولم يكن له في  
خاطري مجال ولكن ما قدر يكون وكما قدر بالسفر والغياب يقدر  
بالعود والاياب

الناس في طلب المعاش وانما \* بالجد يرزق منهم من يرزق  
فكوني من الصيانة علي ما اعهد واحفظي ذاك الود والمعهد  
وتذكري ما كان من امر الطائي مع نديم النعمان وما جمعناه اوقات  
المسامرة ولا بأس بتلاوته على الاولاد اوقات المذاكرة واستديسي  
الاحتجاب واذا تناولت شيئاً فليكن من وراء حجاب وبلغني الاولاد  
والاخوات اني راض عنهم ما داموا على الاستقامة وقد تركت لك  
عشرين جنيهاً كل شهر عبارة عن ثمانية وسبعين الف فضة ياتيك

بها وكيل الخواجا في اخر كل شهر كما حرره بذلك واذا لزم  
 الامر لاكثر فاطليه من الوكيل المذكور على سبيل الاستقراض  
 فقد اذن له صاحبنا الخواجا بذلك اغدق الله عليكم خيره الجزيل  
 وردنا اليكم الرد الجميل

حرره بينانه وحرره ببيانه

الفقير علم الدين

خادم العلم الشريف

### المقامة الخامسة عشرة الملاحه

وختم الجواب وظرفه وعند الصباح توجه الى الخواجا وسلّمه  
 له فاخذه منه ووضع داخل مظروفه وارسله الى البوسطة ثم  
 توجهوا جميعاً الى مكتب الكومبانية لاخذ تذاكر السفر فاخذ  
 الخواجا للشيخ وولده تذكرتين من الدرجة الاولى اكراماً لها ثم بعد  
 ذلك توجهوا الى اللاوكدة واخذوا امتعتهم وانزلوها بعربة وتوجهوا  
 الى ساحل البحر ومن هناك اخذ الخواجا قارباً وساروا الى ان  
 وصلوا المركب فتحولوا اليها واخذ كل منهم في ترتيب امتعته في  
 القمرة المعدة لهم وبينما الشيخ يقرأ آيات التحفظ ويذكر ربه في نفسه



من غير تلفظ ويتلو ورد البحر ويتبرك وإذا بالمركب للسير تحرك  
فتوهم الانكليزي انزعاج الشيخ من ركوب البحر كما كان عند ركوب  
وابور البرفاتي اليه واقبل بعذب الفاظه يسليه وقال يا حضرة  
الشيخ لا تنزعج ولا يكن في صدرك من ركوب البحر حرج

فقال الشيخ يا حضرة الخواجا ومن كشف عن غامض العلم  
سياجه ليس الامر كما فهمت وإنما تذكرت الاهل والوطن فهمت اذ  
لا يخفى عليك يا ذا البصيرة ان في هذا الوقت يتذكر الانسان  
اولاده وعشيرته واحفاده ويحن الى احبابه ووطنه وملعب اترابه  
وعطنه ويأسف على مفارقة ما لوفاته وما تعود عليه ايام اول حياته  
وقد انضم الى ذلك ما خطر ببالي ما يكون اليه عند انتهاء السفر  
ما لي وكيف تكون هناك الاقامة وهل اعود الى وطني بالسلامة  
فقد قيل من علامات الرشد ان تكون النفس الى بلدها تواقفة  
والى مسقط رأسها مشتاقفة ولا يخفى عليك ايها الرفيق ما أوصى به  
نبي الله يوسف الصديق ان يحمل تابوته ليدفن عند آبائه الى ان  
جاء موسى الكليم فاخرجه من المم وحمله الى مقام آبائه ودفنه ثم  
وما ذاك الا لحب الوطن ولكني تناسيت هذه الاوهام وآسيت  
قلي من الم هذه الاستقام وتآسيت بما قاله الافاضل الاخيار في  
مدح التنقلات والاسفار منها قول سيد البدو والحضر . لو يعلم  
الناس رحمة الله للمسافر لاصبح الناس على ظهر سفر ويقال الحركة  
ولو د والسكون عاقر . وقوله

وما هي إلا بلدة مثل بلدتي \* خبارها ما كان عوناً على دهري  
وقوله وكل بلاد أوطتك بلاد

وغير ذلك مما لو استقصيته ما احصيته

ولما كان الشيخ من العلماء العاملين لم يكن عنده من هذه  
الامور الا مجرد تذكر وخطور واما قلبه فكان في غاية الراحة  
والاطمئنان مستحضراً تغيرات الزمان وتقلبات الحداثان دائماً التذكار  
لقول الله الواحد القهار يقلب الليل والنهار ممثلاً بهجة وسروراً  
منقاداً لمقتضى قوله تعالى كان ذلك في الكتاب مسطوراً

فالتفت حضرته الى الانكليزي وقال له لا يشك عاقل ان  
كل صنعة تدل على صانعها وعظمها يدل على عظمه ومن اعظم  
الادلة على عظم الخالق وقدرته خلق هذا البحر وتسخيره فانظر كيف  
اجراه بقدرته وجعل له مسالك بتدبير حكمته وخلق فيه خلقاً  
متنوعاً الاشكال وجعله مقراً للجواهر والالآل وخص كل نوع من  
ذلك بمنافع واسكنه فيما شاء من المواضع فسبحانه ما اعظم شأنه  
واظهر برهانه واعظم من هذا البرهان تسخيره كغيره لنوع الانسان  
فانظر كيف هداه الله بعقله الى ان جعل السفينة في هذا الشكل  
العجيب والوضع المحكم الغريب و اضاف اليها من تفتناته وبديع  
اختراعاته ما صارت به في ادارته وسارت بارادته ومكنه من العناصر  
حتى صارت طوع يده فترى الريح مع قوتها والبحر مع ميوعته  
والحديد مع صلابته والخشب مع مرونته كل ذلك طوع يده

وارادته يحول كل ما يريد الى ما يريد حتى تجاسر على ركوب البحر وتحصل بسبب ذلك على جل مقصوده آمناً من ثقل امواجه وتشعب افواجه لا يبالي بالعواصف وشدتها ولا بالظلمة وقتتها فقال له الانكليزي : سيدي انه قد مضى على نوع الانسان احقاب عديدة وازمنة مديدة وهم في انفصال عن بعضهم وعزلة وتوحش وخشونة وقلة لجهلهم بعلم الملاحة فكانت كل امة مقيمة في البقعة التي هي فيها لا تعداها ولا علم لها بخلق سواها فكان كل محروماً مما عند غيره من المنافع وغاية ما هنالك ان من كان منهم قريباً من السواحل والجزائر انما كان يتتفع بالصيد من الشواطئ واذا انتقل انما ينتقل الى موضع قريب منه وبمقتضى ما يشاهد من تجدد الاحوال حسب الاحتياج يتعقل ان اول من اشتغل بالملاحة سكان السواحل واقرب ما بعث فكرهم الى ذلك تكرار مرور الاشياء الساقطة من الاشجار على وجه الماء من غيضات تكون بجزائر قريبة منهم فلما راوا الاخشاب تمر على وجه الماء ركبوها وهي على صورتها ثم بعد ذلك صوروها في صورة بقي من الليل بان سطحو جرمها او الصقوا بها غيرها فسارت مع التيار اما لجلب منفعة واما لدفع مضرة كالفرار من عدو طالب او الهجوم على غريم كما هي عوائد الاوائل قبل اتساع دائرة المدنية والعمارة وكما هو دأب القبائل الباقية على الخشونة الى الان بسبب انعزالهم عن المدن واقامتهم وسط الصحاري والبراري المنقطعة والبقاع الشاسعة فلما

علم الانسان منفعتها صار يتفكر في كيفية اتيانها ويدبر في اصلاح شأنها الى ان جعلها في صورة لائقة لتقل بعض الاشياء المعتاد مبادلتها بين عشيرته بان استعملوا روامس مركبة من خشب وبوص كما يصنعه الى الان اهل صعيد مصر والسودان وكثير من بقاع امريكا ويقطعون الاصول الغليظة من الاشجار ويجوفونها ويسافرون فيها او يعملون قوارب صغيرة يكسونها بجلود الحيوانات وربما كان هذا دليلاً على ان الامم السالفة كانت تستعمل هذه الكيفية في حمل اثقالهم وعند ارتحالمهم وعلى انها مضى عليها سنون لا تعرف غير ذلك ولما كثر تردد الخلق على بعضهم وكثرت الفتنم واختلاطهم وظهرت بينهم علايق جديدة اوجبت اتساع دائرة الملاحة اخذت السفن في التقدم وصارت في حجم اكبر من الاول واحكم غير انها كانت لا تسير الا بالقرب من السواحل لجهل الناس حين ذاك بما يهديهم اذا ساروا على سطح البحر ولعدم معرفتهم بمن سكن وسطه او بساحله المقابل لهم ويغلب على ظني ان انتفاع الخلق بالملاحة كان قاصراً على اجنيز البلاد الموجودة على السواحل فقط وان الامر بقي على هذا الحال الى ان صار استكشاف حجب المغناطيس وخواصه وعند ذلك امكن الخلق تطبيقه على استعمال خاصية الملاحة باضافة البوصلة اليها ومن هذا الوقت تجاسر الملاحون على مفارقة الشواطئ والتوغل داخل البحور فطافوا جميع بقاع الارض وساروا حيث شاؤوا ولم يكن هذا الامر معلوماً بالبلاد

الاوروباوية الأ من القرن الثاني عشر بعد المسيح وإن كان معلوماً قبل ذلك في بلاد المشرق عند سكان السواحل الشامية وشواطئ بحر العجم فلم تكن خاصية جذب حجر المغناطيس للحديد خفية عند الأم السالفة وربما كانوا يعلمون الخاصية التي يكتسبها القضيب الصغير من الحديد بعد المغطسة أي بعد مسه لهذا الحجر وهذه الخاصية هي أن لا تغير اتجاهاته بل يكون دائماً على اتجاه واحد من الشمال إلى الجنوب ومن ذلك تعلم جهة الشرق والغرب إلا أنهم كانوا لا يعلمون خاصية اتجاهه دائماً إلى الشمال فطبقوا هذه الخاصية على سير السفن بأن رسموا خطين عموديين على قطعة ورق مستديرة وثبتوا القضيب فيها فاهتدوا بذلك إلى التقط الأربع من الأفق وبقي الأمر على ذلك مدة إلى أن علمت خاصية اتجاه الأبرة إلى جهة الشمال دائماً متى كانت متحركة موضوعة فوق مركز في أي نقطة من نقط الكرة وعند ذلك زالت الصعوبة التي كانت تلحق الملاحه وسهل على الملاحين جواز البحار وأمنوا من جميع الأهوال ثم اكتفوا عن قطعة الورق المذكورة باتخاذ علبه مملوءة ماء وثبتت القضيب في قطعة من خشب الفل تعوم فوق الماء واستعملوها في معرفة الاتجاه لكن بسبب ثقل السفينة على الدوام وعدم وجود الثام تام للألة كانت الأبرة قليلة التوازن ودالاتها تقريبية فمن ذلك اشتغل كثير من الأم بتحسين أمرها بأن جعلوا الأبرة متحركة فوق محور رأسٍ مثبت في علبه اسطوانية

الشكل وجعلوا فوق الابرّة دائرة من ورق مثبتة فوق الابرّة  
تتحرك بحركتها مقسمة الى اقسام متساوية وجعلوا جهتي الشمال  
والجنوب على خط مستقيم مرسوم فوقها والشرق والغرب في نهايتي  
خط عمودي على الاول وعلقوا العلبة في موخر المركب امام عين  
ماموري الدفة ومن ذلك الوقت زالت جميع الصعوبات الاولى  
وانقطع عرق الخوف والاشكال بالكلية وصار الامر على ذلك من  
ابتداء القرن الثالث عشر الى الان لا يعتريه تغيير ولا تبديل  
الا في كيفية تعليق العلبة وتحسين صورتها مما لا يتوقف عليه امر  
الملاحة وليس من ضرورياتها ومن ثم انتظم امر الملاحة والتجارة  
فحسنت بذلك جميع الاحوال وصلاح شأن الناس في الحال والمال  
وحصلت المساعدة الكلية لاحوال الزراعة فاخذت في التقدم نحو  
النمو وكثرة الثروة والرفاهية من ذلك فترتب عليه زيادة التمدن  
والتقدم وبعد اقتصار الخلق على جواز البحيرات والانهر الصغيرة  
والسفر في البقاع القريبة جازوا المحيط نفسه فانكشف لهم الغطاء  
عن جزائر وسواحل معمورة بام شتى عارين عن التمدن واسبابه  
فحاربوهم ووضعوا اليد عليهم وادخلوهم بالقهر تحت طاعتهم  
واستخذوا على ارضهم واستعملوهم في خدمتها لنفعهم ونفع بلادهم  
لا لنفع اهلها فزادت بذلك شهرتهم وقويت سطوتهم على  
من جاورهم ولما رأى الغير اتساع دائرة عيشتهم برغب  
في السير على اثارهم وهكذا . فكان هذا هو اول باعث لاهل

اوروبا على الاستحواذ على غالب بقاع الامريكا وسواحل افريقيا  
 وعدة بقاع من اسيا وعلى جميع جزائر المحيط الاطلنطي والمحيط  
 الجنوبي والمحيط الهندي حتى صارت بقعة اوروبا اغنى البقاع  
 واكثرها ثروة وصارت ملوكهم اعظم من غيرهم شهرة وسطوة وما  
 ذاك الا بسبب الملاحة لانها فتحت لهم ابواب الرزق وزادت في  
 اسبابه وطرقه ولو ان في كل بقعة حكاما يتصرفون فيها ويحكمون  
 على اهلها الا انهم هم ورعاياهم تحت تصرف ملوك اوروبا بسبب  
 عظم قوتهم الحربية واتساع دائرة علومهم السياسية الآخذة في  
 الازدياد والتقدم بسبب حيازتهم لكل ما يروونه من الصنائع  
 واغداقهم على من دونهم باصناف البضائع ولم يفتروا عن هذا  
 السير بحال من الاحوال بل هم ملازمون له ساعون بكليتهم  
 في ازدياده فكان تأثيرهم على بقاع المعمورة عاما

فقال له الشيخ قد فهمت ما افدتني ان الانسان بعقله هو  
 الذي شكل السفينة من صورة الى صورة متبعا في ذلك السير  
 الطبيعي من غير تكلف وانه كلما كثرت احتياجاته اتسعت افكاره  
 وازدادت رغبته في التامل حتى وصل الى معرفة سير السفينة  
 بالبوصلة في جميع البحار صغيرة او كبيرة فاستكشف الاراضي  
 المجهولة وسكانها واستفاد من اعمالهم وعلومهم ما زاد في درجة تقدم  
 اهل ملته ولكن ارى ان الآلة المغناطيسية غير كافية لضبط سير  
 السفن حسب الحاجة فانهم اذا ارادوا ان ينتقلوا من بلد الى بلد



يلزمهم الانحراف اليها والخروج عن الخطوط التي توجب تلك  
الآلة المشي عليها فكيف اهتدأوهم لذلك

فقال له الانكليزي ان البوصلة بمفردها غير كافية لانها لا  
تعين الا اتجاه احدى النقط الاصلية فقط ولا تدل اصلاً على الاتجاه  
اللازم للوصول لنقطة محدودة الا بمساعد وقد عرف ذلك جميع  
الملاحين في القرون الماضية لكنهم اقتصروا على هذا واستعانوا  
عليه بما استفادوه من التجارب والاسفار فكانوا يهتدون بذلك  
للوصول الى ما يقصدون من البقاع كما يفعل الآن الملاحون  
في الانهر والخليجان في بعض جهات من اقسام الدنيا وكما يفعل  
ملاحو النيل فانهم يسرون فيه من غير بوصلة بالاتباع لبعض  
علامات في البرور والجزائر وكما يفعل ملاحو العرب القاطنة في  
شاطيء البحر الاحمر والصيدون في بعض البحائر المتسعة وكانت  
علماء الجغرافية والفلكيون في القرن الخامس عشر من تاريخ  
المسيح غير واقفين وقوفاً تاماً على جنس خط سير السفينة فكانوا  
يزعمون ان الخط الذي ترسمه السفينة بين نقطتين بعيدتين  
عن بعضها هو قوس دائرة عظيمة ثم ظهر لهم امور لم يمكنهم التعبير  
عنها . مثلاً رأوا ان السفينة في سيرها في اتجاه واحد وميل واحد  
لا ترسم دائرة عظمى على الكره بل ترسم احدى الموازيات فعند  
ذلك اشتغلت العلماء بحلها وتطبيق الحسابات عليها فظهر لهم ان  
خط سير السفينة لا يكون دائرة عظمى الا في حالة ما اذا كانت

متجهة نحو الشمال دائماً او نحو الجنوب دائماً وإما اذا كانت متجهة  
نحو الشمال والغرب مثلاً فالجزء الاول من خط السير يكون  
جزءاً من دائرة عظمى ميله في نقطة المبدأ من الخط الجانبي خمسة  
واربعون درجة ثم بعد ذلك يتغير ويقطع الخطوط الجانبية  
الآخري في ميول مختلفة تكبر بالتدرج الى ان تكون تسعين  
درجة فلو تبعت السفينة في السير خط ميل ثابت بالنسبة لجميع  
الخطوط الجانبية لرسمت على الكرة خطاً حلزونياً وبعد عدة  
دورات تصل الى قطب النصف الذي ابتدأت السير منه ومن  
ذلك رأوا ان السفينة تقطع في سيرها على خط ثابت الميل مسافة  
تزيد وتقص عن طول قوس الدائرة تبعاً لعرض البلاد ويكون  
الخط كبيراً كلما كان فرق عرض تقطعي المبدأ والنهاية كبيراً  
فبناءً على ذلك ظهر لاهل ذاك الوقت انه يلزم تغيير الميل لمن  
يرغب في اتباع قوس دائرة عظيمة وحيث فلا بد من معرفته  
ويكون ذلك بطرق بسيطة حتى يكون سهل التناول للملاحين  
وبسبب ما فيه من الفائدة والاهمية اشتغلت بحل مسئلة العلماء  
الافاضل فمنهم من وضع لمعرفة طرقاً حسابية وجداول مخصوصة  
للاقتداء بها ومنهم من حوّل المسألة الى طرق رسمية فتعددت  
من ذلك طرق الاشتغال وجمال فيها الفكر فظهر من ذلك الخطوط  
التي يستعملها الملاحون ولا يمكنهم الاستغناء عنها لما لم فيها من  
المنافع والفوائد التامة فانه يكفي ان يرسم عليها الخط المار

بالنقطتين المفروضتين وبواسطة البوصلة تسير على ميله بالنسبة  
 للخطوط الجانبية فيصل الى الغرض المطلوب اذا لم يكن هناك  
 موانع تعرض لها في اثناء سيرها فتعطلها مثل الصخور والاهوية  
 غير الموافقة والمياه القليلة وغير ذلك فمن هذا نشاء لاجل التخلص  
 من خطر تلك الموانع مسألة معرفة الموضع الذي تكون فيه  
 السفينة في اي وقت من الليل والنهار بالنسبة لاي البحار  
 واول شيء خطر بالبال معرفة قدر سرعة السفينة في زمن  
 معين لانه متى علم استدل منه على المسافة الكلية من وقت القيام  
 ومن ثم يعلم محل السفينة بعد مدة من سيرها بالتقريب فاشتغل  
 بهذه المسألة علماء الفن واخترعوا الآلة البسيطة المستعملة الى  
 الان وهي عبارة عن حبل مقسم الى عدة اقسام متساوية منسوبة  
 لليل في طرفه قطعة من خشب مثانة الشكل مثقلة في قاعدتها  
 بالرصاص فتى رغب قبطان السفينة قياس السرعة القاه في  
 البحر فتغيب الخشبة راسية في الماء والحبل يكر من على مغزله  
 مدة كالدقيقة فيكون مقدار الحبل في البحر عين سرعة المركب  
 ولما لم يكن ذلك شافيا اضطر الملاحون الى معرفة الخط الجانبي  
 والخط الموازي التابعين لها في السير حتى تعين لهم نقطة التقاطع  
 وهي النقطة التي تكون فيها السفينة وبناء عليه نتج مسألة تعيين  
 العرض والطول فاشتغل بجلها العلماء كما اشتغلوا بغيرها وظهر  
 لهم من بحثهم ان مسألة العرض لا صعوبة فيها لانهم شاهدوا ان

القطب يكون منطبقاً على الافق متى كان الراصد فوق دائرة الاستواء ومتى اتجه الى الشمال ارتفع القطب فوق الافق بقدر بعد الراصد عن دائرة الاستواء وبناءً عليه فعرض اي نقطة هو ارتفاع القطب فوق الافق واهل وقتنا هذا تابعون للسالفين ومأخذون النجمة الاولى من الدب الاصغر دليلاً على القطب فيبتدون به لكن لما كانت هذه النجمة في كثير من الليالي مطموسة ومغيبة في السحاب غير ظاهرة وفي كثير من البقاع يكون الجو غير صاف فيصعب العمل حين ذاك رغبوا في معرفة العرض من رصد الشمس لانها تكون دائماً ظاهرة تمام اليوم او بعضه ولذا اقتضى الحال معرفة بعدها عن القطب وقت الزوال وبسبب تغير هذا البعد في جميع اوقات السنة حرره اهل العلم في جداول مضبوطة يراجعها الملاحون في اعمال الملاحة وحسابها ووضعوا آلة مركبة من مسطرتين عموديتين على بعضها لقياس ارتفاع الشمس فكان الملاح يضع نقطة تقاطع المسطرتين على ارتفاع البصر ثم يرصد افق البحر بالمسطرة الافقية ويجعل الشمس خلفه ويقدم او يؤخر المسطرة الراسية الى ان ينطبق ظل نهايتها على نقطة معينة من المسطرة الافقية ويحسبون الارتفاع على مقتضى ذلك كما كانت المصريون في الازمان السابقة تعين ارتفاع الشمس بواسطة المسلات التي نراها الى الان قائمة امام الهياكل والمعابد وفيما بعد صار تحسين هذه الآلة

واستعواضها بدائرة مقسمة الى اقسام متساوية وعليها مسطرة تحمل  
عضادة بها ثقب صغير فتى<sup>١</sup> أريد استعمالها علت الدائرة في السفينة  
وجعل مستويها في مستوي الشمس ثم تحرك المسطرة الى ان تمر  
اشعة الشمس بالثقب فيظهر على المحيط الدرجة السدالة على  
الارتفاع المطلوب وبهذه الآلة توصلوا الى الآلة المستعملة الآن  
المعروفة بالاكثان عند الملاحين بادخال ما استفيد من قواعد  
العلم من التحسينات في تركيبها فصارت مستوفية لجميع شروط  
السهولة والضبط فبناءً على ما مر يظهر لحضرتكم ان الانسان قد  
اكتسب علم الملاحة وضبط سير السفن في البحار بالتدريج فان  
الاصل في ذلك كله شجرة القاها الريح في التيار فجرت معه فنظر  
اليها احد المخلوقات فاستعملها كما هي فراه غيره فقلده واستعملها  
بكيفية احسن من الاولى وهكذا على حسب الاحوال والضرورات  
البشرية وما زالت تتقل من حالة الى احسن منها حتى  
تم حسننها وعظمت دائرة اهميتها واعنى بها الخلق فوصلت الى  
الحالة التي نراها عليها الان ولا شك ان كل صورة من هذه  
الصور اشتغلت بها الافكار مدة وظهرت فيها تغييرا فاخترعت  
صورة احسن من الاولى ووقعت موقعها فاذا رآوا في الثانية عيباً  
اجتهدوا في ازالته بقواعد علمية واختراعات عملية حتى اجتمع من  
ذلك علوم شتى منها ما هو متعلق برسم السفن وشكلها ومئاتها  
ومنها ما هو متعلق بسيرها وسرعتها ومنها ما هو متعلق بتحرير

اتجاهها وسلامتها حتى صار علم الملاحة علماً نفيساً فانظر كيف  
امكن الانسان بقوة فكره وغزارة عقله ان يتقل من حالة الى  
حالة ومن فكرة الى فكرة حتى وصل الى ما تراه في شان السفن  
وعلم الملاحة أفلا يكون هذا دليلاً كافياً على ان تقدم جميع الفنون  
والصنائع جار على هذا النمط وان الاصل في ذلك كله ضرورات  
الانسان واحتياجاته وميله لحب الانتفاع والوقاية الشخصية وقد  
امتد بينهما القال والقال في هذا المعنى ونحوه من هذا القبيل  
فاحب الشيخ ان يتبع الخبر بالنظر ويشاهد اماكن السفينة بالبصر  
اثلاً يكون فيما سمعه مقلداً ومتبعاً اذ ليس من رأى كمن سمع  
فاجابه الانكليزي الى ما طلب وقام معه الى قمرة القبودان ليريه  
ما احب وكلمه بلغته وعرفه بمقصود الشيخ ورغبته فامر احد الضباط  
ان يكون لحضرة الشيخ اوفق مرافق وان يوقفه على كل ما اشتملت  
عليه السفينة فسار معه وراه فوق ما كان سمعه واطلعه على  
الات السفينة واحدة واحدة ولم يترك منها شاة ولا شاردة مبتدئاً  
من مؤخر المركب الى مقدمه مبيناً له فوائد كل واحدة باسمها  
وبين له اقسام السفينة وما لبضائع التجار وما للمسافرين وما  
للمستخدمين بها وما للمطبخ وما للاكل ونحو ذلك ولم يذر محلاً  
في المركب الا اطلعه عليه واخبره بمنفعته فشكر الشيخ على صنيعه  
واثنى على القبودان الكبير ثم استاذن ودخل قمرته وادى ما يجب  
عليه من العبادة الموقته وكان قد حان وقت الاكل فاحب ان

ياكل في قمرته فاجابوه ولتعظيم صاحبه وحق رعايته كان كل من  
بالسفينه مبادراً لكرامته واستمروا على ذلك طول السفر حتى  
وصلوا جميعاً بالسلامة الى البر



### المسامرة السادسة عشرة التعلم والتعليم

ولعلم حضرة الشيخ بان من عرف لغتين وان كان في الصورة  
واحداً فهو في معنى اثنين ولما عرفه من حث النبي صلى الله عليه  
وسلم على تعلم الالسنه بقوله من تعلم لسان قوم أمن من مكرهم ولما  
رواه في الحكايات من ان رجلاً حجازياً سافر الى اليمن مرة ودخل  
مدينة ظفار وبلغ خبره ملكها فلما حضر عنده باعلى قصره قال له  
الملك تب يا امره بالجلوس بلغة حمير ففهم الحجازي انه يامره بالطيرة  
كما هو بلغة الحجاز فقام الحجازي وقال ليعلم الملك اني سامع مطيع  
وطهر فالتى نفسه من اعلى القصر فقال الملك ما بال هذا فتبيل له  
ان الوثب في لغته ما فعله فقال الملك من ظفر حمير يريد من  
دخل ظفار وجب ان يتعرف لغة خمير فاستفاد من هذا ان من  
دخل اي بلد لزمه ان يتعلم لسان اهلها فلهذا كان كل يوم بعد



ان يطالع في كتبه ياخذ هو وولده في اللغة الانكليزية على صاحبه دروساً وبسبب اجتهادهما في التعلم قدرا في زمان يسير على التكلم فيها

واخذ الانكليزي بحسن له التعلم ويرشده الى كيفيته ويشجعه عليه بقوله ان من موجبات التقدم في اللغات امورا منها الحفظ والتطبيق بالممارسة والمخاطبة فان جمعت كل يوم بين هذين ثبت بذهنك كل ما حفظته واعندت النطق به وفي قليل من الزمن تصل الى معرفة الكثير ومنها ترتيب المطالعة في الكتب بان يتدأ اولاً بالكتب المؤلفة لتعليم الاطفال لحنه الفاظها وعباراتها ثم بما فوقها وهكذا. وكيفية التعلم كما لا يخفى على حضرتكم ان يتدأ اولاً بمطالعة الدرس ويقف على كيفية النطق بالفاظه ثم يكرره الى ان يثبت في ذهنه ويستمر على ذلك حتى يكون عنده محصول من الكلام ثم يبحث عن قواعد تصريف الافعال وامثلتها ثم ينظر لمثال كل قاعدة ويمثل من نفسه امثلة ويطبق كل مثال على قاعدته ولا يكفي في ذلك مجرد التلفظ بل لا بد ان يثبت ذلك في كتاب صغير الحجم ليسهل عليه استصحابه فيطلع عليه اي وقت اراد ثم اذا تقدم في اللغة يلزمه حفظ كثير من الاشعار ونوادير الادب لما فيها من مزيد الثبات بخلاف العبارات السائرة والاولى ان يختار من كتب الاشعار ما تلتذ منه النفس ويميل اليه الطبع وان يجنب ما فيه تعقيد او صعوبة الى ان يحسن النطق والتكلم باللغة

واني وان لم استوف هنا غرضي لكني آتيت بكتاب فيه كفاية لهذا الغرض فان اتبعته وسرت على ما رسمته لك فلا يمضي عليك قليل من الزمن الا وقد تكلمت باللغة الانكليزية وبمشيئة الرحمن عند العود تجد ان لا فرق بيني وبينك في التكلم فشكره الشيخ على نصيحته وعمل بمقتضى وصيته واخذ هو وولده الكتاب منه وصارا يتلقيان كل كلمة في الكتاب عنه وحذا الولد حذو الوالد فكانا لبعضهما نعم المساعد والمساعد وصارا ما بين سائل ومسؤل الى ان نالوا من تلك الجهات الوصول وقد قسموا اليوم اقسامًا بعضها للفسحة في ظهر المركب وبعضها للاكل وبعضها للحفظ والباقي للمحادثة والمذاكرة والاجتهاد صاحبه الانكليزي في تسهيل امر السفر عليه كان لا يفارقه الا عند الضرورة وكان لا يخاطبه الا بكلام يطيب به خاطره وتشرح منه ضمائرهم محافظًا على مرضيه آتيا بكل ما يحبه ويرغب فيه وبذلك تاكدت بين الشيخ وبينه اللفة وارتفعت من بينهما اسباب الكلفة فينبأها في بعض الاوقات بتحدثان ولاحوال طوائف الناس يتواصفان اذ جرى ذكر الصنائع والحرف وقدر تفاوت السلف فيها والخلف وما آلت اليه من الاتقان ونم لاربابها من الاحكام والاحسان

وطال بينهما الكلام في وصف محاسن الايام فكان ذلك داعيًا للانكليزي ان قال يا حضرة الشيخ ان ولدك الان قد بلغ اشده وحصل من العلوم العربية طرفًا صالحًا وهو يحتاج الى تعلم

صناعة تكون له في المستقبل عوناً على حسن معيشته فما اضرمت على تعليمه من الصنائع فقال الشيخ احب ان يتقن اللغة العربية ويتم قراءة الكتب الادبية فاذا وصل التمام وبلغ من ذلك المرام تفكرت فيما يحسن حاله ويبلغ به ان شاء الله آماله بحيث لا يخرج عن الوظائف العلمية ولا يشتغل عن الاعمال الدينية سيما وهو بمعونة حضرتكم آخذ في تعلم لغتكم فاذا تم له اتقان اللغتين كانتا له خير صنعتين وبأيتها يكون اكتسابه ما يكفيه غير خارج عن حرفة جده وابيه

فقال له الانكليزي كالك تقول ان ولدك اما ان يصير اماماً او خطيباً في جامع او ترجماناً او نائب قاض في بعض المواضع وعلى كل فما يرد من هذه الوظائف لا يقوم ببعض الكفاية فضلاً عن كونه يستمر في اسر غيره فينسبونه الى التقصير في اداء وظيفته او الجهل بما يلزم لها او عدم معرفته باداء المقصود والذي اذكره لحضرتكم ان الوظائف درجات منها الشريف والدنيء والاعلى والعلو وانك الان مخير بين ما يكون به ولدك رئيساً واميراً وبين ما يجعله تابعاً لغيره واسيراً ولكن محبة الوالدين لاولادهم لا ترغب الا فيما فيه زيادة شرفهم فيجب عليك ان تحيل الفكر وتدقق النظر حتى تعرف الصنعة التي يزيد بها شرفه فقد قيل في الامثال الناس لصاحب المال الزم من الشعاع للشمس وهو عندهم اعذب من الماء وارفع من السماء واحلى من الشهد واذكى من الورد

## ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها

فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا  
 فقال له الشيخ انه لا يكون وراء ما ذكر الأ صنائع ووظائف  
 لقوم ليسوا من حرفتنا ولا طائفتنا وعشيرتنا كالهندسة والحكمة  
 والجندية ونحو ذلك من الصنائع الدنيوية فهل تظن ان نعلمه  
 صنعة من هذه الصنائع ونخرجه عن طريقة اهله واجداده مع اني  
 سمعت من ابي عن جدي ان عائلتنا شريفة ثم وجدت في امتعة  
 والدي رحمه الله بعد وفاته نسبة الشرف فلم اجد فيها احداً من  
 اجدادي احترف بحرفة من الحرف او خرج من وطنه بل تتبعتها  
 فوجدت ان كل من نبغ منهم اتبع طريقة سلفه وقنع بما ساقه الله  
 اليه من الرزق قليلاً كان او كثيراً ووجدت في النسبة لكل  
 منهم مناقب ومزايا تدل على زهده وورعه وقد رأيت فيها من جملة  
 ما اوصى به بعض اجدادي من يأتي بعده من اولاده اعلموا ان  
 الدنيا مثل ظل احدكم ان طلبتموه فرَّ وسبقكم وان تركتموه تبعكم  
 كما قيل

مثل الرزق الذي تطلبه \* مثل الظل الذي يمشي معك  
 انت لا تدركه متبعاً \* فاذا وليت عنه تبعك  
 الخير كله في بيت واحد ومفتاحه الزهد في الدنيا . والشركه  
 في بيت واحد ومفتاحه حب الدنيا

وقد قضى عليّ الرحمن من دونهم بالغربة ومفارقة الوطن

ولا حيلة فيما قضاه واحمده واشكره على ما من به عليّ من صحبتكم ولا يخفى على جنابكم ان الناس بالسستم ليسوا غافلين عن بعضهم فربما يقع الانسان في شباكم فيسقط من اعينهم وينقص قدره فيما بينهم فان اخرجت ولدي عن طريقي وعما كان عليه اجداده قبله اخلقوا عليّ اقوالا تزي وعبارات ربما تخل بامري ولا اقل من ان يقولوا باع الدين بالدنيا

فقال له الانكليزي ليس الفضل خاصا بطائفة من الناس دون طائفة ولا باهل حرفة دون حرفة بل الفضل صفة تقوم بالانسان على قدر ما يحوز من العلم والادب فكما تكون في القهاء تكون في المهندسين والحكماء وكما تكون في التجار واهل البضائع تكون في احاد الخلق من الفلاحين واهل الصنائع فليس الانسان باصله وحسبه بل بكمال عقله وحسن ادبه فكم من امرء مقطوع النسب وصل بأدبه الى اعلى المناصب والرتب وكم من ذي نسب واصل هوى به جهله الى درك الهوان والذل وكم من حقير ازال بكمال عقله دناسة اهله واصله وهل يليق بالعاقل ان يلتفت لاهام الناس وابطالهم ويؤثره على ما رآه عقله حسنا وصوابا وهل يقتدي البصير بالضرير او هل يستوي الاعى والبصيرام هل تستوي الظلمات والنور واي نقص يعتري الانسان اذا كان ذا علم وله صنعة يعرف بها فلا يخجل بشرف الاصل ان يتقald الانسان رتبة كالجندية وعلم الحكمة والهندسة بل هذه العلوم ونحوها مرغّب

ففيها في كتاب الله وسنة نبيه وقد اتفق العلماء والعقلاء من كل  
 ملة على ان قدر كل انسان وقيمه بقدر علمه وعمله وعلى حسب ما  
 اكتسبه فإذا يضر لو علم الانسان بلسان قومه وقواعده وعلم دينه  
 ومذهب بلده حتى يكون على بصيرة في ادارة اموره وتقوية برهانه  
 وضم الى ذلك السنة ملل اخرى واثقنها لتجذب اليه قلوب  
 الاغراب فيضيف معلوماتهم الى معلوماته لتزداد رغبة اهله فيه  
 وعلم مع ذلك تاريخ بلاده وضم الى ذلك تاريخ بلاد غيره واحوالها  
 اذ بذلك يكون على بصيرة من الروابط المولفة بين الملل وبعضها  
 والاسباب التي توجب النزاع والوفاق بينهم وضم الى ذلك علم  
 الجغرافيا والنباتات والحیوانات والحجادات والهندسة والفلك وجر  
 الاثقال وهكذا فتتسع دائرة معلوماته ويتقف على النواميس الابدية  
 المؤثرة في الموجودات وكيفية التأثير فيها فتتسع بصيرته وتعلو  
 بذلك بين البرية شهرته فان تعلم الطب وقف على اسباب الامراض  
 وكيفية علاجها ووظائف الاعضاء الظاهرة والباطنة وارتباطها  
 بالقوى الباطنة وعرف قدرة الباري المصور لها فيعظم شأن ربه  
 وخالقه ولا يلزم ان يتجرب بل يكفي ان يعرف من كل فن ما ينبغي  
 معرفته على كل ذي فطنة من الخلق حتى لا يكون على جهل منها  
 فيزداد بذلك قدره في كل مجلس من مجالس اهلها ويعلو قدره  
 بين الامراء وتنجذب اليه قلوب اصحاب الحاجات والمخاضات  
 لعلمهم انه يهديهم الى الرأي الصواب ولا ارى لولدك الامرين

فاختراهما احب اليك من غير حكم عليك . احدها ادخاله  
 باحدى المدارس الميرية والاخر ابقاؤه باحدى مدارس لوندرة  
 ليتربى فيها كما تربى اولادنا فان اخترت منها واحدة برئت من  
 واجب تربيته لانك ان ابقيته معك فلست بضامن لنفسك  
 البقاء حتى نتم تربيته واذا اراد لك المولى باتقضاء الاجل والموت  
 قبل ذلك فكيف يكون امره ومن يكون كفيله وهو مجرد عن  
 العلم والجاه افلا تكون مسئولا عن هذا الاهمال وهل كان حبك  
 له الا سببا لوقوعه في اسواء الاحوال واشق الاعمال وان سلمته  
 لاحد المودين فلا تدري هل هو كفو تربيته ام لا والاعتبار  
 بالظاهر لا يكون دليلا على الباطن فربما كان عالما لكنه سيء  
 الخلق فيسري طبعه الى ولدك فيكون ضرره اكثر من نفعه وعلى  
 اى حال فالمؤدبون غالبا لا يسلكون طريقة مستقيمة متقا على  
 صحة نتيجتها بل طرقهم مختلفة بحسب نيتهم وليس لنا حاجة لمعرفة  
 اسباب اخلافها ان كان قصد نفع التلامذة او نفعهم او للافتخار  
 او لظهار الاجتهاد لاجل زيادة الاجرة بخلاف المدارس الميرية  
 فانها لم تكن تابعة لشهوة اجد وما نتج منها موجب للاذعان بصحتها  
 ولزوم اتباعها فان طريقتها هي التجارية عند جميع الملل المتعددة  
 وسلكها جميع العقلاء فمنها اصول الضبط والربط الذي يجب  
 على كل عاقل ملاحظته والتمسك به من ابتداء شببته والاستمرار  
 عليه بين ابناؤه عشيرته حتى يدخل في ميدان الاعمال بينهم ولا



يوجد له ذلك وهو بمنزل اهله فان شقة الاهل تؤدي الى اهاله  
 والتغافل عن هفواته ولعبه فربما كانت هذه الشقة سبباً في فساد  
 خصاله التي قصدت اهله ان تجرده عنها بالتربية ولو فرض  
 وخصص له مودب في منزل اهله فاشتغالهم بامورهم المنزلية  
 والديوية يلهم عما يفعله كل منها ويدفع اهله الاجرة يظنون  
 حصول المقصود واي حجة اخرج بها الطفل وتعلل بقبولها منه  
 سواء كانت صحيحة او غير صحيحة فتمنع المودب عن تاديبه والطفل  
 عن الاشتغال بما فيه نفعه ومن المعلوم بالبداهة في شان العائلات  
 ان الاباء يخفي عليهم عيوب اولادهم حتى ان الامهات لزيادة  
 شقتهم على اولادهم قد يرين ان اولادهم يعلمون زيادة عما  
 يلزم وكذلك الخدم تخفي على سادتهم ما تعلم من عيوب اولاد  
 سيدهم كالخيانة وقلة الادب وعدم الالتفات وكثرة اللعب  
 واصحاب البيوت على اخلاف درجاتهم في الثروة لا يخلون من  
 تردد المنافقين والمتملقين على منازلهم فتسري طباعهم الى ذريتهم  
 فيتعلمون من اخلاقهم وطباعهم ما يزرى بهم فاذا بقي الطفل في  
 المنزل بين ابيه وامه مقيداً مع المودب طول يومه فربما يسأم فلا  
 يتعلم او يسأم المودب فلا يعلم ولطول مدة الملازمة عليهما قد  
 تنشأ الكراهة بينهما ويضيع الزمن بخلاف المدارس العامة فلا  
 يوجد فيها شيء مما ذكر بل تكون الاطفال فيها محفوظة من جميع  
 هذه العوارض وتدب فيهم الغيرة من بعضهم في حفظ ما يلقي

اليهم من اساتذتهم لتوهم المحرمان من درجة التمييز او العقاب او الحجز  
عن الاهل والاقارب والمنع من روية التملقين من الاحباب  
الذين يترددون على المنازل فيرتدع الطفل ويزيد ميله وحبه  
لما فيه خير له وتجري بينهم محاورات ومجادلات فيما يلقي اليهم  
فيكون الحق مع احدهم تارة ومع غيره اخرى وهكذا كل يوم  
فتقوى عندهم اسباب النشاط والاجتهاد ويتنافسون في موجبات  
التقدم والرشاد وبسبب تنوع الفنون لا يلحهم ملل ولا يعتريهم  
من كثرة العمل فتور ولا كسل بل قد يتلذذ الطفل من  
الانتقال من الاعمال الجسمانية الى الاعمال العقلية فتتم قواه  
البدنية والروحانية وترسم في فكرته اخلاق اساتذته فيعتادها وتكون  
الاساتذة متخفين من احسن المربين لا يقع منهم ما يخل بشان  
التعليم وان فرض كان نادراً فيكتسب الطفل في زمن قريب  
محاسبن الاخلاق واخلاق الرجال وتساوي الجميع في الهيئة  
الظاهرة وطرق التعلم والتعليم تشارك بينهم الاخوة ويعطف بعضهم  
على بعض بما ينسون به رافة الامومة والابوة وبالتدريج ينزل  
ولد العظيم عن تعاضله بعظمة اهله ويرتفع ولد الفقير بادابه  
وفضله فهل ترى طريقاً احسن من هذا وان لم تتبعه فماذا

فقال الشيخ ان شقة الوالدين بولدهما موجب مشقة اقامته  
بغير بلدها وان كنت اعلم ان بقاءه للتعلم في بلاد الانكليز مما  
يوول به ان وفق الله الى غاية التكريم والتعزير ولكن استغفر الله

وإدخله اذا عدنا المدارس لاكون ملاحظًا احواله ومراقبًا اعماله  
مربحًا بذلك خاطري وخاطر امه واما الصنعة فليست ادري ما  
يليق به على نخافة جسمه

فقال الانكليزي الاصوب ان نسأل الغلام فانه اطلع على  
كثير من الاشياء فلعله وقع استحسانه على بعض الصنائع ومال  
طبعه اليها وهو يتنى ان يكون من اهلها المتفعين بها والحباء بمنعه  
من اخبارك بما كمن في نفسه فاستحسن الشيخ ذلك واحضر ابنه  
واخبره بما دار بينهما في امره وانها وقفنا الجزم في ذلك على استطلاع  
امره واستكشاف سره

وقال له يابني قد عرفت الوظائف الشرعية والسياسية  
واطلعت على صنائع طوائف الناس العلية منها والدنية فهل  
تجد في نفسك الميل الى بعض الصنائع وتحيل افكارك فيما لاحداها  
من المنافع فاني مسيرك الى ما فيه ترغب ومساعدك على كل ما  
مال اليه قلبك

فقال الولد اني طوع امرك فلا ارضى الا ما ترضاه ولا ارى  
خلاف ما تراه ولحدائث سني انت ادري بما فيه صلاح لشأني  
مني وشقتك علي كافلة بما يعود نفعه اليّ فان اتقمتا على صنعة  
اقمت بها

فقال الانكليزي ان ما قلته دليل على حسن عقلك وكمال  
ادبك وفضلك لكن مرادنا ان تحبنا بما يميل اليه قلبك

لانه لا بد انك شاهدت اموراً اثرت عليك تاثيرات مختلفة منها ما جذب قلبك فرغبته ومنها ما نفر منه طبعك فكرهته فلا تكلم عنا ما نسخ بفكرك واظهر لنا ما كمن في سرك . فالتفت الولد نحو ابيه واراد ان يصرح بما كان يخفيه

فقال اني مذ عقلت لم اجد امثلاً من طريقتك ولا تمنيت ان اكون على غير خليقتك لاهياً عن جميع الحرف موقناً ان ليس لحرفة ما لحرفتنا من الشرف وبقيت على ذلك برهة لا تعترضني فيه حجة ولا شبهة حتى رأيتك في بعض الاوقات تشكو شدائد الايام متضجراً من ضيق المعيشة والعجز عما تحصل به لعيالك بعض المرام فاستشعرت ان سأصير الى ما اليه صرت وان سوف اكبر مثل ما كبرت وربما خلفت كما خلفت وتكلفت جميع ما تكلفت فاخذت حينئذ اتفكر في جهات الاكتساب وما يكون لحسن المعيشة احسن الاسباب فوجدتها دائرة بين الامارة والتجارة والزراعة والصناعة وما لاحداها سبيل وهي دون المساعدة عسيرة التحصيل فطقت انظر محاسن الحرف ومعايبها واعد مثالب اهلها ومناقبها فما رأيت لحرفتنا مثلاً ولا تصورت كاهلها اهلاً فانها النياية عن الرسول في تربية العقول واهلها حفظة الدين ومعادن العرفان واليقين واكثر من نراهم على تلك الحالة عادلين عن سبيل الهداية الى طرق الضلالة حتى استتر الحق بالباطل وبذلك صارت حرفة ابعد الحرف عن الثراء وادفعها

لصاحبها الى مكابدة العناء ولبعضهم مساع مزرية لا تليق باهل  
 القوة والعافية كقراءة الختات في البيوت بالاجرة وهي ان اجازها  
 امام فقد حرمها امام وكقراءة بعض الاصحاء الاقوياء على المقابر  
 مع كونها لا تليق الا بالضعفة العجزة الجهلة الذين حفظوا بعض  
 القراءة فلم تكن لهم قدرة على ما ينفع الناس الا من هذا الطريق  
 كما قال علي بن الرومي من تقدم بهم الزمان بهجو طبيبا  
 افنى واعى ذا الطبيب بطبه

وبكله الاحياء والبصراء

فاذا نظرت وجدت من عبيائه

امما على اموانه قراء

وارى بين اصحاب الوظائف الميرية رتبا عالية ولها مراتب  
 كافية وافية وليس فيها ما يذم فان جميع تلك الوظائف منوطة  
 بخدمة الاهالي واعانتهم وحفظ حقوقهم فمنهم من وظيفة اصلاح  
 الزراعة وري الاراضي ومنهم من هو محافظ على صحتهم وصيانتهم  
 من الامراض واخرون لسماع دعاويهم والحكم بينهم واصلاح ذات  
 بينهم وايصال الحقوق لاربابها ولكل من اصحاب هذه الوظائف  
 مراتب على حسب درجاتهم تؤدي اليهم سنويا او شهريا فهم  
 بذلك في امن على معيشة عيالهم وجميعهم في ظل المتصرف في امر  
 الجميع فان كنت اخنار صناعة لم اعد صنائع هذه الجماعة

فقال له والده يا ولدي اعلم ان الحكم الالهية اقتضت جميع

ما تراه من الاحوال والصفات والرتيب والذوات وقد اقام  
الله المخلق فيما اراد ولا معقب لحكمه ولا راد وليس لنا مناقشة  
فيما قدره ولا اعتراض على ما دبره فان لم تصل عقولنا الى حكمة  
ما وقعت عليه حواسنا فالواجب علينا التسليم وتفويض العلم الى  
العليم الحكيم قرب شيء يظن فيه الخير وهو في الحقيقة ضيم وضير  
وبالعكس

وما ندري أفي الامر المرجى \* ام الامر الذي نخشى السرور  
واعلم يا بني واعز شيء علي ان النظام الحقيقي هو هذا  
النظام ومرور القرون العديدة والدهور المديدة على النوع الانساني  
مع عدم تغيير كيفية تركيبه دليل على ان هذا النظام هو ما اراده  
الحق جل جلاله وكما يلحق الصدا المعدن كذلك يكون العلم  
محفوظاً بالجهل والحق بالباطل والخير بالشر والحياة بالموت فلا  
نجد شيئاً الا وهو مقترن بضده وهذا التلازم ضروري اذ لا تعرف  
الاشياء الا باضدادها فكذلك الحق والباطل ولنا ان تقول ان  
النسبة بينها كنسبة العناصر التي تتركب منها الاجسام الى بعضها  
اعني ان بينها تعادلاً وتوازناً فان تغيرت هذه النسبة بالزيادة  
او النقص بطل التوازن وفسد امر الملة كما يفسد الجسم المادي  
بتغير النسبة بين اجزائه وكما ان الماء لا تكون صفاته ولا توجد  
فيه خواصه الا بوجوده في حالته الاصلية التي فطره الله عليها  
ومنى خرج عن هذا الحد تغيرت صفاته وتبدلت خواصه وربما

كان مضرًا بعد ان كان نافعًا فكذلك حال الملة واهلها اذا زاد الدخيل وكثر اهل الزور والباطيل تهقر امر المستحقين وتقص عددهم وربما ضرَّ بهم كصر الداء الدفين لان الدخيل لعدم وقوفه على الحقيقة في الاحكام قد يخرجها عن موضوعها ويستعملها في غير مواضعها وبسبب ان قوتهم الاصلية هي القوة العلية تسير خلفها الملة فتتهوي بهم في مهاوي التلف والدمار وتكسوها بعد الشرف ثوب المذلة والعار وهذا الامر ليس خاصًا بطائفة دون طائفة بل هو عامٌ بجميع الطوائف على اختلاف اهميتها وصغرها وكبرها في كميتها ولكن حيث ورد (من حسن ايمان المرء تركه ما لا يعنيه) فعن هذا الكلام نعرض ونترك الامر فيه لله ولمن صرفه في خلقه وعليهم ولاه فانهم المسئولون عن امر انفسهم ورعاياهم واول واجب عليهم اصلاح حال انفسهم وحال رعاياهم فهم الملزمون بتقيد الاحوال واجراء الامور على احسن منوال والبحث عن الطرق التي يكون بها ثبات هذه النسبة في حدودها حتى يستقيم كل انسان في محله ويوضع كل شيء في موضعه لان اكثر الضرر الذي ينتج من اهل امراء الملة وتساهلهم لا تعود عاقبة امره الا عليهم فيكون اسفهم بقدر ما كانت درجة سعتهم في سلطتهم فتى تفقدوا بانفسهم احوال الرعية وراعوا للشرع حقوقه المرضية دام لهم السرور واشرفت بهم ممالكهم واملاكهم ودارت بالسعود افلاكهم وقد ترى ما اشرق به الزمان ومنه تجدد اعتدال الاوان فنسأل



الله له التمام ونرجوه حسن الختام انما المقصود منك ان تفصح لنا عما اخترته لنفسك من الصنائع

فتعال ابن الشيخ لم يكن في امكاني ولم يحم بجنائي معرفة ما يوافقني من الصنائع فانها كثيرة ومختلفة ولم امارسها حتى اعلم المناسب منها لسني وبنيتي وحيث رأيتما انه لا بد للانسان من صنعة يكتسب منها مع الشرف والوقار وحفظ الناموس، والاعتبار فلا مانع وقد فوضت تعيين الصنعة الى الله ثم اليكما فكلما اخترتما واقع عندي موقع الصواب بما اعتقده فيكما من ممارسة احوال الناس وكثرة التجارب والعلم بما يفيد وينفع وما علي الا ان اكون ممثلاً لما تأمراني به وان ابذل غاية جهدي لاحقق ما ظننتما في فان رايتما ادخالي بالمدارس الميرية فانا راض به راغب فيه خصوصاً لما رأيت به نفسي من احوال من سبق له الدخول بها فاني لم اجد احداً منهم الا وهو في ثروة ورفاهية لم يكن فيها غيره واطن ان والذي يعلم ذلك فان بالحارة التي نحن بها في مصر جملة منهم لهم درجات مختلفة اقلها بمرتبات كافية وفيهم من بلغ المناصب الرفيعة والرتب العالية وله مرتبات جسيمة يتفق منها على الاهل والاقارب ويتصدق على التجار والصاحب فضلاً عن الصدقات المربوطة للفقراء والمساكين ورايت جميع اهل الحارة بل واهل النبط يراعون خواطرهم لمعروفهم وكرمهم ومساعدتهم الخيرية وليس فيهم ابن امير او شريف وقد توجهت ذات يوم مع تلميذ من ابناء

حارتنا هناك فوجدت بها تراتيب ونظامات ألفها قلبي واخذت  
بلي فمن ذلك الوقت وددت ان اكون من زمرة من بها لما فيها  
من الامور المرغوبة في حسن التربية وهي تنمية القوى الباطنية  
وتقوية المحافظة والتصور والعقل وتهذيب الاخلاق مع رعاية ما  
يلزم لحفظ الصحة من الصور عن اسباب الامراض والعاهات  
بملاحظة حكاء موظفين لذلك لا يزالون متعبدين اغذيتهم  
واماكن مبيتهم ومواضع مدارسهم ومحل نفسم وتروج انفسهم  
لتجديد نشاطهم وتقوية قرائهم بالنظر لما اشتملت عليه من الاشجار  
والمياه والازهار والتردد بين ظلالها وذلك الى ما اخصت به من  
افاضل المعلمين والمؤدبين ورأيت ان الانسان ما دام فيها لا  
يكون مشغولاً بشيء غير التعلم واما الامور الضرورية فموكولة الى  
خدم مخصوصة ملزمة بأدائها في اوقاتها وسمعت ان الانسان اذا  
تم ما فرض عليه في مدرسة انتقل لغيرها على حسب درجة استعداده  
وما ابداه في الامتحانات العامة والخاصة الى ان ينتهي المفروض  
على الشخص معرفته وتكون فيه قابلية واستعداد لخدمة وطنه فعند  
ذلك تعطى له الرتب اللائقة به ويحظى بمرتباته ويعد من رجال  
الملة وبحسب ما يديه في خدمته من حسن الادارة والصدافة  
يندرج ضمن افاضلها فبناء على ما ذكرته متى كان الانسان كثير  
الاجتهاد متخلقاً بالاخلاق الحميدة كان آمناً على نفسه جميع عمره  
من عاهات الدهر وتقلبات الايام لانه وهو بالمدرسة يكون محبوباً

مجبلاً بين اقرانه وخوجاته فيميزونه ويعدونه من اهل الفضل  
 واذا خرج عنها الى اعماله واشغاله يتقدم في درجات الشرف  
 ويعد من اهل العدل بحسب صداقته واستقامته وحسن ادارته  
 ففرح الانكليزي بما القاه ابن الشيخ وشكره وعظم من ذلك الوقت  
 شأنه وقدره حتى انه اضمهر في نفسه انه بعد دخوله بالمدارس  
 يساعده ويقوم بكل ما يلزم له من كتب وادوات وان يجعل  
 له من طرفه مكافأة كل ما ظهر في ميدان الامتحان فوقانه على  
 الاقران وان يغتنم فرصته ويؤكد رغبته مدة اقامته في البلاد  
 الاوروباوية ويطلعه على جميع احوال تلك البلاد واسباب  
 ثروة اهلها حتى يكون من ذلك على معرفة تامة لما يراه من الاشياء  
 ويقف على حقائقها وان يريه المعامل والفريقات واماكن اللهو  
 والترسانات ليؤكد ميله ورغبته واخبر بما اضمهر اياه فاطال  
 شكره له وثناؤه عليه

---

### المسامرة السابعة عشرة في البحر وعجائبه

ثم اخذا في شجون الحديث وتناقلا اخبار القديم والحديث  
 حتى جرى بمناسبة الحال ذكر البحار فتواصفا غرائب ما اودعته من

الاسرار فكان من كلام الشيخ ان قال مستفتحاً هذا المجال املاً ان  
يزيد علمه ويصل الى ما غاب عنه فهمه سبحان من اجل صنعه  
واحسن كل شي خلقه واثقن وضعه واجرى مواخر البواخر تشرح  
متون الماء وسخر لعباده كل ما اشتملت عليه الارض والسما ومن  
علينا في مدة هذا السفر الحميد بغير ما كنت اخاف منه وعنه احيد  
فلقد كنت انفاً اقراء في بعض كتب الاخبار متاملاً فيما تضمنت من  
عجائب الليل والنهار

فيشتت الافكار ما قاسى الورى

من هول هذا البحر عند ركوبه

من امواج تلاطم ودفعات على اتساعه تتزاحم ودوائر ببعض  
السفن تدور لا يتظر من دارت عليه الالهة النشور فقد قيل  
داخله مفقود والمخرج منه مولود فسال الله دوام المبرة حتى تنقضي  
بالسلامة هذه السفرة كما نساله دوام العناية حتى نبليغ في كلاته  
اكرم غاية لا نرى البحر الا رهوا ولا تنظر الجو الا صحوا  
ولكن حب الاطلاع سيما في صحبة مثل حضرتكم يهون كل صعب  
فاحب ان نتكلم في امر هذا البحر فلقد رايت في بعض ما قرأت  
ان الجهة الجنوبية من الارض مغورة بالماء وان للبحر جرياناً مع  
كونه اخذاً نهاية تمدده متوازناً في مفره وقد ذكر لذلك اسباب  
اختلف القول فيها فا عندكم فيه فاتم ابنا البحر وعندكم يقين علمه  
فقال له الانكليزي اعلم ايها الاستاذ ان الانسان ولو وصل

بما اعطاه الله من العقل وقوة الفكر الى معرفة السباحة في البحار  
بالسفن البخارية والشرابعة واستكشف كثيراً ما فيها من بقاع  
الارض وغيرها الا ان ما جهله اكثر مما علمه ففي كل يوم يوجد  
في جوفه ما لا يحصى من الخلق وهذا الهدء والسكون الذي رايته  
لم يكن الا ظاهرياً اذ تحته عجائب مستورة عن اعين الناس لجسامة  
طباقه وغور اعماقه فلا تمر عليه لحظة من الزمن الا وهو في فعل  
مستمر وحركة مستديمة منها تأثيره على الكرة الارضية فتارة يؤثر في  
الطبقات الظاهرة وتارة في الطبقات الباطنة ويتقلبه المستمر ياخذ  
من جهة الى اخرى ومن ارض الى غيرها فما هو الا كما مور من  
قبل الحق فما ياخذه من هذه يعطيه لغيرها وهذا دابه من ابتداء  
خلق العالم الى ما شاء الله فلا هدة له ولا استقرار ولا سكون له  
بالليل ولا بالنهار ولعظمه لا يظهر لعواصف الرياح تأثير الا على  
سطحه وهول امواجه الظاهري ليس شيئاً بالنسبة لما يحصل من  
حركة جسمه بتمامه فانه ينشا عنها ارتفاع سطحه الى عنان السماء  
وسقوطه الى تخوم الارض فتحلل منه ابخرة ترتفع الى السماء ثم يدفعها  
الريج الى جهات بعيدة فتحلل منها الاملاح وتصير عذبة وتظهر  
بصورة جديدة فتارة تكون سحاباً فيسير الى الجهة التي قدر الله  
انصبابه فيها فتغصب به ارضها وتتغذى به اهلها وتارة تكون سيولاً  
جارفة فينسبب عنها التلف والمضرات وتارة تكون مطراً لطيفاً  
واخرى تكون ندى كما يشاهد على اوراق الاشجار وبين طبقات

الازهار وبسبب ما في الارض من الجفاف تمتص ما سقط على سطحها وتبتلعه فيجري الى مستودعات يجمع بها حتى اذا امتلأت وضافت عن احتمال المدد الدائم التلاحق تفجرت عيونًا وطلبت مياهها الأمكنة المظئنة حسب اقتضاء طبيعة الماء واجتمعت مع المياه السائلة من الامطار فكانت المنابع والانهر والخلجان التي تمر بالبلاد التي نساكنها والارض التي نزرعها فيكسوها ثوب الخصوبة ويلطف الجو فيعتدل هواء البقاع وبعد ان استحوذ الانسان على تلك المياه وجعلها في اسره وتصرف فيها على حسب رغبته ولوازم اعماله تغود الى البحر ومعها السفن حاملة مصنوعات الانسان ومحصولات اعماله

فقال الشيخ : شرحتم فافدتم وادعجتم فاجدتم وزدتم بيان سبب تكون السحاب الذي يدور عليه امر الحيوان في جميع المعمورة من اخراج غذائه وتلطيف هوائه وابداء نمائه وتحسين روائه فما احسن هذا الكلام كاشفاً عن حقيقة المرام غير ان اناساً من ضعفة العقول ليس لهم من العلم كبير محصول ادعوا لانفسهم الفطنة والذكاء وان لهم كمال الاطلاع على حقائق الاشياء بقراءة بعض الكتب المترجمة من كلام القدماء توهموا ان قواطعها البرهانية تخالف نصوص الشريعة الغراء وادخلوا ذلك على بعض الازهار وتسلقوا بالطعن في محكمات آي القرآن حتى احتاج علماء الملة ان يظهروا بصورة المنكرين على جميع كلمات المتقدمين مشغولين

بالاستدلال على حدوث العالم ونسبة جميع المحوادث ابتداء لاحكم  
 المحاكين مقررين ذلك بين العامة والخاصة حتى صارت كتب  
 الفلسفة منكراً والمشتغلون بقرائتها كفرًا واشتد ذلك في القرون  
 المتوسطة حتى كان يكتب في عهد تولية المحنسين امرهم والتشديد  
 عليهم بالتفتيش عن تلك الكتب والهجوم على بيوت من يعلم ان  
 عنده شيئاً منها وكان ذلك سبباً لتعطيل المسلمين عقولهم عن  
 استعمالها فيما يمكن للانسان علمه فانتدب المهرة المتوغلون في معرفة  
 الفنون كحجة الاسلام ابي حامد الغزالي ونصبوا انفسهم لفصل ما  
 يضر مما ينفع ويميزوا ما لا يصح ان يهمل من كلام الحكماء عن غيره  
 وسردوا ما يستحق الرد ووضعوا في ذلك كتباً واكثرها وخطأوا  
 راي من اطلق القول في الانكار على الحكماء وقالوا ان هذا النوع  
 من نصر الدين اضر عليه من طعن الملحدين وبين كثير من فطناء  
 المتأخرين كجلال الدين الدواني صحة اشياء كثيرة مما ابطله نحو  
 الغزالي بتفصيل ما اراده المتقدمون فيه وتحقيقه فمن الطعن على  
 القرآن ما حكاه محقق المفسرين فخر الدين الرازي متصدياً للجواب  
 عنه ونص عبارته ( الم تر ان الله يزجي سحاباً ثم يولف بينه ثم  
 يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من  
 جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء )  
 اعلم ان هذا هو النوع الثاني من الدلائل وفيه مسئلتان . المسئلة  
 الاولى قوله الم تر بعين عقلك والمراد التنبيه والاجراء السوق



قليلاً قليلاً ومنه البضاعة المزجاة التي يزوجها كل اجد وازجاء السير  
 في الابل الرفق بها حتى تسير شيئاً فشيئاً ثم يؤلف بينه . قال الفراء  
 بين لا يصلح الاً مضافاً الى اسمين فما زاد وانما قال بينه لان السحاب  
 واحد في اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى  
 ( وينشيء السحاب الثقال ) والتاليف ضم شيء الى شيء اي يجمع  
 بين قطع السحاب فيجعلها سحاباً واحداً ثم يجعله ركائماً اي مجتمعة  
 والركم جمعك شيئاً فوق شيء حتى تجعله مركوماً والودق المطر  
 قاله ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن ابي مسلم الاصفهاني الماء  
 من خلاله من شقوقه ومخارقه جمع خلل كخيال في جمع جبل  
 وقرىء من خلله والمسئلة الثانية اعلم ان قوله يزجي سحابا يحمل  
 انه سبحانه ينشئه شيئاً بعد شيء ويحمل ان يغيره من سائر الاجسام  
 لا في حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثة  
 ثم انه سبحانه يؤلف بين اجزائه وعلى الثاني يكون المحدث من  
 قبل الله تعالى تلك الصفات التي باعتبارها صارت تلك الاجسام  
 سحابا وفي قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجوده متقدماً متفرقاً اذ  
 التاليف لا يصح الاً بين موجودين ثم انه سبحانه يجعله ركائماً  
 وذلك بتركب بعضها على البعض وهذا مما لا بد منه لان السحاب  
 انما يحمل الكثير من الماء اذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من  
 عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره قال الطبائعون ان تكون  
 السحاب والمطر والتلج والبرد والطل والصقيع في اكثر الامر يكون

من تكاثف البخار وفي الأقل من تكاثف الهواء اما الاول فالبخار الصاعد ان كان قليلاً وكان في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الابخرة متصاعدة اما ان تبلغ في صعودها الى الطبقة الباردة من الهواء او لا فان بلغت فاما ان يكون البرد هناك قوياً او لا يكون فان لم يكن تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والواابل انما يكون من امثال هذه الغيوم واما ان كان البرد شديداً فلا يخلو اما ان يصل البرد الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كباراً او بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجاً وان كان على الوجه الثاني نزل برّداً واما اذا لم تبلغ الابخرة الى الطبقة الباردة فهي اما ان تكون كثيرة او تكون قليلة فان كانت كثيرة فهي قد تتعقد سحاباً مائطراً وقد لا تتعقد اما الاول فذاك لاحد اسباب خمسة احدها اذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الابخرة . وثانيها ان تكون الرياح ضاغطة ايها الى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح . وثالثها ان تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتتبع صعود الابخرة حيثئذ . ورابعها ان يعرض للجسم المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ثم يلتصق به سائر الاجزاء الكثيرة المدد . وخامسها لشدة برد الهواء القريب من الارض وقد نشاهد البخار يصعد في بعض الجبال صعوداً يسيراً حتى كأنه مكبة موضوعة على وهدة ويكون الناظر اليها فوق تلك الغمامة والذين

يكونون تحت الغمامة يطرون والذين يكونون فوقها يكونون في الشمس واما اذا كانت الابخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فاذا ضربها برد الليل كثفها وعقدتها ماء محسوساً ونزل مبلولاً متفرقاً لا يحس به الا عند اجتماع شيء يعتد به فان لم يجمد كان طلاً وان جمد كان صقيعاً ونسبة الصقيع الى الطل نسبة الثلج الى المطر واما تكون السحاب من انقباض الهواء فذلك عند ما يبرد الهواء ويتبض وحيث يحصل منه الاقسام المذكورة والجواب انا لما دللنا على حدوث الاجسام توصلنا بذلك الى كونه قادراً مختاراً يمكنه ايجاد الاجسام لم يمكنه القطع بما ذكرتموه لاحتمال انه سبحانه خلق اجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذي ذكرتموه وايضاً فهب ان الامر كما ذكرتم ولكن الاجسام بالاتفاق ممكنة في ذواتها فلا بد<sup>٨</sup> لها من مؤثر ثم انها متائلة فاخصاص كل واحد منها بصفته المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لا بد له من مخصص فاذا كان هو سبحانه خالقاً لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة في هذه الاحوال وخالق السبب خالق السبب فكان سبحانه هو الذي يزجي سحاباً لانه هو الذي خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الابخرة من باطن الارض الى جو الهواء ثم ان تلك الابخرة اذا ترادفت في صعودها والتصق بعضها ببعض فهو سبحانه هو الذي جعلها ركاًما قُتبت على جميع التقديرات ان وجه الاستدلال بهذه الاشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين

فقال الانكليزي ان الانسان مع كثرة اشغاله اللازمة لحفظ حياته على قصر عمره لا يمكنه ان يحيط بتحقيق جميع فنون العلم مع كثرتها وتشعبها واختلاف الآراء والمذاهب في اصولها وفروعها وغاية ما يمكن للانسان البازل وسعه واقصى همته ان يتقن الفن او الفنين ومن ذلك كان الناس حسب الوضع الالهي منقسمين الى الطوائف فكل طائفة اشتغلت بما استعدت له واراده الله منها على تفاوت افرادها في ذلك فتمت منافع الناس واستقام امر وجودهم فكان مجموعهم بمنزلة شخص واحد يصرف اعضائه في مصالحه فلم يكن لطائفة ان تنكر على طائفة افكارها واعمالها كما انه ليس للرأس ان ينكر على اليد اعمالها التي لاجلها خلقت بل على كل طائفة ان تكل علم ما جهلت الى الفرقة التي بذلت همتها وانصت اجسامها في تحصيله وتشيد اركانها وضاءة برهانه لا يزري احد على احد عمله ولا يبادر كالاغمار بانكار ما جهله فتبين من ذلك ان الواجب على علماء الملة ان يتقنوا اصولها ويحفظوا فروعها غير متعرضين لاقوال غيرهم واعمالهم لا بالتسليم ولا بالانكار ما لم يوافق او يخالف ما ثبت عندهم بالبراهين الموجبة لم علم اليقين او يتعرض بعض الاغرار كما حكيم لنقض اصل او ابطال فرع وكان قد سبق بين حضرة الشيخ وصاحبه معاهدة على انه متى سمع منه كلمة غير موافقة للغة ارشده اليها واتم الفائدة بحكاية اشكالها فقال الشيخ جرى في كلام حضرتكم لفظ عواصف الرياح

وانما يقال للرياح البحرية قواصف لانها قد تفعل القصف وللرياح  
البرية عواصف لانها قد تحمل العصف وهو ما ليس من اوراق  
الاشجار وكلاهما ليس من قبيل الاسم بل من قبيل الوصف كما  
يقال للرياح التي تلعج اناث الاشجار من ذكورها اللوامح وللخيل  
الشديدة الحواشك وللحارة في الصيف البوارح والتي تقدم المطر  
فتجيء بلبلة المبشرات والتي مع المطر المعصرات والتي تثير الاغبرة  
الأعاصير والتي تحمل السفا وهو دقيق ما تحات من النبات  
السواني وهذه الاسماء اكثر ما وردت بلفظ الجمع ويقال للريح  
اذا هبت لينة الريدة والريدانة والنسيم فاذا تابعت مستمرة فهي  
الرخاء واذا سميع لها صوت كحنين الابل فهي الحنون فاذا ابتدأت  
بشدة فهي النافحة والسيح والسيهوج والسهوج فاذا سميع لها مع  
الشدة صوت فهي الزفازف فاذا اشتدت حتى قلعت الخيام فهي  
الهجوم فاذا زادت حتى قلعت الاشجار او دون ذلك بقليل فهي  
الزعزع والزعزاع والزعزعان واذا حملت الحصاة اي الحصى فهي  
الخاصب فاذا درجت حتى ترى لها ذيلاً في الرمل كالرّسن  
فهي الدروج فاذا كانت شديدة المرور فهي التّوج فاذا اسرعت  
فهي المحفل والجافلة فاذا هبت من الارض نحو السماء كالعمود فهي  
الاعصار والزوبعة فان حملت غباراً فهي الهبوة فان حملت التراب  
وترددت به ويسمى المور بضم الميم فهي الهوجاء فاذا هبت باردة  
فهي المحرجف والصرصرة والعوية كفتية فان اشتدّت حتى خرقت

الثوب فهي الخريق فاذا كانت حارة فهي المحرور ليلاً والسمور  
 نهراً فاذا كانت بين بين فهي السجج فاذا لم تلغ شجراً ولم تسق  
 مطراً فهي العقيم فاذا كان هبوبها من المشرق فهي الصبا وعن  
 بين المتوجه للشرق الجنوب وعن شانه الشمال والشمال ومن  
 المغرب الديور فاذا خرجت بين مهي ربحين من هذه الاربع  
 فهي النكباء فان كانت بين الجنوب والصبا فهي الجربيا بكسر  
 الجيم وان كانت بين الصبا والشمال فهي الصابية وان كانت  
 بين الشمال والديور فهي الازيب كجعفر وان كانت بين الديور  
 والجنوب فهي الهيف بفتح الهاء وكانت العرب تنادي بها لكونها  
 تيبس النبات وتعطش الحيوان وتشف الماء وفي المثل ذهبت  
 هيف لاديانها يضرب لسيء الاعمال اذا جرى على عوائده وبعضهم  
 نظم الاصول والنكب وهو هذا

صبا وديور والجنوب وشمال

بشرق وغرب واليمين وللصد

ومن بينها النكباء اريب جريبا

وصابية والهيف خاتمة العد

فشكره على ما افاد ثم قال ان اثار الحرارة التي عليها مدار

ما اسفلنا شرحه هي احد القوانين التي بها ربط الله جميع احوال  
 البحر

القانون الاول الجذب الواقع على البحر من الكواكب فقد

ثبت علماً وعلاً أن القمر بسبب قربه من الأرض يؤثر على سطح البحر المحيط فيجذب ماءه نحوه فيحدث من ذلك تموجه ثم يرتفع بعض أقدام فوق سطحه ثم يسير على اتجاه الكوكب في جوف السماء وبعد أن يقطع مسافة في سيره ينصدم بين أرض هولاندة وبين أرض آسيا الجنوبية وبسبب انحساره ينساب التيار بقوة ويتقسم إلى تيارين أحدهما يتجه جهة سواحل إفريقيا وبعد ساعة من ظهور القمر تكون تلك الأمواج وصلت إلى أرض فارس ومراكش وبعد ساعتين تكون ببغاز الطارق وتر بسواحل بلاد البرتغال وفي الساعة الرابعة تكون وصلت إلى السواحل القريبة من بلاد الأنكليز ولا تصل إلى سواحل أرض اسونج إلا في الساعة الثامنة لأنها تعطل في سيرها بالجزائر الموجودة في بحر الشمال والثاني يأخذ اتجاه سواحل أمريكا الغربي بسرعة فيقطع في الساعة الواحدة مائة وعشرين ميلاً ومتى تصادم بأرض السواحل المذكورة اتجه إلى الشمال فينجس هناك بين جزائر متعددة فترتفع أمواجه ارتفاعاً يقرب من ثمانين قدماً ويكون أكبر من ارتفاع الأمواج التي تحدث عند أعظم الفورتونات بخمسين قدماً لأنه لم يعلم إلى الآن ارتفاع الأمواج بأعظم العواصف أكثر من ثلاثين قدماً كما ذكر في التواريخ

والقانون الثاني وإن كان ثابتاً بالعلم ولا شك فيه لكن أكثر الناس تجهله لأنه غير محسوس ولا يدرکه الأولوا البصار



من ذوي العلم وهو تأثير حرارة الشمس الذي يكون به الماء سائلاً فان الماء كسائر الاجسام قابل للتخلخل والتكاثف فاذا زاد تأثير الحرارة فيه تخلخل وكبر حجمه وخف حتى يصير بخاراً مناسباً للهواء واذا نقص تأثير الحرارة فيه تكاثف وصغر حجمه وثقل حتى يكون وزن ذراع من حار اقل من وزن ذراع ما دونه في الحرارة ولا يزال الماء سائلاً ما دامت حرارته في الدرجة الثالثة فما فوقها فمضى نقصت عن ذلك صار بازدياد تكاثفه مادة لزجة وكلما اخذ في البرودة ازداد جموده وخفته حتى يصير حجراً مناسباً للارض فالماء جوهر دائريين ان يكون ارضاً وان يكون هواء متبادلاً عليه الجمود والسيلان والثقل والخفة وكل ذلك ناشيء من صحة الحرارة له وامتزاجها به ومن مفارقتها اياه وخلوه منها ثم انه علم بالتجربة ان الحرارة انما تصل من عمق البحر الى غاية ثلاثة الاف وستمئة قدم

وبناء على هذا القانون فسطح البحر دائماً في حركة مستديرة وتبادل بين طبقاته فمضى ثقل بالبرودة نزل الى اسفل وصعد ما تحته فوقه وكل ذلك ناشيء عن تغير الحرارة واختلافها في درجاتها ومن هنا نشأت التيارات العظيمة الحارة والباردة التي تشاهد على سطح البحر في كثير من الجهات فان السياحين شاهدوا ان حرارة ماء التيارات المذكورة ثمانى درجات مع ان درجة حرارة الماء الراكد الملاصق لها احدى وعشرون ولذلك قالوا ان راكب

الصندل يمكنه ان يغمس احدى يديه في الماء البارد من جهة ويده الثانية في الماء الحار من الجهة الاخرى وكم من عجائب خفية تحت طباق الماء يرفوقها الانسان ويقطع جميع هذه البحور ولا يحصل منه ادنى التفات اليها ولا شعور ولا يعلم ما في قراره من الغابات المتسعة والوديان المظمنة والجبال المرتفعة والبراري الهائلة فكم في قاع البحور من ارتفاعات ووهداث وانخفاضات وكم فيه من صحاري ووديان ومغارات وصخور فتارة يكون بسيطاً عظيم الاستواء مجرداً عن النبات في بعض الجهات وتارة يكون عامراً بالنبات والعشب في جهات اخرى وترى قاع البحر كسطح الارض فيه المرتفع والمنخفض والتحلل والنخس وقد شوهد في جزيرة ستهيلينه بالمحس ان عمق البحر اربعة عشر الفا وخمسمائة وخمسون قدماً وعند القطب الشمالي وصل المحس الى عمق ستة وعشرين الف قدم وستمئة قدم وذلك عبارة عن خمسة اميال وهذا الغور لا يوجد مثله في سائر البحار التي على سطح الارض وفي هذا العمق العظيم ترتفع جبال وصخور وجزائر وغيرها

وكا نشاهد ان سطح الارض دائم في التغير فبعضه يرتفع وبعضه ينخفض فكذلك قاع البحر وذلك محسوس خصوصاً في البحر المحيط الجنوبي فقد ثبت علماً ومشاهدة ان استواء الماء في المحيط ثابت وان الارض هي المتغيرة خلافاً للرأي المتقدمين فانهم كانوا يعتقدون عكس ذلك وقد انقطع الان هذا الشك وزال

الاشكال وبطل هذا الاعتقاد وما بني عليه من الاقوال  
 فقال الشيخ ان من يطلع على ما في داخل البحار وينظر  
 اسكان طباقه بعين الاعتبار وما كمن في خلال قراره ونجمه  
 واغواره واجام الاعشاب الطافية على سطحه علم قدرة القادر وعظم  
 شأنه وخضع لجلالته فثم ما لا تسعه العقول ولا تحب بحصره  
 ارباب النقول نرى بحارا عميقة وبها حيوانات هائلة واخرى دقيقة  
 لا يعلم منتهاها الا الله ففيها وحولها بواقى ما ابتلعه البحر من مخلوقات  
 ومعادن ومصنوعات ومكان ما ابتلعه من الازمان السابقة فترى  
 آلات الحرب وبواقى القتلى وقطع السفن وكذا الذهب والفضة  
 اللذان هما تقود الامم السالفة واللاحقة ومعادن مختلفة كل ذلك  
 تحت الصخور وفي فجوات البحور

وفوق ذلك وتحت وداخله انواع مختلفة من المخلوقات باشكل  
 وصور وكيفيات لا نهاية لها فمنها الحيوان الدقيق الذي لا يرى  
 وما هو اكبر منه وهكذا الى الهاشمة التي لا شبهة لجسمها في  
 المخلوقات الارضية وما يستغربه الانسان دوام المعركة بين جميع  
 هذه الانواع وبعضها فتارة تكون طاردة وتارة تكون مطرودة  
 وتارة اكلة وتارة مأكولة وتارة غالبية وتارة مغلوبة هذا دأبها مع  
 بعضها في جميع فصول السنة وبهذه الكيفية يكون تحت طباق  
 الماء سواء كان في هدوء او سكون محاربات ومحاورات وهجوم  
 ومدافعة وممانعة ووجوم وكما يوجد على الارض انواع حيوانات

وطيور فكذلك يكون في البحر ما يشبه الذئب. وما يشبه الاسد وما هو كصاحب السيف وما هو كصاحب السنان وغير ذلك وربما كانت اشد افتراساً وقسوة ولما عندها من الحيل تراها تغتال في الدفعة الواحدة الوفا مؤلفة من الانواع التي اعدّها الله لقوتها ومع ذلك كله فلا يسمع لها صوت ولا وجيب وغاية الامر انه يظهر في بعض الاحيان على سطح الماء كلون الدم وترى اسماك مقتولة عائمة فوق سطحه فيكون ذلك علامة على معركة او مقتلة جرت بين طوائف الاسماك في جوف البحر

فقال الانكليزي كذلك وقد شهد امور اخرى غير هذه وهي ان ماء البحر يتلون بالوان مختلفة فيكون باللون الزيتوني كما في البحر المحيط الجنوبي ويكون اخضر كما في سواحل العرب ويكون وردياً كما في جهة الكاليفورنيا بالامريكا واحمر كما في البحر الاحمر وجميع هذه الالوان قد تكون مكتسبة من الوان النبات والاعشاب النابتة في بتاع بحار هذه الجهات او من الوان الحيوانات الدقيقة المحسوسة المتخللة بين جواهر الماء فيكون اللون شديداً او غير شديد تبعاً لتكاثف الطبقات وتراكم هذه الحيوانات وهناك حيوانات تجعل لون الماء اسود كما في جهة مالديف واخرى تكسبه لوناً ابيض كما في جهة غينه واغرب من هذا كله ان هناك نوعاً من هذه الحيوانات له لمعان شديد ومتى اجتمع مع بعضه ظهر على سطح الماء لمعان يشبه ضوء النار وهذا

النوع يكون في جميع طباق البحر ولكل من هذه الحيوانات والديدان بتاع تسكن بها وطرق تسلكها عند انتقالها تابعة في سيرها تيارات مجهولة فتنتقل من الاقطاب الى دائرة الاستواء ومن قطب الى قطب ومن الغريب ان الهائشة التي جرمها قدر جرم الفيل خمس مرات فاكثر تحتاج لهذه الديدان لغذائها فلا يهنا لها عيش الا بالحصول عليها فتراها تهاجر خلف هذه الديدان وتسير مسافات بعيدة حتى تحصل منها على ما يلزم لها

فانظر لحكمة الله التي احوجت العظيم للتحير حتى الهائشة التي هي اكبر حيوان صارت محتاجة في غذائها لاحترشيء وهو الديدان ولم يكن في جميع انواع المخلوقات ماله اكثر ميلاً للاسفار من السمك فنه انواع تنحدر الى الجهات الجنوبية واخرى تصعد الى الجهات الشمالية وهذه تنجبه الى الشرق وهذه الى الغرب وبعد ان يقضي كل اربه يرجع الى ما هاجر منه ثم يعود مرة ثانية في وقت اخر وبعضها يخرج من البحر والماء المالح الى النهر والماء العذب كالسردين اي صغير السمك وربما كان في كثافة عظيمة بحيث يمنع جريان الماء ومنها ما يكون في غاية الملازمة فلا يكون للسنارة عليه تأثير وما تاكله الطيور وما يموت شيء لا يحصى ومع ذلك فما يجري تليجه وادخاره لاجل الاتئدام به عند الحاجة اليه اكثر وفيه اكبر المخلوقات ومنه الهائشة وقد مرت والدرفيل والترمسة التي تبلغ الف افة فاكثر وسكان جزائر البحر المحيط الجنوبي يصطادون

في كل عام الوفا مؤلفة من كلاب البحر لاخذ دهنها وزيتها وفي  
البحر من النباتات ما لا نهاية له فمنها ما ياخذ في شكله صوراً  
متعددة وتلون بالوان مختلفة لطيفة حتي يتكون منها بساطين  
عظيمة تفوق في ظرفها البساتين البرية وكما تمل اغصان الاشجار  
البرية تبعاً للرياح كذلك تمل اغصان النباتات البحرية تبعاً  
لامواج البحر حتي انها في بعض الاحيان تقلع من اصولها وتسير  
الى مسافات بعيدة وتترام ويتركب منها طبقة كثيفة فتغطي جزءاً  
عظيماً من البحر وربما منعت السفن من العبور ومواضع هذه  
النباتات معلومة فمنها ما يكون ثابتاً بالصخور فلا تؤثر فيه الامواج  
ولا تقلعه الا ومعه صخوره ومنها ما ينبت بالقرب من السواحل  
واذا نبت بعيداً عنها لا يتجاوز في بعده اربعين باعاً وتثبت في  
جميع البحار ولكن الاكثر ان هذه النباتات لا تكون الا في البحار  
الجنوبية فتثبت فيها وتمتد الى نحو الف وخمسة قدم وتارة تمتد  
على سطح البحر وتغطي ماءه بالكلية وتستره حتى تكون سعتها ثلاث  
مائة ميل في العرض وتنتشر الى خمس وعشرين درجة في العرض  
وقد قطع ( كولومب ) ثلاثة اسابيع كاملة في مروره منها حين  
ذهب لاستكشاف الامريكا وهذه الحشائش عبارة عن مادة هلامية  
اي لزجة مغطاة بقشرة كالجلد وتتشعب الى ما لا نهاية له وكل  
شعب يتفرع كذلك وهكذا حتي يتكون من ذلك شعاب عظيمة  
والجنتيع ينتهي باوراق رقيقة الاطراف ومنها ما يأكله الانسان

تفكها ومنها ما ينفع لداء الصدر وكثير من الطيور لا تقتات إلا  
منها وذلك في بحر الهند ومنها نوع سكري يمتد الى عدة اميال  
فروعه رفيعة كالخيط وورقه عرض اليد ويستخرج منه عصارة  
سكرية ويوجد على سطح البحار القطبية الشمالية حشائش طولها الف  
قدم واوراقها حمراء وردية يحملها الماء بواسطة شبه عوامات موجودة  
تحت عقد الفروع تمنعها من الانغاس وفي بعض الجهات شهود  
حشائش شبيهة بشجر التفاح ذات فروع حاملة مقداراً عظيماً من  
الفاكهة وجدورها متماسكة بالصخور واوراقها مدلاة في فروع تشبه  
فروع شجر الصفصاف ومع هذا كله ففي قاع البحر انواع مختلفة  
لا يحصرها الا موجدوها ومن اجتماع هذه النباتات مع بعضها  
تحدث اشكال غريبة ورسوم هندسية عجيبة فمنها ما يلتصق ببعضه  
فيكون قباباً كروية كبيرة تارة وصغيرة اخرى ومنها اشكال مخروطية  
فتارة تكون شكلاً هرمياً مربعاً او مثلثاً ومنها ما يسبح على سطح الماء  
ويكسو منه جزءاً عظيماً فيمنع نفوذ الضوء والحرارة ومنها ما يكون  
خامات منفصلة عن بعضها وتارة متقاربة تجمعها اخرى وبسبب  
كثرة الالوان والاختلاف في الطول والشكل وكيفية التشقق  
والتداخل يتشكل منها هيئات وتكون لعالم البحر كالمدن والمساكن  
ياوي اليها ويتحصن ببعضه من بعض ويتقي بها من شره ومرز  
يبصر تلك الغابات ويتأملها يرى اموراً عجيبة تدهشه لانه يرى على  
اغصانها ديداناً تسبح نحو الورق لتغذى منه ويرى عجل البحر جاثماً



ما بين نيت الماء والقراي الأصلية وكلب البحر ذا البعير الرصاصية  
والنمر ذا المعرفة والذكاء والترمسة كلاً في مكانه ومحل راحته وما منه  
وما من نوع منها إلا وهو راصد لغيره أما لتحصيل قوته وإما للفرار  
من عدوه فهذا بمغزاه راصد لتحصيل غذاه وهذا خائف من أعداء  
غيره وإذا فهذا بقوته يكر وهذا بضعفه يفر ومع ذلك ففي الماء وتحت  
الغابة وعلى فروعها وخلال اشجارها محاربة مستمرة بين الطوائف  
كافة ولو امعنت النظر لوجدت أموراً أخرى غريبة وهي أنك ترى  
أنواع المحار مجمعة متلاصقة منها الكبير ومنها الصغير ولا تسأل  
عما جاورها ولا تشتغل بما بعد عنها بل هي مقبلة في مقرها غير محتاجة  
إلى الانتقال ولا تخشى من قلب الأحوال عالمة بغيرها بأن الله  
خاطبها ودبر لها رزقها كما دبر لغيرها وبقدرته تعالى جعل لها قماً  
فتكتفي بما تأخذه من الماء بما يلزم لها في تجديد الهواء وشفاء الدم  
وغير تلك الأنواع والأجناس من المخلوقات ويوجد في البحر عوالم  
لا يوجد مثلاً في البر ومنها الحيوان المسمى بالمرجان فقد قيل أنه  
أول ما ينشأ يظهر فوق حجر من الأحجار القارة في قاع البحر فرع  
يشبه أصلاً نباتياً مسكوناً بحيوان ثم يخرج غيره ويذهب مثل الأول  
وهكذا فيتكون على طول الزمن وتوالي الطبقات عود المرجان  
وقد شوهد فرع من هذه الفروع عليه حيوان صغير جداً شكله  
الظاهري يشبه زهر النبات في شكله ولونه ومن دأبه أن يخرج من  
الحجر ويعود إليه وهذا الحيوان وإن كان صغيراً جداً لكن يفعل

ما تحار فيه العقول فانه تارة يصنع بيوتًا فترتفع من قرار البحر الى سطح الماء ويمد طبقات وما يستعين به في عمل تلك البيوت من المؤنة لا علم للانسان به ولا بكيفيته ولا تركيبه فسبحان من خلقه وابدعه وفي قرار البحار اودعه وبسبب حسن شكل هذه المنازل الفاخرة والوانها العجيبة الزاهرة اشتغلت بها افكار الخلق في جميع الازمان ونج من ذلك خرافات كثيرة ومن المستغربات ان هذا الحيوان الدقيق لا يصنع بيته في المياه ذات اللجج الكثيرة الامواج ويبعد عن المياه الكدرة والراكة واول اساس يصنعه في عميق الماء ومن سنة الى اخرى وقرن الى قرن اخر يصل الى ان يخطط بمساكنه وبيوته الصخرية ساعات عظيمة من قاع البحر وفي بعض الجهات يوجد داخل هذه الصخور بحيرة متسعة لا يكون للرياح ولا للامواج عليها ادنى تأثير وتكون في هدوء وسكون دائمين ومن عادة هذا الحيوان ان لا يعلو بمساكنه سطح الماء وذلك لانه متولد منه فهو ملحق بالحيوان البحري ولا طاقة له بمقاومة الهواء والشمس وكثيراً ما ترى هذه الصخور في البحر عند دائرتي الانقلاب في صور واشكال عجيبة ويرى في وسطها هذه الجائر الراكدة وحولها الامواج الهائلة تتصادم وربما سمع للبحر قرقة ودوي عظيم وفي داخل الادوار التخبية وعليها تجلب امواج البحر حبوباً وحشائش من اجناس متنوعة فيها بيض طيور مختلفة الجنس وكثير من انواع الحشرات والطيور يأوي اليها وتربي بها صغارها مع الامن والراحة

النامة وبعد زمن ترتفع فوق الماء وتكون تلك الحشائش جزيرة  
وارضاً يسكن بها الانسان ويعمل بها آثاراً عجيبة فانظر لحكمة الله  
وعظمته

قال الشيخ قد أكثر الناس من وصف العجائب البحرية  
ونقلوا انها أكثر من العجائب البرية وما ذلك على الله بكثير فاشد  
الاشياء قوة واكبرها جسمًا لا يزيد في الخلق على الضعيف الصغير  
وقد اختلف الناس في كثير من الاشياء التي تجلب من البحر كالعنبر  
فمن قائل انه بعض فضلات حيوان بحري استحال الى صلاح  
كاستحالة الدم لبنًا في البهائم ومسكًا في بعض الغزلان ومن قائل  
انه صنع نبات ياكله ذلك الحيوان فيبقى الصمغ في فمه فيلفظه  
وتجده الناس في السواحل ومن قائل انه مادة تكون بنفسها في  
قاع البحر وتبلغ مقادير عظيمة حتى تصير كالصخور فيبتلعها الحيوان  
المشهور عند اهل عمان ونواحيها بالافال وهو الذي تسميه العرب  
العنبر فاذا ابتلعها قتله وعند ذلك يطفو على وجه البحر فيراه اهل  
تلك الجهات فيأخذونه ويستخرجون تلك المادة من جوفه وتارة  
يهيج البحر فيقذف بالعنبر على السواحل واهل الشجر من بني مهرة  
وهم الذين تنسب اليهم الابل المهرية يركبون ليلا في طلبه فيقال  
ان النخبة من ابلهم اذا احست بالعنبر بركت فيطلبه راكبها وياخذه  
وذلك الحيوان الذي يقال انه يتلع العنبر ربما يبلغ طوله اربعمائة  
ذراع فاكثر ويروى ان جيشًا من الصحابة بعثهم النبي صلى الله عليه

وسلم الى ناحية ساحل البحر فنقد زادهم فينا هم يوماً يتظرون رزق الله اذا هم بذاك الحيوان طافياً على وجه الماء فاخرجوه!! واكلوا منه ثمانية عشر يوماً وماءوا مزادهم واجربتهم من شحمه وقديده وحين ارادوا الانصراف الى المدينة امر امير الجيش ان ينصب ضلع من اضلاع تلك السمكة فكان كالقنطرة ومر تحنه اطولهم راكباً ناقته ولكن كثرة الخلاف في الشيء تؤدي الى الجهل به او الشك في حقيقته . وكالمرجان مثلاً فقد نقل عن ارسطو انه نبات وعن غيره انه معدن من قبيل الياقوت والماس والمغناطيس وانه يستخرج من سواحل افريقية ونقل المفسرون عند قوله تعالى ( يخرج منها اللؤلؤ والمرجان ) عن ابن عباس ان المرجان صغار اللؤلؤ وان كبار اللؤلؤ يسمى دراً وعن ابن مسعود ان المرجان الخرز الاحمر فهذه هي الكلمات الدائرة بين الناس في امر المرجان انما حيث كان سر الحياة سارياً في جميع الموجودات حسب استعدادها وما يناسب موضعها فلا يبعد شيء مما قيل فيها ومن ذلك ما يحكى ان السمند حيوان يشبه خلق الطائر يخلفه الله في النار وبها حياته وله وبر حريري يعمل منه مناديل وان المناديل التي تصنع من وبره اذا علاها الوسخ نأى في النار فتخرج نظيفة كما كانت وعلى ذلك قول الشاعر

لو أصليَ الياقوت نار صبايني \* لتغيرت احواله وصفاته  
او قرب الطير السمند لمهتبي \* لقضى عليه وعطلت حركاته

فيكون ما حكيم في المرجان ليس موضعاً للإنكار غير ان  
صورته وكونه فروعاً وأغصاناً تخرج منها ازهار تقرب القول بانه  
نبات

فقال الانكليزي يا حضرة الشيخ ان اعتقاد الاورباويين كان  
كاعتقاد الام الماضية انه نبات كما هو مذكور في كتب اليونانيين  
والرومانيين والهنود والصينيين وغيرهم فجميعهم كان يزعم انه نبات  
ينبت في قاع البحر ليتا ثم يتجمد وفي حالة كونه في الماء تفعل فيه  
الامواج كما تفعل الرياح بالاغصان البرية فيتأيل نحو الشمال  
واليمين وجميع الجهات لكن لا يخفى على حضرتكم ان كثيراً من  
الاعتقادات القديمة بطل الان بالكلية بسبب الاستكشافات الجديدة  
وكذلك كثير من الامور النظرية والوقاعد العلمية صارت لاغية  
لا اعتداد بها بسبب ما حصل من التقدم واتساع دائرة معلومات  
الخلق فبعضها وجد باطلاً لا اصل له والبعض هجر واستعيز عنه  
باحسن منه ومن ذلك مسألة المرجان وحقيقته وكيفيته ففي اوائل  
القرن الثامن عشر للميلاد اخبر احد علماء ايطاليا انه استكشف  
زهر المرجان وانتشر عنه ذلك في جميع البلاد وكتب به مرسوم الى  
مجلس العلماء هناك وارسل مع المرسوم فرع منه وعليه ازهار وبناء  
عليه ظن العلماء حين ذاك انه قد ازيل الشك واتضح الحق  
وثبت عندهم ان المرجان نبات لانه لو لم يكن كذلك كيف يكون  
وجود الازهار به ثم في سنة ١٧٢٥ حضر احد حكماء الفرنسيين

في سياحه من سواحل افريقيا صيادي المرجان فاخرجوه له فاطلع عليه وامتنحه امتحاناً تاماً بان وضعه في اجانة وملاها بالمياه البحرية ونظر اليه بالنظارة المعظمة فرأى حيوانات كثيرة خرجت منه حية وتجمعت فكادت تشبه الازهار فمن ذلك ظهر له ان الازهار التي اشيع عنها انها اغصان المرجان عبارة عن هذه الحيوانات الصغيرة وان المرجان لم يكن الا بيوتاً تصنعها هذه الحيوانات لما واهها ولما ثبت عنده صحة ذلك بالامتحان اعلن به مجلس العلماء فشاع ذلك بينهم لكن لم يصدقوه لجزمهم بصحة ما قاله لم التلياني اولاً ومع ذلك فقد اشتهر بين الناس ما ظهر للحكيم فصدقوه لانه لم يقل ذلك الا عن امتحان قتين من ذلك صحة قول الحكيم من ان الازهار لم تكن الا عبارة عن حيوانات صغيرة جداً تظهر على ظاهر العود متى غمر بماء البحر المالح بعد اخراجه من البحر فعند ذلك يظهر فوق سطحه نقط شكلها نجوى مركب من ثماني اوراق منفصلة عن بعضها في اخر كل ورقة شعور دقيقة كالاهداب فمن ذلك الوقت بطل الاعتقاد القديم وثبت عند الجميع ما قاله هذا الحكيم فتراه يتفرع فروعاً كفروع الاشجار الصغيرة لونها احمر وصلابتها كصلابة الحجر الاصم قابلاً للجلاء ومقطعه يشبه مقطع بعض النباتات مركب من طبقات ثلاثية متحدة المركز وما يكون منها نحو الظاهر هش قليل الصلابة لونه احمر وفيه عيون صغيرة هي مساكن تلك الحيوانات وما يكون

منها نحو المركز صعب قابل للكسر وهو الذي تستعمله الصاغة والجوهرية فهذا في الاصل حيوان واحد نبت فوق صخرة فتولد منه غيره ومن الغير غيره وهكذا حتى يتكون فرع صلب لا تتغير صلابته في قاع البحر ولا في الهواء بل صلابته فيها واحدة كما قيل والحيوان المذكور اسطواناني الشكل ابيض اللون يعلو طرفه ثمانية افرع على كل منها شعرات خفيفة دقيقة جداً وفي الغالب تكون الفروع او الاوراق متحركة وكثرة احساسها تنطبق وتنضغط بعض الاوقات اذا كان التأثير الواقع عليها كبيراً وتغيرت اتجاهاتها وتارة تنطبق على الجسم ويظهر في وسطها ومن اعلاها فتحة صغيرة كشتين هي فم ذلك الحيوان. ومنه يتجه داخل الجسم قضيب اسطواناني يمتد الى وسطه بحيث يرى كأنه معلق به وارتباطه من الفم بثنيات واصلة من فروعه الثانية بالانتظام وكل من هذه الثنيات مقابل لاحد الفروع على الاحكام فالجزء الظاهر هو ما يسكنه الحيوان وبينه وبين الجزء المركزي علائق قوية من حيثية التغذية والتكوين لانه مركب من منسوج دقيق محيط بالجسم ومن انايب مختلفة الغلظ فالأكثر غلظاً ملتصقة بالمركز والاقل منها فوقها والمنسوج فوق الجميع والمادة الغذائية تصل أولاً للمنسوج الظاهري ومنه الى ما تحته وهكذا حتى تصل الى المنافذ الملاصقة للمركز بمعنى ان المادة المكونة له لا تصل الى المركز الا بعد استيفاء كل قناة ومنفذ قسطها فتمر من السطح الى ما تحته الى المركز بكيفية



قدرها الحق جل جلاله وعز شأنه وكأله فيتكون منها هذه المادة اللطيفة واللون العجيب

ومن تكرر الاستكشاف ظهر ان الحيوانات المكونة للفرع الواحد نارة تكون من محض الذكور ونارة من محض الاناث وقد يتحد الذكر مع الانثى في الفرع الواحد وان الانثى تقذف بيضها من فيها ففي المبدأ يكون ديداناً صغيرة جداً ثم يتديء في التحسم واخذ الشكل الحقيقي شيئاً فشيئاً وكما يوجد المرجان بافريقيا والاندلس كذلك يوجد بسواجل ايطاليا وفرنسا وكيفية استخراجها عند الجميع واحدة تقريباً وذلك ان المركب المخصصة لذلك مصنوعة بغاية الاحكام وكذلك الاشخاص المستعدة لاجراجه اولوا قوة لمعانة المشاق لانه يحتاج لتجربة وتعود على معرفة محاله واما الآلة المستعملة لذلك فهي عبارة عن صليب مركب من قطعتين من خشب معلق بهما حجر ثم يربط فيها الشباك المعدة لذلك ويعلق في ذلك خطاطيف لتمسك جميع ما يعثر به فاذا ظن الصيادون وجوده يحمل رمواً شباكهم فيه ثم يسحبون الى امام او خلف ومعهم دواليب ارفع الآلة بكيفية يعلمونها فيأخذون ما تعلق بها وينظفونه

المحاضرة الثامنة عشرة  
في البراكين

وبينما هم يخوضون في هذا الباب ويتأملون في صنع رب  
الارباب واذا بالملاحين ومن بالمركب من المسافرين يشخصون  
بأبصارهم الى جهة من الافق وقد كثر بينهم اللفظ وكأننا رأوا  
شيئاً من السماء سقط والبعض ينظر ببصره والبعض بيده نظارة  
فلاح من الشيخ التفاته فنظر الى الجهة التي ينظرون اليها فرأى  
دخاناً كثيفاً صاعداً الى السماء مختلطاً بلهب ولبعده كان يظهر  
له انه يخرج من البحر فدهش من ذلك وعن مسألة المرجان  
اعرض وسال الانكليزي عن هذا الذي في الافق تعرض  
فقال له ان هذا الذي رأيته دخان يخرج من احد الجبال  
النارية ويعرف بجبل اتنا عند اهل الجغرافية وهو بالقرب من  
جزيرة تعرف بجزيرة سيسيليا وهي صقلية وهناك جبال اخرى  
بالبحر الابيض بعضها طفيء من زمن والبعض متقد الى الآن  
مثل جبل ويزوف بالقرب من جزيرة تعرف بجزيرة سردينا  
فقال الشيخ قرأت في بعض الكتب فوجدت فيها نحو ذلك  
وهو ان برية من الشام تفجرت وخرج منها دخان اقام بعض  
ايام ثم طفيء وسمعت من بعض اخواننا الواردين على الازهر

من البلاد المشرقية ان ثم جبلا شاهقة منها جبل يسمى دبقاوند  
ويقال دماوند لا يزال يخرج منها النار ويشند في بعض الاوقات  
دون بعض سماء ذلك الجبل فانهم يخبرون عنه ان فيه اثني  
عشرة فوهة يسمع منها دوي كدوي الرعد يخرج منها رياح شديدة  
الحرارة لا يمر بها شيء الا اهلكته غير ان لها سكوتا في بعض الاوقات  
وربما ترصد ذلك من يغمر بنفسه من المشتغلين بالكيمياء فيصعد  
اليها للبحث على كبريت ذهبي صاف يوجد هناك يعتقدون انه  
يدجل في الصنعة ويصفون ما يشاهدون هنالك من عجائب  
صنع الله تعالى

واهل مصر لعدم تعودهم على الاسفار وعدم وجود مثل هذه  
الحوادث في تلك الديار لا يوجد عندهم بهذا خبر ولا يصل اليهم  
منه علم ولا اثر لما ان بلادهم بلاد الرحمة قد خصها الله من فضله  
بالنعم الوافرة والالطاف الجمّة المتكاثرة

فمن نظر لهذا الجبل وهذه النيران وعلو لهبها وكثرة الدخان  
الذي سد الافق وحجب ضوء الشمس اقر بقلبه واذعن بعبوديته  
لربه فسجانه ما اعظم شأنه

فقال الانكليزي وفي هذه الجزيرة ايضا جزء غير مسكون  
وهو ما قرب من الجبل وباقيها معمور بالناس وفيها كثير من  
الحوانات وانواع النباتات وبسبب اعتياد الناس على هذا الجبل  
من خروج النار منه عندهم كالعيون والآبار من الامور العادية

وهذه النيران وإن كان يحدث منها مضرات لمن جاورها في بعض الاوقات لكنها لا تخلو عن حكم اختص بها من هو بها اعلم ولهذا الجبل اوقات تهب فيها النيران فتأخذ سعة من الارض تكبر وتصغر على حسب قوة الهميجان وضعفه ثم بعد ايام تسكن ولا يبقى الا دخان وبعض لهب كما هي حالته الآن بخلافه وقت هميجانه فانه يكون في حالة فظيعة وصفات مستغربة ترج منها الارض ويسمع لها دوي وقرقرة على بعد عظيم وفي هذه الحالة تقذف مواد فترتفع الى الجو ويعلو اللهب والدخان حتى لا يدرك البصر غايته ومن شدة هوله تظن سكان البقاع المجاورة له زوال بلادهم وخسفها ومن شدة رعبهم يضطرون الى الفرار وقد ذكر احد سكان الجزيرة حالة الجبل في شدة هميجانه فقال بينما انا في قرية بالقرب من هذا الجبل والناس مشغولون بامورهم وكان ذلك في شهر اغسطس الافرنجي سنة ١٨٦٢ واذا بارض تنزل وترج والجبل قد انفجر من اعلاه وخرج من فوهته مواد سائلة فكانت تسيل على سفح الجبل فهدمت منزلا كان هناك يعرف بمنزل الانكليز وكنت ارى قطعاً عظيمة حجرية تصعد من الفوهة ثم تنزل وتحد الى سفح الجبل وكان يخرج مع الدخان تراب ناري فينزل على سفح الجبل وبسبب ضعف القذف كان يقع في فم الفوهة فكانت تعطل المواد وتحبسها ولذلك انفتح الجبل من جوانب الفوهة وخرج من كل فتحة دخان ولهب ومواد

فكان ذلك امراً عجيباً ومنظراً غريباً خصوصاً في الليل فكانت الاشكال التي ترسمها المواد المقدوفة ترى بصور تشبه الصور التي تحدث عن الصواريخ في ليالي المهرجان والافراح واستمر على هذه الحالة الى اوائل شهر يناير سنة ١٨٦٥ فازداد تزلزل الارض وتموجها في الجزء الشرقي من جزيرة صقلية وانفجحت في طول الفين وخمسة مئة متر في راي العين وخرجت منها المواد المحبوسة من فتحة مستطيلة ثم في اواخر الشهر المذكور اجتمعت قوة الهيجان في نقط من خط الانفجار فتكوّن عن تراكم المواد المقدوفة عدة تلال منها ستة كبيرة والجميع كان بحافة المزق وبسبب توالي المواد السائلة والرماد والكتل النارية وسقوطها من فوق تلك التلال الى الارض تجمع اكثرها ببعضه وصار كسلسلة جبلية غير منتظمة ثم انقطع خروج النيران من كثير من نقطها وبقي في البعض فكان يشاهد كأن الفوهات العليا تقذف كغلاً جسيمة متجعدة وان الفوهات السفلى تقذف ناراً ولهباً ومواد سائلة على شكل مستدير حول الفوهة الاصلية فاستمر الحبل على ذلك ثم سكن هيجانه بعض مسكون وصار لا يرى فيه الا دخان وبعض لهب في بعض الاوقات وفي بعض الايام كان يسمع تحت الارض هدة وارتجاج ودوي كدوي الرعد وبعض نموج وتزلزل مزعج ويمتلاء الجو بالدخان ويتغير لونه وتجبب الشمس وكان يسمع على بعد اصوات متنوعة وباختلاطها مع

اصوات المواد السائلة كان يظن قيام الساعة ويلمح الخلق رعب  
كثير وبعد زمن خضع ذلك وصار بعد ان كانت المواد المقذوفة  
تصعد الى الجوف الفأ وسبعائة متر تنازلت الى مائة متر ثم حصل  
الهدوء كالاول وقد رعب بعض العلماء المواد المقذوفة من فوهات في  
الستة ايام الاول فوجدوا ان الحيل اخرج في كل ثانية تسعين  
متراً مكعباً وكانت سرعة سيلان المواد في الدقيقة الواحدة نحو  
ستة امتار وكلما بعدت عن فم الفوهة تجمدت وقلت سرعتها  
فتكون عنها في جميع جهات الحيل اخاديد وتفرع من كل  
اخدود فروع ومنها غيرها وهكذا وقدرت مساحة بعض الاخاديد  
فوجد منها ما عرضه ثلاثمائة وخمسين متراً في المبدأ وعمقه خمسة  
عشر متراً وبعده عن فم الفوهة ستة آلاف متراً وفي بعض الجهات  
كانت المواد تقع في اودية ووحدات منخفضة من الارض فكان  
يسمع لها دوي كدوي المياه عند انصبابها من الشلالات وقد  
قيس بعض تلك الوحدات بعد ان طفت منها المواد السائلة  
فوجد عمقه خمسين متراً وبلغ امتداد بعض الفروع عشرة آلاف  
متراً في الطول وفي وسط شهر فبراير ضعف سير المواد السائلة  
المتخللة بين الصخور فكان يظن سكون الحيل فينبجر ثانياً على  
حين غفلة بالقرب من فوهته الاصلية ويملا من المواد المقذوفة  
اودية وارااضي واسعة فيتلف كثيراً من اراضي الزراعة والمساكن  
المنفصلة عن البلاد وعدة كفور كانت بالقرب من هذه الجهة

وكثير من المزروعات واحضي ما تلف من الاشجار التي كانت هناك فبلغ مائة الف شجرة وتكوّن من لهب ودخان ما حرقت هذه المواد مع لهب ودخان الحبل شعلة كان الملاحون وسكان السواحل يرونها في البحر مسير عدة ايام وحصل لاهل صقلية من ذلك ما لا مزيد عليه من الضرر وحزنوا حزناً شديداً على ما تلف من غاباتهم وارضاي زراعتهم التي هي سبب سعادتهم وهذا الهيجان والاضطراب الذي شرحه لحضرتكم لم يكن شيئاً بالنسبة لما هو مذكور في اخبار هذا الجبل العجيب فان المؤرخين ذكروا انه هاج خمساً وسبعين مرة في ظرف الف سنة واقلها حصل عنها امتداد المواد المقدوفة الى عشرين الف متر اعني ضعف ما حصل في هذه الدفعة الاخيرة وستر من اراضي الزراعة ما ضلعه مائة الف متر وكانت في الازمان السابقة معمورة بالزراعة والناس وعليها من المدن والقرى عدد كثير ولم يزل يكتسب الجبل ارتفاعاً وامتداداً حتى صار قدر مجسمه الاصلي اربعة آلاف مرة

فقال الشيخ مقتضى ما ذكرته ان ياتي زمن تنعدم فيه هذه الجزيرة بالكلية لما انها في كل هيجان يتلف كثير من سكانها ومساكنها وتعدم خصوبة ارضها

فقال الانكليزي لا يمكن الحزم بذلك لان كثيراً ما شوهد في بقاع الارض جبال نارية مثل هذا الجبل او اعظم منه في الهيجان وبعد عدة قرون بردت وسكنت سكوتاً تاماً الى الآن



وجرت بها عيون وانهار ونبت فيها زروع واشجار وسكنها الانسان  
والحيوان فكذلك هذا الجبل يمكن ان يأتي عليه زمن يحصل  
فيه التوازن بين القوى الفعالة تحت الجبل واثقال المواد التي  
قذفها فيطفأ كما طفىء غيره من قبل وربما يحصل لارض الجزيرة  
اتساع عن حالتها الاولى وبما تكتسبه في كل هيجان في المستقبل  
تكون في حالة احسن وتكون حالة من يسكنها الطف من حالة  
سكانها الآن كما شوهد ذلك في كثير من امثالها

فقال الشيخ اني لا عجب من ارض ثمر وبها اشجار تزهر غاصة  
بالنبات والانسان ويخرج من جوفها هذا اللهب والدخان وهذه  
المواد السائلة التي تشبه في اندفاعها اندفاع الماء من اعلا الصخور  
والتابع من عيون الارض فمن اين تخرج هذه المواد وما مستودعاتها  
الحقيقية فهل جوف الارض مملوء بهذه المواد وهل ذوبان المواد  
الصلبة منسوب لاسباب دبرت بالقدرة الالهية والحكمة الربانية  
فتؤثر على المواد الجامدة فتذيبها في جوف الارض فان كان كذلك  
فما كيفية انتقاذها بهذه القوة الى ظاهرها ولاي شيء يخرج من  
بقعة دون اخرى وعلى قول اهل شريعتنا وملتنا لا يسعنا الا ان  
نقول تحيرت الالباب في صنع رب الارباب وانه لا يحصل لاحد  
على هذه معرفة ولا وقف الا بطريق الولاية والكشف واما على  
طريقتكم ومقتضى فكرتكم فهل وصل انسان لمعرفة حقيقة ذلك  
وشرح احوال هذه الحوادث كما وصل لشرح غيرها ولاي شيء

يسكن الجبل تارة ويهيج اخرى ولم كانت الاسباب الفعالة غير مستديمة بل تقوى تارة فتظهر وتضعف اخرى فتستر وقد ذكرت لي انه شوهد جبال بقيت زمانا تقذف من جوفها نارا ودخانا ثم طفت وسكنها الانسان والحيوان من بعد وصارت بالحيوان والانسان معمورة وبالنبات وروث البهائم مغمورة فاما ان تكون انتقلت عنها اسباب الهيجان الى غيرها او انها عدت دفعة واحدة او تدريجاً في مستقرها حتى لا يبقى لها عودة في المستقبل او انها تسكن ثم تعود كحالتها الاولى

فقال الانكليزي انه الى الآن لم يقف احد على حل هذه المشكلة ولا على دليل، لفهم المسئلة وغاية ما قيل احتمالات وعلل لم تطرد في نفي ولا اثبات . احدها وهو اعتقاد قدماء سكان هذه الجزيرة وكثير من اهل العلم الآن يعتقدوه وهوان مياه البحر تنصب في اغوار عميقة من قاعه وكلما ازداد عمقها ازدادت حرارتها فاذا اشتدت حرارتها اقلبت بخاراً وبعرض حوادث اخرى واسباب خفية تؤثر فيها تلاقيه من طبقات الارض فتخرجه عن حاله وبقوة التأثير المتوالية والقوى الفعالة عليها من اسفل تقذف الى جهة سطح الارض فتخرج من تلك الفوهات ممتزجة بالمواد التي اثرت عليها في مرورها بين طبقات الارض وتكوّن عنها المواد البركانية والدخان والمهب وباقي الاحوال التي تشاهد حين صعودها الى الجيوب وتأثير الجيوب عليها تتجبد شيئاً فشيئاً حتى تصبح

حجراً أو صخراً يتكون منه الجبال . ثانياً ما قاله بعضهم وهو ان  
جوف الارض من جهة المركز مشتعل بالنار على الدوام  
وان جميع المواد ذائبة والابخرة المتصاعدة تخرج بقوتها من الفوهات  
البركانية . هذا ما قيل ولم يعلم ايها الصح ولكن رجح كثير من اهل  
العلم القول الاول لقربه من العقل على الثاني لبعده عنه لان  
المشاهد ان تركيب البخار المتصاعد عين تركيب بخار الماء سواء  
بسواء

واخبر احد المهندسين ذلك فوجد ان في كل جزء من البخار  
تسعمائة وتسعة وتسعين جزءاً من الماء والجزء الباقي مواد اخرى  
كما هو كذلك في بخار الماء وفي الهيجان الاخير الذي حصل  
في جبل اتنا قدر احد المهندسين الماء الذي تحصل من البخار فوجد  
ان الجبل يقذف في كل دفعة ٦٠.٠٠٠ متر مكعب وبما انه  
كان يقذف في كل اربع دقائق مرة ففي مدة مائة يوم يكون  
مقدار الماء المقذوف ٢١٦٠.٠٠٠ متر مكعب وقد شوهد في مواد  
الفوهة البركانية جميع المواد التي يتركب منها الماء الملح وغير ذلك  
فان غالب جبال النار التي استكشفت على سواحل البحر او في  
الجزائر موجودة الى الآن . منها ما سكن ومنها ما هو على حاله  
وكثير ما سكن هذه الجبال يخرج منه عيون ماء حارة متفاوتة  
في الحرارة والتركيب المعدني

والجبال النارية كثيرة جداً ففي البحر المحيط الاعظم وفي

البغاز الموصل الى الاسترالي بارض الهند الصيني مائة وتسعة  
جميعها يقذف مواد بركانية . فمنها ما يقذف دخانًا ولهبا ومعادن  
متنوعة . ومنها ما يقذف رمادا ناريا . ومنها ما يقذف طينا . وفي  
الغالب يترتب على هيجانها انخساف اراض وابتلاع مدن باهلها  
وسكان هذه الجزيرة دائما في رعب وخوف لما يحصل لهم من هذه  
الحوادث المهولة

وفي جهات امريكا يشاهد خروج اللهب والدخان والمواد  
البركانية من فوهة جبل مستلى المرتفع عن سطح البحر الملح بقدر  
خمسة آلاف واربعمئة متر ويرى الدخان واللهب من بعد عظيم  
كانه عمود من نار قاعدته في البحر ورأسه في السماء يستر ظله جزءا  
عظيما من الارض فلا يرى عليها لاشعة الشمس والضوء ادنى  
اثر ويوجد في ارض مكسيك اكثر من ثلاثين فوهة

وفي مواضع كثيرة من جهة امريكا لا تزال الارض في تزلزل  
واضطراب وفي بعض اوقات تنفجر ويخرج منها لهب وجميع هذه  
الجبال يشبه بعضها بعضا في هذه الحوادث . فمنها ما يقذف دخانًا  
ولهبا واحجارا . ومنها ما يقذف مع ذلك ترابا . ومنها ما لا يقذف  
الا ماء حارا يرتفع الى السماء ثم ينزل الى الارض

والجبال النارية في ساحل البحر الجنوبي اكثر منها في ساحل  
البحر الهندي فالجبال النارية لم تنزل فعالة بقوة في جهات جزيرة  
سيومتره وجزيرة زافا

ووجد في سواحل بلاد العرب والهند اثار مواد نارية تدل على انه مضى على هذه الجهات زمن كانت فيه متهيجة ومتقدة وعرضة للحوادث والاهوال كالجهات التي يشاهد فيها ذلك الان ويوجد ايضاً حول البحر المحيط الاتلنطيكي فوهات نارية بعضها يخرج من جبال سواحله وبعضها من جبال جزائره ولكن براكين هذا البحر في الجهة الجنوبية اقل منها في غيرها عدداً وقد طفي اكثرها وسكن

وعدد البراكين التي فوق سطح الارض الان في جميع جهاتها بناء على قول العالم (هومبولد) مأتان وثلاثة وعشرون وزعم غيره انها تزيد على هذا وان كانت لا تبلغ مائتين وسبعين لكن لا يخفى انه لا يمكن الجزم بقول واحد منها ولا ترجحه لان كثيراً من الجبال سكن زمناً طويلاً ثم هاج وتأجج بقوة اكثر مما كان وبعضها بسبب عظم قوته كان يظن به انه لا يسكن فسكن وطفئ كأن لم يكن ولعدم العلم بقواعد يستدل بها واسباب يستند اليها لا يمكن الحكم باحد العددين بل تزيد وتنقص باسباب واحوال واما ما كان منها في الازمان السابقة مشتعلًا ثم طفي فكثير جداً كما علم ذلك من وجود المقدوفات حول الفوهات المتعددة الباقية الى الان

وكثير من الناس يزعم ان غالب الجبال النارية متصلة بعضها من تحت قاع البحر ولكن لا قرينة على هذا الزعم بل القران

تدل على عدم الاتصال وذلك لانه لو كان بينها اتصال لفار الجميع عند فوران احدها والواقع غير ذلك اذ لم يشاهد ذلك في جبال اتنا والويزوف وغيرها من الجبال النارية التي بالبحر الابيض المتوسط لان كثيراً ما شوهد هيجان جبل اتنا مع عدم تحرك جبل ويزوف مع ان الاول مرتفع عن البحر ثلاثة الاف وثلاثمائة متر وارتفاعه اكثر من ارتفاع الثاني ثلاث مرات فلو كان بينها اتصال وكان منبع هيجانها واحداً لحصل الهيجان فيها معاً وايضاً فالمواد المقدوفة من الاثنين مختلفة ثم ان هول الجبال التي تقذف ماء وطيتاً ليس اقل من هول الجبال التي تقذف ناراً ولها بل هي مثلها او اعظم فان ما حصل من جبال النار من الاتلاف والمضار حصل مثله من جبال الماء كما هو مذكور في التواريخ وقد شوهد انه انفتحت فوهة من هذه الجبال بعض ساعات وقذفت ماء وطيتاً فاغرقت مدناً وقرى وابتلفت ولايات واغرقت اهلها وصيرتها بعد ان كانت معمورة بالناس واصناف التجارة فحالة خراباً لا تجد فيها يوماً ولا غروباً مثل ما اتفق في سنة ١٧٩٢ من الميلاد في جبل بابانريانج اعظم الجبال النارية بمجزيرة جافا وهوان الجزء الاعلى من الجبل تمزق وانتدفت منه قطعة بقوة وارتفعت في الجو ثم سقطت على الارض فاهلكت اربعين قرية باهلها وخرج من الجبل قناة كبيرة من الماء الساخن فمالت فجوة كبيرة ولم تزل سائحة في جميع الجهات وفي بعض الاوقات

تظهر فيها عيون يخرج منها طين اسود مختلط بالماء الحار ويرى من جميع مسام الجبل دخان ويسمع له اصوات تشبه صوت المطرقة ولذلك سمي هناك بجبل المطرقة

والجبال الشامخة يندر فيها اتصال سيل المياه والمواد الصلبة بل الغالب فيها ان تكون متقطعة وبعضها لا يقذف الا طيناً او مادة تشبهه كما يشاهد ذلك في جبل (اكوا) اي جبل الماء وهو مرتفع فوق سطح البحر باربعة الاف متر فلا يقذف الا ماء ولذلك سمي بجبل الماء

وكذلك سنة ١٥٤٠ ميلادية فتح فيه فوهة فخرج منها ماء دفعة واحدة فكان سبباً لازالة جزئه الاعلى وتزيقه ومن كثرة سقوط احجاره وقذف مواده تعدى ضرره الى ما جاوره من البلاد فاتلف اكثرها واضطرت الاهالي لنقل التخت بعيداً عنه وكثير من جبال جزيرة جافا وجزيرة فيليبينه لا تقذف في هيجانها الا طيناً مختلطاً بمواد بركانية واكثره متجمد بمواد قابلة للالتهاب تستعملها الاهالي وقوداً للنار

وفي سنة ١٧٩٢ في جزيرة كنوبوقذف احد جبالها النارية مقداراً عظيماً من الماء والطين فاتلف بذلك جميع الاراضي المجاورة له واغرق خمسة وثلاثين الف نفس

واكبر من هذه الحادثة ما حصل في سنة ١٧٩٧ في احد جبال دائرة الاستواء بالقرب من كنوبو من جهة الجنوب من جبل



تو يجوراحا فقد تقل ان الجبل انشق من اعلاه الى اسفله فتدهدت منه جهة خاعقها اندفاق المواد الطينية المحبوسة في جوفه فلأت مسافة هناك بين جبلين وارتفعت الى مائتي متر في عرض ثلاثمائة وحبت المياه التي كانت جارية هناك

وبالتأمل في حوادث هيجان هذه الجبال المائية وكيفياتها والجبال النارية ومقذوفاتها نجد ان لا فرق بينها الا انها تارة تقذف من اعلاها وتارة من جوانبها وبذلك يستدل على ان القوى الفعالة في بعضها لا تخالف القوى الفعالة في الاخرى الا في زيادة القوى وعدمها

وغالب هذه الجبال لا يوجد الا بالقرب من شواطئ البحار وسواحل الجزائر وهي كثيرة والمشهور منها باوروبا الجبال الموجودة في نواحي جبل قمار على ساحل بحر الخزر والجبال الموجودة في جهتي بغازبانيكالي الجامع بين البحر الاسود وبحر ازوف فا كان في جهة الشرق فواده طينية مختلطة بغازات نارية وقذفه متقطع وما كان في جهة الغرب ليس كذلك بل قذفه مستمر في أي الفصول الا ان قذفه في الصيف أكثر منه في الشتاء وهناك جبال اخر مثل ما ذكر اعرضنا عن ذكرها لاجل الاختصار

وهذه المقذوفات منها ما يكون في فصل الشتاء فتكون المواد المقذوفة طيناً مائعاً لا تخلطها مياه الامطار ويخرج معها دخان وتكون شديدة الحرارة لتساعد المياه وتجهد بالسطح ويخرج

الدخان من فتحات بالسطح او يقفل عليها فيرتفع سطحها في هيئة مخاريط تعلو سطح الارض فيحبس البخار الى ان تغلب قوته تماسك المادة فيقذفها ويخرج الى الجو ويستمر الحال على ذلك الى ان ياتي فصل الشتاء فتذوب المواد الطينية وتكون كما كانت في العام الماضي وهكذا

وقد شوهد في بعض جبال البحر الهندي ان هناك ارتباطا بين اوقات القذف واوقات المد والجزر فيزداد القذف في اوقات المد حتى يسمع له دوي وقرقرة داخل الحيل وربما تكون المواد المقذوفة حارة وفي الغالب لا تزيد على الحرارة الجوية ويتقص في اوقات الجزر

فقال الشيخ وهل الى الان لم يصل احد لمعرفة الاسباب المؤثرة في جوف الارض على المواد المترتبة منها طبقاتها حتى انها تقذف تارة مواد جامدة مع دخان ولهب وتارة ماء ومواد طينية وتارة لا يكون الا ماء وتارة طينا يشبه الوحل فلا بد لهذا الاختلاف من اسباب مختلفة لانها لو كانت واحدة لكان خروج الماء بكيفية واحدة وقد قرأت في بعض الكتب فرأيت فيها ان بعض التجار مر ببعض الحبال فرأى فيها عيون ماء بعضها حار وبعضها بارد ولم يكن بين مجراها الا مسافة شبر وحكى بعضهم ان هذه العيون منها ما يكون نافعا للشرب والري ومنها ما لا يتففع به لتغير طعمه ورائحته وقال بعضهم ان من هذه العيون ما

يكون حاراً جداً لا يستطيع الانسان وضع يده فيه حتى ان بعض  
 القاطنين بالصحاري القريبة من هذه العيون يسوي طعامه على  
 حرارته فكل هذه الاختلافات تدل بلسان الحال على العجز عن  
 البحث في هذا المجال وغاية ما وصل اليه فهي وتخيلة وهي قياس  
 ما ثبت بالعيان على ما ورد في القرآن من قوله تعالى في كتابه  
 المكنون الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه  
 توقدون وعلى ما نقل عن العرب من قولهم في كل شجر نار وعلى  
 ما قيل في خشب المرخ والعفاروها نوعان من شجر البادية اذا  
 احلك منها غصن بغيره صار نارا فاظن ان نار هذه الجبال  
 وما ينشأ عنها من الاحوال من هذا القليل وان السبب هو  
 احلك بعض الصخور بحكمة يعلمها العالم القدير فتصادف بعض  
 مواد نارية كالكبريت او غيره فينشأ عنها ما ذكر من البراكين  
 فقال الانكليزي قد ذكرت لحضرتكم السبيين اللذين نسب اليهما  
 علماء هذا الفن جميع الاحوال البركانية سواء كانت المواد المقدوفة  
 صلبة او مائعة وها الماء والنار وان من قال بالاول يقول ان  
 في جوف الارض اخلية عظيمة كالمغارات يعلو بعضها بعضاً  
 وبين تلك المغارات والبحر فتحات موصلة بعضها ضيق وبعضها  
 متسع وهذه الموصلات تارة تكون متفرقة كالانهر والخلجان وتارة  
 تكون غير متفرقة وبينها وبين بعضها اتصال وكذلك بينها وبين  
 البحر والفجوات والمغارات وان ماء البحر متى انصب في هذه الموصلات

ازدادت حرارته وكانت كحرارة الطبقات الصخرية التي يمر بها واستدلوا بالتجربة على ان حرارة الماء تزداد كلما ازداد انخفاضه في الطبقات الارضية بقدر ثلاثين متراً فاكثراً واذا وصل الماء في الانخفاض الى عمق الف متر كانت درجة حرارته مائة درجة ومع هذا تبقى سائلة بسبب ثقل الطبقات التي فوقها ولا تتغير المياه عن حالة السيالان الا اذا سفلت وانخفضت الى الف وخمسمائة متر فحينئذ تكون درجة حرارتها هناك خمسمائة درجة تقريباً بمقتضى الحسابات ويوجد في هذه الابجرة قوة على دفع الماء الذي ارتفاعه الف وخمسمائة متر ما لم يطرأ مانع وفي هذه الحالة تصعد الابجرة وتنقذ من خلال الطبقات الارضية وتختلط بغيرها من الطبقات الصخرية المحترقة الذائبة بالحرارة ومتى بلغت قوة الابجرة حد العظم في الذائبة من الصخور دفعتها الى اعلا وقذفتها من الفوهات النارية الموجودة قديماً ان كان التأثير عند فتحها نحوها والا اثرت على ما فوقها وفتحت فتحة فيما حاذها تكبر وتصغر على حسب القوة الموجودة وربما بلغت ثلاثين الف متر في الطول ومائة وخمسين الف متر فاكثراً في العرض فتخرج المواد المقذوفة منها الى سطح الارض وبتوالي الزمن وتراكم المواد المقذوفة من جوف الارض وسقوطها في بعض الفتحات ينسد معظمها ولا يبقى منها الا فتحة او بعض فتحات وعلى طول الزمن ينشأ عنها سلسلة جبلية او جبل عظيم او غير عظيم على حسب

الأحوال فان كانت القوى الفعالة قريبة من سطح الأرض ودفعت مواد ذائبة الى فوهات البراكين تكون فيها شبيهة ببرك الماء تزيد وتنقص تبعاً لقوة السبب وضعفه وكثيراً ما يحصل كسر الجروف بحسب قوة سيلان المواد المقذوفة على الأرض المجاورة وتخرب أكثرها وتارة يكون انصبابها في البحار فتجعل فيها لساناً ممتداً الى بعد عظيم من ساحله الأصلي ويتغير شكل شواطئه وبحسب التأثير الواقع على المواد فاما ان تكون صلبة واما ان تكون طينية ويختلف لونها ورايحتهما بحسب المواد فان كان التأثير الباطني واقعا على برك من الماء مخزونة في جوف الأرض دفعته في هيئة البراكين واسالته كما هي حالة الشلالات وكثيراً ما وجد في هذه المياه حيوانات صغيرة واسماك لا تعيش

واما وجود الماء الحار بالقرب من الماء البارد وعدم صلاحية الاول للشرب وصلاحية الثاني له فسببه ان اصل البارد المياه التي تشربها الأرض من الأمطار والثلوج وغيرها واصل الحار من المياه السفلية واختلاف طعمها ولونها من المعادن والمواد التي تركبت منها الطبقات السفلية التي مرت بها في طريقها فكيفت بكيفيتها ويجوز أن يكون ما تخيلت بعض الأسباب فانها ظنون متفاوتة قوة وضعفاً



## المسامرة التاسعة عشرة

## شذور

وبسبب دخول الوقت أنقطع بينهما الكلام وانصرف الشيخ  
ليقضي ما عليه من فرائض الاسلام ويات تلك الليلة متفكراً في  
صنع الله متدبراً في اصناف المخلوقات وعجائب الكون والكائنات  
وفي كيفية الاسباب المدبرة بقدرة الله وعظمته سبحانه وتعالى  
ووجود هذا النظام في طبقات الارض السفلى وفوق سطحها وفي  
السموات العلى وان لا حركة الا وهو مبدعها ولا ذرة الا وسبق  
في علمه مستقرها ومستودعها لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في  
السماء يعلم عدد الرمال ومكايل البحار ومثاقيل الجبال لا اله  
الا هو وهو بكل شيء عليم

وبينا هو يناجي ربه ويهلل واذا بولده برهان الدين لتقيل  
يده قد اقبل وعلى حسب عاداتها من وقت نزولها بالسفينة في  
تشاركها في تعلم اللغة الانكليزية حصلت بينهما المكالمة فيما تعلماه  
وما اكتسباه من اللغة الانكليزية ولكن كان ولده قد فاق عليه  
لانه كان طول يومه بين ركاب المركب والمراكبية فكان يسال  
عن اسم كل شيء رآه وعن معنى كل لفظ سمعه ويكتبه وللطفه  
ولين طبعه وعذوبة الفاظه وادابه مالت اليه قلوب من بالسفينة

واحبه ولذكاه فطنته وقوة حافظته كان ما يحفظه في اليوم الواحد يعدل ما يحفظه غيره في ايام فتقدم تقدماً تاماً وحفظ كثيراً من الكلمات والعبارات فاعجب والده حسن حاله فباسطه وسأله عن صحته فاجابه انه بعناية اللطيف الخبير وبركة دعائه في صحة تامة لا يعتريه ملل ولا فتور ولا كسل ثم اخبر والده انه سمع من بعض الركاب انهم في غد يقربون من البر وتظهر لهم المدينة التي هي نهاية مقصدهم وانه من امس اشتغل بكتابة مكتوب الى والدته ويرغب ان يذكر لها فيه بعض نوادر رآها وامور غريبة عن والده وعن الخواجا رواها خصوصاً وقد عثرت في السفينة على شخص سبق له اسفار كثيرة في جميع البحار وعان من احوالها احوالاً وكابد في اسفاره ما لم يكابده احد وله معرفة بقليل من العربية تعلمه في بعض جهات سواحل افريقيا فكتبت عنه كثيراً ما سمعته وذلك الشخص اسمه جهمس اي يعقوب وانه رغب في مفارقة البحر الان وان يتأهل ويقيم في احدى الجهات ليستريح من مشاق البحر لكنه لا يتيسر له ذلك لكونه فقيراً لا يملك شيئاً غير ما عليه من الثياب وله تاريخ عجيب ذكر لي بعنسه واخبرني انه يرغب في بقاءه عند الخواجا صاحبنا بصفة خادم وهو يرجو في التوسط له عنده فان فعلت ذلك اكنسبت ثوابه واظن ان الخواجا لا يخالفك فوعده والده بذلك واثنى عليه مكافأة على تذكره لوالدته ودعاه بالبركة ولتقدمه عليه في اللغة الانكليزية



كما تقدم قال له من باب المزاح لا تذكر لوالدتك تقدمك عليّ في اللغة فضحك برهان الدين وطأطأ رأسه حياءً منه فقبله الشيخ بين عينيه وسأل الله ان يفتح عليه ثم انحاز كل منهما الى مضجعه ولما حان وقت نداء الفلاح واسفر نور الصباح قام الشيخ على حسب العادة وصلى ما كتب عليه وقرأ اوراده وكذلك ولده برهان الدين صلى وقرأ ما تيسر من القرآن ثم حضر الخادم لهم بالشاي واللبن على حسب العادة الانكليزية فأخذ كل منهما ما تيسر وبعد ذلك خلع كل منهما ثيابه ولبس ثياباً نظيفة لعلهما بالخروج من السفينة في هذا اليوم ثم خرجا الى ديوان السفينة الذي هو محل اجتماع الركاب فاقاما به برهة مع الناس وإذا بالخوaja قد حضر وحياتها وسألها عن صحتها فشكره

وقال الشيخ ان الذي ذكرته فيما يتعلق بجبال النار وكيفية ثورانها وانواع مواد متذوفاتها والقوى الفعالة في جوف الارض وما ينشأ عنها من المحوادث الفظيعة لعجيب ولولا ان الارادة الربانية اقتضت مشاهدتي لهذا المهب والدخان وسماعي لذلك الدوي والهيجان لم يكن في علي من ذلك اثر ولا كنت اثق فيه بخبر غير اني كنت رأيت في بعض الكتب بعض كلمات تدل على ان هناك جبلاً شامخاً واخرى نارية لكنها كانت غير مفيدة للعلم اليقيني الذي علمته بالمشاهدة وتفصيل حضرتكم وكنت لا ادقق النظر فيها لاني كنت في ذلك الوقت لا ارى لها اهمية

نوجب الاشتغال بها وكذلك في بعض الاوقات كانت الطلبة  
تخوض في هذا الحديث فكان يقع بينهم الاختلاف ويطول النزاع  
ولكون الجامع الازهر هو المدرسة العامة يهاجر اليها لطلب العلم  
من جميع الاقطار كجزائر العرب وارض الحجاز وبغداد والعجم  
والتر والاتراك والبربر وبلاد السودان والمغرب فكان الكلام  
بينهم في هذا المعنى يوجب الكفاح بسبب اختلاف آرائهم فمنهم  
من يعد مثل هذه الحوادث مستحيلاً ومنهم من يجوزها ولا يقيم  
عليه دليلاً ولعدم اهمية مثل هذه المسائل بيننا كما نرى ان المنازعة  
فيها والاصغاء اليها لا طائل تحته ومن كان في نفسه  
على يقين من ذلك لكونه رأها في بلاده كان مجبوراً على عدم  
التكلم فيها بالكلية لانفراده وكثرة الآخرين وإذا اضطر الى الكلام  
فيها قال يقول العموم لئلا يجبر نفسه الى ما يوقعه فيما وقع فيه  
غيره ممن خالف راي الأكثر لانه يوجد في بعض الاحيان من  
جملة المنكرين بعض من اهل الاعتبار والشهرة ولا يخفى ان مخالفة  
رأي مثل هؤلاء ربما توقع في ضرر وقد استولت على الليلة الفكر  
فلم اتم الاقريب السحر فصرفت الزمن في التأمل في صنع اللطيف  
الخبير البديع التدبير من جبال نصبها وفي مواقعها رتبها وبحار  
ازخرها ولمنافع الناس سخرها وسيرها وفي بطون الاودية وشواهد  
الجبال صرفها وقدرها ولو اردت جمع ما علمت ضمن كتاب  
لكان هدية لاولي الالباب الذين يتفكرون في خلق السموات

والارض قائلين بلسان الاعتبار ربنا ما خلقت هذا باطلا انما  
 هنالك قوم كالسوقة ان عرضت لهم بذلك قدحوا في عقيدتي ورموني  
 بما لست فيه فهم اناس دأبهم العناد والسعي في الارض بالفساد لا  
 يميلون للمعارف ولا يحسنون من الاشياء غير الزخارف حظ  
 احدهم ان ياكل وينام ويتزيا بزي اهل الاسلام اذا سمع وصف  
 العجار والجبال قال ذلك لا يثبت الا بحض الخيال وكل ما  
 ليس في كتاب الله ضلال والاشتغال به يشغل الاشتغال غافلا  
 عن قول رب العالمين . وفي الارض ايات للموقنين . وفيهم من  
 يخشى من صولته وَيُرْهَبُ من هيئته فرما كان داعية للكتمان  
 وسببا من اسباب الحرمان

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ذم الجهل ومدح العلم وانها  
 ضدان لا يجتمعان وان الجاهلين لاهل العلم اعداء وهذا امر مجمع  
 عليه بين اهل الملل فلا يتاخر محب العلم عن تعلمه وتعليمه ونشره  
 لنفع اهل وطنه وغيرهم لخوف مضادة بعض افراد او عدم اتباعهم  
 لرايه ومتى كانت الحقائق ثابتة بالبرهان العقلي او النقل عن اساتذة  
 افاضل فلا عليه من انكار المنكرين وذم الجاهلين فلا يمنعه ذلك  
 عن ارشاد اهل وطنه واخبارهم بها وقع تحت نظره وشاهده خصوصا  
 اذا كان لهم في معرفته فائدة بل الواجب عليه حيث ذكر الافصاح  
 به واشهاره فانه وان لم يصدق الكل فقد يصدق البعض فيكون  
 معضدا له فتحصل له به المساعدة في نشر معلوماته وعلى تداول

الايام تكثر طائفة اهل العلم وتعلو على طائفة اهل الجهل وتقدم  
 الملة شيئاً فشيئاً وتوضع البركة في ارزاقها وتوسع ثروة اهلها باتساع  
 دائرة العلم بين علمائها وساسة امورها وتكون كغيرها من الملل  
 المتقدمة . الا ترى ان البلاد الاوروبوية بعد ان كانت في حالة  
 الوحش والخشونة قد انتقلت الى درجات الكمال وبلغت في  
 الاعتبار والسطوة ما لم يبلغه غيرها من الملل . هل لذلك سبب غير  
 اتساع دائرة العلم والمعلومات عند اهلها مع ما اضافوه الى ما تعلموه  
 مما اخذوه من الامم المجاورة لهم خصوصاً ما اخذوه عن اهل الشرق  
 فانا نرى في كتب التواريخ ان حرب القدس الذي امتد زمناً  
 طويلاً كان سبباً عظيماً في اختلاط اهل اوروبا باهل اسيا ومن  
 ذلك نشأ اتساع دائرة العلم باوروبا واخذت من ذلك الوقت  
 جميع سبل الثروة في النمو والزيادة ولذلك حصل في جهاتهم  
 للفلاحة والتجارة والصناعة والملاحة التقدم الذي لا مزيد عليه  
 فهذه الواقعة وان تلف بها كثير من الاموال والانفس الا انها  
 كانت سبباً في تقدم اهل اوروبا لانهم تعلموا من المشرقين ما  
 عندهم من المعارف والعلوم فنقلوه الى بلادهم واشتغلوا بهذه المعارف  
 واستعملوها في ارضهم بمناسبة اقطارهم فمن وقتئذ الى الان لم تنقطع  
 سبل الاختلاط بل زادت زيادة بالغة بسبب الطرق والوسائط  
 التي استعملوها لتسهيل السياحة في البلاد البعيدة براً وبحراً وازداد  
 بينهم الامن والالفة وما من سنة تمر الا وترى الوفاً من اهل اوروبا

تسبح بالارض فلا يرون بشيء الا رسموه ولا يرون اثرا الا تأملوه  
وربما شرحوه وفي بلادهم نشروه وبهذه المثابة وصلت اهل اوروبا  
الى التقدم في العلوم واستكشاف بقاع مستحجة فاستحوذوا عليها  
وتغلبوا على اكثر البلاد الهندية والصينية وجلبوا بهذه الطرق الى  
ارضهم جميع خيرات البقاع وجعلوا في بلادهم معارف الملل المتفرقة  
فوق سطح الارض وفي وسط البحار المتسعة فوصلوا بسعيهم  
واجتهادهم الى اعلى درجة في التمدن حتى صاروا في عصرنا هذا  
منفردين باكثر الصنائع متمعين بين جميع الملل بالرفاهية والحرية  
التامة . رأيتهم في كل امر نافذ وقوتهم ليس لها معارض ولا منابذ ولا  
شك ان الذي اوصلهم الى هذه الدرجة ليس الا العلم وكثرة  
السياحة اذ لو اقتصرنا على معلوماتهم الاولى ومعارف ابائهم في  
الجاهلية لما وصلوا لشيء من ذلك بل كانوا الان يجهلون كيفية  
ذرع النبات خصوصا النافع منه لغذاء الانسان وقوته فانهم انما  
تعلموا ذلك من المشرقيين كما تعلموا منهم اصول التجارة والملاحة  
هذا ولم يكونوا في سابق الزمان على ما تراه الان من تحرير العلوم  
والبحث في مسائلها واستخراج ثمراتها وتضمينها الكتب ونشرها في  
العالم بل كانوا لا يشتغلون بغير كتب الديانة محظورا عليهم  
النظر في غيرها كائنا ما كان فمن كان يتكلم بخلاف ما يتكلم به  
القس في الكنائس ووصل خبره اليهم كان عرضة لانواع مختلفة  
من الاهانة . فمنهم من مات مسحورا ومنهم من قتل ومنهم من حرق

بالنار ومنهم من نفى من وطنه فبقي طول عمره في قيد الذل  
والمسكنة ومع هذا كله فبعد زمن غلبت عصبية الحق لانهم كلما  
رأى الناس اهانتهم عطفوا عليهم ومالوا بقلوبهم اليهم فزادت شهرتهم  
ورغبت الخلق في سماع اقوالهم ونصروهم واحنفوا بهم حتى كبر جاههم  
وعلت كلمتهم وظهروا بمذاهب فاتبعها الناس لما وجدوه فيها من  
المنافع حتى انتشرت بذلك علومهم لما رؤا فيها من الاشياء النافعة  
والاختراعات المفيدة كالمطبعة فقد اوصلتهم لنشر طرقهم وعلومهم  
بين الناس وظهرت الكتب من كل فن من جميع الاجناس  
وتحصل عليها الفقير والغني والذكي والغني وامتدت بها اغصان  
شجرة العلم الى اطراف البلاد فاستوى في اقتطاف ثمارها سائر العباد  
ومن ذلك اخذت العلوم في الاتساع وكثر المخترعون والمؤلفون  
حتى كان من المشتغلين في كل فرع من العلوم والصنائع  
والحرف عدد غير متناه وما من يوم الا وتظهر كتب جديدة  
واختراعات مفيدة

فقال الشيخ تبين من هذا الكلام ان المانع من تقدم العلوم  
والصنائع في البلاد الاوروباوية كان من قبل قس الديانة  
العيسوية لكن الامر في البلاد المشرقية والديار الاسلامية على  
خلاف ذلك اذ ليس في احكام الديانة ما يمنع من التقدم في اي  
علم من العلوم النافعة ديناً ودنيا بل كتاب الله واحاديث انبيائه  
وسائر رسله امرة بذلك وما من نبي من المتقدمين ولا عالم من

العالمين الأَوَّلَ وكان له صنعة يتقوت منها

فقد سئل بن عباس عن صنائع الانبياء فقال كان آدم حراثًا وكان ادريس خياطًا وكان نوح نجارًا وكذلك زكريا وكان هود تاجرًا وكذلك صالح وكان ابراهيم زراعاً وكان اسماعيل قناصًا ( اي صيادًا ) وكان اسحق راعيًا وكذلك يعقوب وشعيب وموسى وكان يوسف ملكًا وكذلك سليمان وكان هارون وزيرًا وكانت الياس ناسجًا وكان داود زرادا ( اي يعمل زرد درع الحديد ) وكان عيسى سياحًا وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين مجاهدًا ولذلك قال . جعل رزقي تحت ظل رمحي . وكان صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل يحب المؤمن المحترف ومن امسى كالأَمْسَى من عمل يده امسى مغفوراً له

وكان صلى الله عليه وسلم يبحث على البكور ( اي السعي في اول النهار ) في طلب الرزق وغيره من حوائج الدنيا ويقول اللهم بارك لامتي في بكورها . وقال الشافعي رضي الله عنه احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس . قال حكيم من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير وقال بعض الحكماء الحركة بركة والتواني هلكة والكسل شوم وكلب طائف خير من اسد رابض ومن لم يحترف لم يعتلف . وسأل معاوية سعيد بن العاص عن المروءة فقال العفة والحرفة

قال انس رضي الله عنه جاء رجل من الانصار ( اي اهل



( المدينة ) الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله شيئاً فقال له  
اما في بيتك شي قال بلى جلس ( اي فراش ) نلبس بعضه ونبسط  
بعضه وقعب ( اي اناء ) نشرب فيه من الماء فقال صلى الله عليه  
وسلم ائني بهما فاتاه بهما فاخذها بيده فقال من يشتري هذين فقال  
رجل انا اخذها بدرهم فقال صلى الله عليه وسلم من يزيد على  
درهم مرتين او ثلاثا فقال رجل بدرهمين فاعطاها اياه واخذ  
الدرهمين فاعطاها الانصاري وقال اشتر باحدها طعاماً فانبذه الى  
اهلك واشتر بالآخر قدوماً فائني به فاتاه به فاثبت فيه رسول  
الله صلى الله عليه وسلم عوداً بيده ثم قال اذهب فاحنط بوع  
ولا ارينك خمسة عشر يوماً ففعل ثم جاء وقد اصاب عشرة دراهم  
فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم هذا خير لك من ان تحجيء بالمسئلة نكتة في وجهك يوم القيامة  
وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول لان يحنط احدكم حزمة  
على ظهره خير له من ان يسأل الناس وكان صلى الله عليه وسلم  
يقول كثرة المسئلة كدوح ( بضم الكاف اي قروح ) في وجه صاحبها  
وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول اني لأرى الرجل  
فيعجبني فاقول هل له حرفة فاذا قالوا لا سقط من عيني

أبعد هذا كله يتوهم ان اندثار بعض العلوم والصنائع في  
بلاد العرب من جهة من سلف من علماء الملة مع انه ما من فن  
الآن ولم فيه التأليف المفيدة ولا حرفة الآن ولم فيها الاختراعات

العديدة ومن زعم في المشرقين غير ذلك فقد اخرج الحق عن موضعه اما لعداوة او حسد او نحو ذلك بقصد تحويل الافكار عن طريقة الحق الى طريقة الباطل ولم ينكر احد من النوع البشري فضل الاسلام وتقدم اهله في اي الفنون والصنائع فهذا امر لا ينكر وظاهر كالشمس في رابعة النهار بل اظهر لان الاسلام كان سبباً في احياء ما اندرس من الفنون والصنائع وجمع ما تفرق منها في اقاصي المواضع احيا التمدن القديم بدرياق اسراره النافعة وازال ظلمة الكون بانواره الساطعة اذ هو الاساس الحقيقي والمنبع لما يسمونه بالتمدن الجديد المبتدع فلولا دين الاسلام وعلماء العرب لضاعت العلوم القديمة باسرها لانا نرى في الكتب العربية القديمة كثيراً من المستكشفات التي تعزى الان الى الافرنج ومن تتبع كتب السير والتواريخ وجد صحة ذلك وهل ينكر احد ظهور شريعة قليلة من بلاد العرب ملكت أكثر بلاد الدنيا في ظرف مدة يسيرة وفي اقل من مائة سنة صارت دولة أكبر من دولة الاسكندر واظهرت تمدناً بهي من تمدن اوروبا في عهد اغسطوس أكبر القياصرة ولو نظر لحال العلم قبل الاسلام عند اليونانيين والرومانيين ونحوهم من الهند والصينيين لوجد انه كشجر بلا ثمر او سحاب بلا مطر فظهر علماء الاسلام ظهر اصله واتضح وشاع نفعه ورجح وبعد ان كانت الخلق غارقة في بحار الاوهام لا يتخلون العلوم الا كاضغات احلام ظهر لهم بظهور هذا الدين

علوم مؤسسة على قواعد حقة واتضح الدليل وتبدد شمل الابطال  
وامتدت اغصان التمدن من ارض الاندلس الى نهر الكنج ببلاد  
الهند وعمت فوائده جميع ارض الاسلام فصكنت الثروة والقوة  
للمسلمين لتشبههم بفوائده وتمسكهم باصول قواعده وما من احد من  
ذوي الاطلاع الا ويعلم ذلك ولا ينكره وبالجمله فينبغي لجميع  
علماء اوروبا ان يدعوا للعرب بالتقدم في الفضل والعلم وان  
كان لم يسمع للعرب اسم ولا ذكر الا من وقت ظهور الاسلام  
فما يعزى للعرب يعزى الى اهل الاسلام فحيث يكون الاسلام  
هو المنبع للتمدن والعلم اذ لم يظهر العلم والتمدن بالبلاد الاوروبية  
الا بعد ظهور الاسلام بنحو الف سنة وحيث كان الامر كذلك  
فحقها ان لا ينسب الا لاهل هذه الملة الا انه كما يكون للتقدم  
اسباب فله موانع وذلك لانا لو شبهنا اهل الملة بالعائلة كان  
رئيس الملة كرئيس العائلة وكما ان رفاة العائلة وسعادتها تابعة  
لحسن ادارة رئيسها كذلك الملة وكما ان تربية الاطفال موكولة الى  
راي والديهم فكذلك اتساع دائرة الملة موكول الى حسن راي من  
يسوسها ويدبر امرها وكما تحصل الشورى بين الوالدين في امور  
العائلة والذرية ويكون تقدمها وعدمه تابعا لما ينحط عليه رأيهم  
وانه يلزم ان يكون لمدير امر العائلة علم تام بما يلزمها وما يلزم لها  
حالا واستقبالا وان يكون ذا بصيرة بمجوات الامور وتقلبات  
الدهور لبني قوانينهم على قواعد متينة واصول ثابتة مكنة ويسلك

بهم في امر المعيشة الطرق الموصلة الى المطلوب والراحة في الدنيا  
 على الوجه المرغوب فان كان الامر بخلاف ذلك او كانوا على  
 جهل ما يلزم لذريتهم في حال حياتهم وبعد مماتهم او كانوا مختلفين  
 في المعرفة اختلفت آراؤهم واختلفت افكارهم واضلحل حال العائلة  
 لعدم اتفاقهم على ما يصلح لحالم وعن قريب يحيط بهم الفقر ويحل  
 بساحتهم جيش الذل والقهر ويدخلهم في قيد الاسر وسجن الذل  
 طول الدهر ما لم يقبض الله لها من بعض افرادها من يزيل شينها  
 ويزين شأنها فكذلك الملة تابعة في سلوكها طريقة رؤسائها  
 وملوكها وما انحط عليه راي جمهور رجالها فان كانت رجال  
 الجمهور من ذوي المعارف الذين مارسوا الامور واطلعوا على  
 اسباب التلبات التي حصلت في سابق الدهور قد بيضت  
 الحوادث سواد ملتهم واخلفت التجارب لباس جدتهم وارضعهم  
 الدهر من وقائع الايام اخلاف اخلاق ذريته وعلموا بكثرة الممارسة  
 تصاريف اقداره واقضيته واحاطوا بمجاذب اهل ملتهم وحوادث  
 الملل المجاورة لهم والبعيدة عنهم عالمين باسباب السعادة فيجتنون  
 الرعية عليها واسباب الشقاوة فينبهونها عنها فما وجدوا فيه نفعا  
 لاوطانهم جلبوه او ضررا اجتهدوا في ازالته واجتنبوه كان ذلك  
 سببا في ازدياد البركة وحصنا من الوقوع في مهاوي الملكة فحيث  
 يصفو بهم الزمان ويعيش في ظل عدلهم كل انسان وان كانوا من  
 ذلك بالعكس وقعت الرعية في العكس بلا لبس فقد قبل عدل

السلطان انفع من خصب الزمان

وكتب بعض عمال عمر بن عبدالعزيز يشكو اليه من خراب  
مدينته ويساله مالا يرمها به فكتب اليه عمر قد فهمت كتابك  
فاذا قرأت كتابي فحصى مدينتك بالعدل ونقّ طرقها من الظلم  
فانه مرمتها والسلام قال

ولم ار مثل العدل للملك رافعا

ولم ار مثل الجور للملك واضعا

وفي رواية ان عامله كتب اليه هدم الدمص وعدم النص  
وان ربيضا رايض ومرعى رياضها بارض وانها مخاجة الى عمارة  
وزراعة وحرثة ومناعة

فكتب اليه عمر ما ذكر ( والدمص بكسر فسكون كل صف  
من حجارة الحائط الا الاسفل فاسمه رهص بزنته والعرق بفتحين  
يعمها والنص بكسر فسكون اثار التبت بعد رعيه والريض  
بفتحين المراد به الماشية ورايض ضعيف هزيل من قلة المرعى وهي  
المراد بلفظ بارض )

ومن طالع توارىخ المتقدمين وجد ان جميع الملل في سيرها  
سائرة بسير مدبر امورها ان خيرا فخير وان شرافشرو من تأمل مصر  
وما كانت عليه قبل استيلاء المرحوم الحاج محمد علي باشا ونظر  
الى حالها الآن وجد ان لا نسبة بين الحالين ولا مناسبة بين  
الزمنين ففي الازمان السابقة كان بندر وجود الافرنج في بلادنا

وإما الآن فلا أقل من وجود مائة ألف نفس وكذلك كان لا  
 يوجد واحد من أبناء جنسنا يتكلم بلغة اجنبية وإما الآن فيوجد  
 الوف يتكلمون بلغات متعددة ولم يعلم قبله ان احدا المصريين سافر  
 الى بلاد اوروبا وإما في زمنه فما من سنة من السنين الا والمصريون  
 في هاب وإياب من مصر الى اوروبا ومن اوروبا الى مصر ما  
 ذاك الا لتعلم العلوم النافعة والصنائع المتنوعة وذلك خلاف  
 المكاتب الصغيرة التي تراها فوق الاسبله فلم تكن حالتها فيما تقدم  
 من الزمان كحالتها التي هي عليها الآن حيث ضبط ريعها وحفظت  
 من الضياع رباعها وضياعها وتنوعت فيها فنون التعليم زيادة عما  
 كانت عليه في الزمن القديم حتى صارت ملحقة بالمدارس الميرية  
 في الترتيب والمقاصد الخيرية فضلاً عما حصل في هذا العهد من  
 تقدم الزراعة واتساع طرق الفلاحة وازدياد النباتات وتسهيل  
 طرق الري في جميع الجهات وكذلك الفنون تيسرت لطلابها  
 اسبابها والصنائع كثرت بين المصريين اربابها وكذا العلماء والاطباء  
 والحكماء الالباء الذين عم نفعهم البلاد واشتهرت مزايهم بين جميع  
 العباد فيسببهم ارتفعت العاهات وامن القطر من جميع الآفات  
 وبما رتبته من القوانين الصحية ودبره من المواد الطبية تخلص الناس  
 من الامراض والعلل كالجذام والزهري (اي المبارك) والبرص  
 والجرب والجذري وكذلك نشأ من أبناء الوطن مهندسون اعمالهم  
 تغني اللبيب عن ذكر صفاتهم وهكذا في كل صنعة من الصنائع

كالحدادة والبرادة والتجارة حتى صار القطر بهم غنياً عن سواهم  
هذا الى من برع من رؤسا في العلوم العسكرية وعلماء مدرسين  
في الفنون الحربية كل ذلك وغيره اكثر منه لم اذكره للاختصار  
ما وجد الا بوجود هذه العائلة العلوية احسن الله سعيها وادام  
سعدتها وبعد ان كان امر الملة بيد الاغراب المسلمين عليها  
بالسلب والنهب وانواع العذاب صار الان موكولاً الى رأي  
ابنائها فلم يمن الله على هذه البقعة بهذه العائلة ما كان لما تراه  
اثر بل كان اهل هذه البقعة كغيرهم من جاورهم كالبربر وعرب  
الشام والحجاز باقين على ما كان عليه اباؤهم واجدادهم من العادات  
الخالية عن المزية والمعلومات التي تعزى الى الجاهلية فمن ذلك  
ثبت ان كل ملة تسير خلف مديريها وجمهور رجالها ومدبريها ومعا  
وصلت اليه الديار المصرية من التقدم لا يخفى ان تربية الملل امر  
صعب يلزم لها زمن طويل لان هناك عوائد قديمة واخلاقاً راسخة  
في الازهان ذميمة وافكار افاسدة واعتقادات كاسدة فلا نزول بمجرد  
بعض التجديدات بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم في السن  
الى المات بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان فلا  
تنعدم بالكلية الا بعد انقراض جميع هؤلاء او اكثرهم فعلى حكم العقل  
يلزم التربص الى اتقضاء ثلاثة اجيال اعني مائة سنة او مائة  
وخمسين سنة وسبب ذلك ان الافكار التي لم ترد في كتب المؤلفين  
ولا نص عليها احد من السالفين وكذلك المشاهدات والاستكشافات



الواردة في كتب السياحات التي لم يشتهر للعلماء فيها كلام ولم يتقدم لاحد بها المام ربما تقابل بالرد او المعارضة وعدم التصديق والمناقضة فحينئذ يجب القاءها تدريجاً انما من سعادة الملل قد يظهر لها في بعض الاحيان من يخصه الله بافكار عليّة ومعلومات ربانية تفوق معلومات البشر فيغير حال الملة في زمن اقل من ذلك بما يدخله من الترتيبات المستحسنة التي تجذب القلوب الى تلك التراتب والتجديدات من الفوائد العامة فتترك اوهامها الفاسدة وتتنازل عن افكارها الكاسدة وتألف هذه التجديدات وفي الزمن السير بتغير الاحوال والطباع والعوائد والاخلاق والاضاع كما هي حالة مصر الآن فان من رآها من منذ عشرين سنة لو رآها الان لا يجد بها ما نظره شيئاً ويرى انهما انقلبت وصارت كبقعة من اوروبا مع ان ما جاورها من الاقطار لم يتغير عما كان عليه فهل لذلك سبب غير ادارة وندبير صاحب الوقت ومشاورته لجمهور رجاله

فقال الانكليزي حاشا ان يكون في فهمي او ير بوهي نسبة تهقر العرب الى الدين المحمدي او انسب اليه المنع من تقدم العلوم النافعة ولو كان كثير من مشاهير بلادنا وعلماءنا الف كتباً كثيرة في معارضة الديانة المحمدية وانت تعلم ان طبعي لا يميل الى البحث في الاصول الدينية ولا الى المجادلة في الاحكام الشرعية فان ذلك ليس من شأني والذي يجري بيننا من المباحث انما

علي سبيل الاستفادة والافادة شأن المتصاحبين في الاسفار والمتقاربين  
 في الافكار ان ياتي كل منها لصاحبه من غامض افكاره بما يسليه  
 من العبارات وان يختار منها ما فيه فائدة مطلقاً سواء كانت من  
 مشاهدات الابصار او من مبتكرات الافكار حتى تؤكد بينهم حبال  
 المودة والوصفا وتمتد اليهم اسباب الالة والوفاء متجايفين المجدل  
 متحامين موجبات الملل لان المقصود الموانسة ولا أكد لذلك من  
 المفاوضة في العلم والمعلومات وازالة كل ما عند صاحبه من  
 الشبهات من غير ضرر ولا اضرار ولا فخر ولا افتخار وحيث قضى  
 الله سبحانه بين الخلق بالاختلاف فلا راد لما قضاه ولا خلاف  
 فالاولى عدم الخوض في الاصول الدينية والبحث في القواعد المالية  
 بل نعدل الى علوم سواها وتقتصر عليها ولا نتعدها ما يطيب  
 الخاطر ويسر السرائر ويمكن الحب من الضمائر فاقول ولو ان  
 بعض مؤلفي النصارى اطال الكلام في معارضة دين الاسلام  
 لكن كثير منهم ممن صنف الزم نفسه نصر الحق وانصف حيث  
 قرر وافصح وبرهن على حقيقة الملة المحمدية وشهرتها في العلم على من  
 عداها من الموسوية والعيسوية وقد ترجمت من احد المؤلفات  
 الافرنجية نبذة في اثبات تقدم العرب ان اذنت لي قراتها عليك

فقال الشيخ لا بأس

فاخرج الخواجا كراسة قراء فيها ما نصه

## المحاضرة العشرون العرب

انه فضلا عما استفادته العرب بالترجمة من اللغات المختلفة فلم الفضل ايضا في استكشافات كثيرة امتدت بها حدود العلم الى الغاية واتسعت بها دائرة التقدم بلا نهاية فكانت العرب هي المقدمة للعلوم في الزمن الحالي والاساس لتقدمها في الزمن الحالي فلولا ان حنينا ترجم علوم الفلك من اللغة اليونانية الى اللغة العربية في عهد حفيد (تيمورلنك) ما أمكن (كبلير) الفلكي ان يوسع قواعد هذا العلم بما اضافه اليه بالبحث والاستنباط من الطرق التي كانت مرسومة من قبل عند علماء الفلك من العرب في كتب شتى ومؤلفات لا تحصى اغلبها الى الان موجود بمخزائن الكتب باوروبا ومغنيا لم يطلع عليه احد ولم ينكر احد ان العرب لا غيرهم هم الذين حققوا حركة اوج الشمس وان مدارها ليس دائرة منتظمة وانهم ضبطوا مدة السنة

وكذلك يعزى للعرب اثبات النقص التدريجي الذي يتصف به ميل منطقة البروج واختراع المزاويل والربع والساعة الفلكية ذات الرقاص وغير ذلك مما يطول ايراده وهم الذين حرروا كتاب بظلموس الفلكي المعروف بالمجسطي وقياس الدرجة من خط

نصف النهار والنهم تنسب الازياج الفلكية والجداول الجغرافية  
 واختراع خرط للمساعدة على الملاحة وجوب البحار وقد وجدت  
 خريطة منها في سنة ١٤٧١ ميلادية عند المعلم ( قان ) احد المغاربة  
 الذي كان في ارض ( الجوزران ) ببلاد الهند وقد اخذه معه  
 وسكود وجاما معرفا بحريا الى مدينة ميلغده بجزيرة زنجبار وكان  
 عند اليورق البرتغالي لوحة اي خريطة اخرى من رسم شخص  
 من ابناء العرب يقال له عمر كان يهتدي بها في سفره في بحر عمان  
 والخليج الفارسي

ويعزى اليهم ايضا من العلوم الرياضية اتصال الخطوط  
 الماسة في حساب المثلثات واستعواض الجيوب بالاوثار وتطبيق  
 الجبر على الهندسة وحل المعادلات التكعيبية

ومن مآثرهم الجليلة ومخترعاتهم الجميلة علم الكيمياء الذي  
 كانت تجهله جميع الامم قبل الاسلام وتركيب حمض الكبريت  
 وملح البارود والماء الملكي واستخراج الزئبق وتجهيزه وتجهيز الالكول  
 واستنقاغ النيد وغير ذلك

وزيادتهم في علم النبات نحو الالفين على ما في كتاب  
 الاعشاب تأليف ( دسقورد ) واستكشاف التناخ بين النباتات  
 حتى يتولد بين النباتين نبات ثالث مغاير لهما وقد يكون في الشجرة  
 الواحدة صنفان وانشا بساتين مخصوصة لتنمية النبات والاعشاب  
 وتكثيرها

وفي علم الطب المعالجة بالحزام واستعمال الواوند والتمر هندي  
والمن وورق السنامكي والكافور في التداوي وتفضيل السكر على  
العسل في تركيب اشربة الجلبة

. وإنشأ أجزاء خانات ومدارس لعلم الطب ومجوارها شفاخانات  
لعلاج المرضى ومدرجات لتعليم التلامذة علم التشريح والجراحة  
بالمشاهدة وتأليف كتب ضخمة ورسائل حجة فيما يتعلق بأنواع  
الأمراض الالتهابية والحميات والسموم وغير ذلك من الدآت  
وفي أنواع الحيوانات مؤلفات كثيرة منها حياة الحيوان للمجاطظ  
وهو يشبه مؤلف العلامة الفرنسية بوفون وإنشأ بساتين لتربية  
اصناف الحيوانات وتكثيرها

وكذلك لم في علم الزراعة مؤلفات كثيرة ولم يعزى  
استعمال تقاوي المزروعات اثر بعضها كل زمن بحسبه واختراع  
السواقي ذوات الطوانس والقواديس وبحسن تدبيرهم وقوة اجتهادهم  
حصل للزراعة نجاح عظيم حتى وفد اليهم من البلاد المجاورة لم  
والبعيدة عنهم خلق كثير للاستزاق والاقامة فزاد بالوافدين  
عمارهم وغناهم شروهم وهم الذين علموا اهل اوروبا زراعة الارز  
والقطن وشجر التوت الابيض وقصب السكر وشجر النخل والفسق  
وورد يابونيا وزهر الكامي الاحمر والابيض ونبات الهيلون وغير  
ذلك مما لا حصر له

ولم في علم السياسة اختراع الاوراق للمعاملة بها بدل النقود

ويعزى للعرب من الصنائع اختراع طواحين الهواء والآلات  
المتخذة من الزجاج وبيت الابرّة وعمل الورق ونسج الحرير وطرق  
الحديد وسقيه

وما يدل على شهرة العرب وتقدمهم في الصنائع العمارية التي لم  
يسبقهم اليها احد فان الاوروباويين لم يتعلموا الصنعة القبطية  
المشهورة في الابنية الا منهم

وما يشهد بفخرهم ايضاً وعلو قدرهم على من عداهم في هذا الفن  
مساجد الشام وبلاد الاندلس فمنها تعلمت اوروبا عمل القباب  
العالية والاعمدة المرتفعة وتناسب اجزاء ذلك واحكامه مع الرواق  
واللطف والتفنن في الاشكال والهيئات وامتزاج الخطوط المستقيمة  
بالخطوط المنحنية في صور مختلفة خصوصاً بما دخلها من الازهار  
في تشويق الخطوط

ولم يعزى الخط السني وتخليه المحيطان بالقشاني وغيره من  
انواع الزينة والزخرفة ولم تنكر الافرنج ان دخول التفتات البنائية  
العربية في بنائهم كالنقش والتمويه ازال ما كان فيها من العمارية  
الرومانية من الثقل والتشويه فلو قارنا مباني الافرنج الموجودة  
الان بمبانيهم التي هي نتيجة تقدماتهم ومعلوماتهم بالمباني العربية القديمة  
الموجودة الى الان لوجدنا مباني العرب في سالف الازمان احسن  
وانقن

ولما علم العرب ان التجارة من جملة اسباب الرزق بل عليها

مدار معيشة أكثر الخلق اعتنوا بها كما اعتنوا بغيرها ففتحوا الطرق ونظموها وجعلوا لها قانوناً لحفظها وحفظ المارين بها والمترددين وجعلوا بها فساقى للمياه وخانات لقيولة المارين ومبيت المسافرين ومن ذلك سهل التردد بين الهند وبلاد الصين وبين افريقيا وجزيرة صقلية وبلاد الاندلس والمغرب وحصل الامن ومبادلة مصنوعات البلاد ببعضها فاتفع كل بلد بما عند الآخر فلم يزل البيع والشرا متصلاً بين اهالي جميع اقسام الدنيا القديمة خصوصاً في الارز والسكر والقطن والزعفران والعتبر والعاج والتبر الزنجباري وبلور الصخور واسلحة دمشق وطليلطة وجلود النور وطقوم خيل الحمل والمشال والسروج والجلود السخنيانية القرطبية والجوخ المصنوع في كورة بجميع الوانه والجلود والاقمشة والسجادات الفارسية والشامية واقمشة الحرير واصناف الكشمير ومنسوجات الموصل والعقاقير الطبية واذا تتبعنا احوال متقدمي الاسلام ومشاهير امرائه والحكام لم نجد احداً منهم الا وله حرفة يتقوت منها او صنعة لا يستغني في معيشته عنها علمية كانت او عملية سواء في ذلك الكبير والصغير والمامور منهم والامير فاصحاب العلوم توضح الطرائق وتزيل العوائق وارباب العمل يتبعون ما رسموه وبينوه ويعملون على مقتضى ما استحسنوه وحيث كان القرآن الشريف حاثاً على العمل والسعي في طلب الرزق حتى كاد يعد فرضاً خصوصاً وقد مدح التجارة والصناعة لم يبق عند العرب



اوهام بالنسبة لا تضاع الصنعة وشرفها فلم يكن احد منهم يرى انه  
 اشرف من غيره ولا انه قروي وذاك مدني ولا انه فقير وذاك غني  
 بل كانوا جميعا لا يرون الفضل الا لمن اتبع سبيل الرشاد  
 فكانت الصنائع تشرف بهم لا انهم يشرفون بها بخلاف التجاري  
 في البلاد الاوروبائية والديار النصرانية فشرف الرجل عندهم  
 بقدر شرف صنعته فلذلك كانت رجال الدولة الاسلامية وقادة  
 الجيوش وروساء الاقلام لا يبالون باسماء صناعتهم حيث تيسر  
 لهم بها في الدنيا امر معيشتهم كالخباطة والعطارة والجمهورية فكان  
 ابوبكر بزازا وعمر رضي الله عنه دلالا وعثمان رضي الله عنه تاجرا  
 وكان علي اصغر سندا ساعيا في خدمة ابن عمه صلى الله عليه وسلم  
 ولما كبر كان يجلب الرقود ناساغة احيانا فعلى مقتضى الشريعة  
 الحمدية يلزم كل انسان اميرا كان او مأمورا ان يقتات من عمل  
 يده وهكذا كان كثير من الخلفاء والصالحين والعلماء العاملين  
 ففي سنة ١٧٥٤ ميلادية انتهى في عهد قريب منا كان السلطان  
 محمود الاول جوهريا وكان يصرف ثمن مصنوعاته في ماكولاته  
 وما يلزم له وكما اكثرنا البحث في الكتب وتبعنا آثار العرب  
 وجدنا لهم من القمدن الحسن وحسن الاختراع ما يبهر العقول  
 ويتعسر على شبرهم اليد الوصول فمن ذلك استعمال خيل  
 البريد لسرعة الانتقال متى شأوا بثغور بلاد الاندلس من  
 الحدود الفاصلة بلادهم من الهندستان والصين واعظم من ذلك

البوسطة لتوصل المكاتبات الى البقاع الاسلامية كافة وكانوا يجعلون على الطرق جنوداً منتظمين لحفظ المارة والتجارة من امتداد يد اهل العدوان من المفسدين والعربان وعلى السواحل فنارات تهتدي بها السفن في سيرها في البحار ونحو ذلك من محاسن الآثار

وبالجملة فلم تر العرب شيئاً الا عملته ولا فنا نافعاً الا تعلمته فمن ذلك الاشارات الرمزية المستعملة الآن لوصول الاخبار السرية وكانت الدروب والطرق داخلاً وخارجاً لا تزال مطروقة بام مختلفة في تحصيل الضروريات المعاشية والاسباب التجارية ونحو ذلك من المصالح الدنيوية والمقاصد الدينية كالنحو الى بيت الله الحرام والسفر لزيارة الصائحين وسلة الارحام وكان بكل مدينة دفاتر لحسابها وقضاياها وديوان ينسبط امور رعاياها وعسس يطوف بالليل الى الاشراق وملاحظون بالنهار لما عساه يحصل بالاسواق ومختسبون لضبط الميزان والمكيال ومواخذة من طفف بقدر ما يروونه من انواع النكال

واما اشارة الحكم في جهات المملكة فلم يكن الفائم بها واحداً بل كان السلطان يامر في كل جهة بانتخاب مجلس من اهلها فيقومون بتدبير ما يروونه من المصلحة ومع مصلحتها في مراكز معينة فكان يرتب لها مأمورون يرون بالاقاليم ويلاحظون ما بها من المزارع وغيرها وينبهون على ارباب الخدم والوظائف

باداء الواجبات في اوقاتها وتحصيل اموالها وتجهيز ما فيه مصلحة  
 لاقواتها وكانت حكام الاقاليم ملزمة في كل شهر بتأدية قوائم  
 ما جرياتها وتقارير قضايا جهاتها ومع هذا كله فكان السلطان يقف  
 وقوفًا تامًا على جميع ذلك ويامر بما يراه موافقًا للحال من نجاز  
 الاعمال واصطلاح الاحوال وبهذه المثابة كانت جميع مصالح  
 المملكة والرعية مدبرة تدبيرًا حسنًا وكان من ضاقت عليه  
 الاحوال واحاطت به جيوش الاهوال اذا دخل في حكم اهل  
 الاسلام وانتقاد لما لهم وعليهم من الاحكام غمره السرور وانجلي ما كان  
 به من المضائق والشور كما حصل لاهل صقلية والانديلس حين  
 تخلصوا من يد اليونان ودخلوا في حكم المسلمين فحصل لهم وبهم  
 الراحة وقاموا جميعًا بتحسين الصناعة والفلاحة وجلبوا لهم مستنبتات  
 لم تكن عندهم من قبل كبذر القطن والشمام وكثير من انواع  
 الرياحين كالفل والمام فاستنبتوها من ذلك الوقت وكان من  
 جملتها قصب السكر وشجر الفستق ولسان العصفور وبهم تفننت  
 العرب في منسوجات الحرير وعرفوا كيفية استخراج المعادن  
 والعقاقير واستعمال مجاري المياه من انابيب معدنية حتى وصلوا  
 في اقرب وقت الى اعلى درجة في العز والرفاهية

وكان بمدينة طليطلة اذ ذاك على ما قاله العلامة (دوروي)  
 الفرنساوي مائتا الف نفس وباشبليه ثلاثمائة الف وكان محيط  
 احدى المدن ثمانية فراسخ وبها ستون الف قصر وستمائة مسجد

وخمسون قسلة للمساكين وثمانون مدرسة وتسعمائة حمام غير التي في البيوت وكان فيها من النفوس مليون (اعني الف الف) وستة الاف نول لتسج الحرير خاصة ومن يراها الآن لا يجد بها شيئاً مما كان فلا يعلم اي داهية دهرتها واي مصيبة اعترتها حتى اختلف امرها وتغير حالها ولم يبق بها من الناس الا نحو ستة وخمسين الفا

وكانت تهرع طلبة المعارف من جميع اقسام الدنيا لتعلم العلم في المدارس الاسلامية وقد اسلم كثير منهم وكانت بلاد الاسلام تتألق في المباني بانواع الزخرفة خصوصاً بلاد الاندلس

وكان في كل من مدينة سبتة والقيروان والجزائر وتونس وطرابلس مدارس عامة وكتبانات وكانت ثغر سيراك وعدن وجدة والسويس مرسى متاجر جسيمة واردة اليها وذاهة منها وكان سوق مدينة فيول موعداً لاجتماع الناس من جميع جهات اسيا واما الرجال الذين نبغوا في رياض الفنون العقلية والعلوم الادبية فلا سبيل الى حصرهم ولا طريق للوصول الى عددهم وذكرهم فان ذكر مشاهير كل فن يحتاج الى مجلد

وخلاصة القول في هذا المقام ان علماء العرب واهل الاسلام لهم في كل فن اليد الطولى وكل فضل هم احق به من غيرهم واولى لاسيما الخلفاء العباسية ومن قبلهم بعض خلفاء الاموية

فكان ابو جعفر المنصور العباسي مقدماً في كل فن خصوصاً في علم النجوم والفلسفة محباً لاهلها ولما افضت الخلافة الى السابع من الخلفاء وهو عبد الله المأمون بن الرشيد تم ما بدأ به جده واقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه فدخل ملوكاً وسألم ما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منها بما حضرهم من كتب افلاطون وارسطو وبقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم واحضر لهم مهرة المترجمين ثم كلف الناس قرائتها ورغبهم في تعلمها فنفق به للعلم اسواق وثمرت دولة المحكمة في عصره عن ساق وكان الباعث له على ذلك فيما يقال انه رأى في منامه رجلاً حسن الشائل فقال له من انت فقال انا ارسطاليس فسأله عن الحسن فقال ما حسنه العقل فقال ثم ماذا فقال ما حسنه الشرع فكانت هذه الرؤيا من اقوى الاسباب الداعية لاجراج الكتب من هذا الفن الى اللغة العربية وكان بينه وبين ملك الروم مراسلات فكتب اليه يسأله انفاذ ما يختار الكتب القديمة المخزونة بالروم فاجابه الى ذلك بعد امتناع فانفذ المأمون جماعة منهم الحجاج بن مطر والبطريق وغيرها فسلمهم ملك الروم بيت المحكمة فاخذوا منها ما اخثاروا ورجعوا به الى المأمون فامرهم بنقله الى لغة العرب فنقلوه وكان ممن انفذ الى الروم لهذا الخصوص يوحنا بن ماسويه وكان محمد واحمد والحسن بنو شاكر المنجم من غني باخراج الكتب ومن نقل العلوم المحكمة

الى اللغة العربية اصطفان ثقل لخالد بن يزيد بن معاوية وكذلك  
البطريق ثقل للمنصور ايضاً شيئاً بامرہ وابن يحيى الحجاج هو  
الذي ثقل كتاب المجسطى واقليدس للمامون وكان في ايام  
البرامكة ابن ناعمة عبد المسيح الحمصي وسلام الابرش وهلال  
بن ابي هلال الحمصي وابن اوى وابن رابطة وعيسى بن نوح  
وحنين وكان امام وقته في صنعة الطب وكان يعرف لغة  
اليونانيين معرفة تامة وهو الذي عرب كتاب اقليدس ونقله من  
اللغة اليونانية الى لغة العرب ثم جاء ثابت بن قرة بعده فتجسسه  
وهذبه وكذلك كتاب المجسطى وكان حنين المذكور راشد اهل  
عصره اعتناء بتعريبها واسحاق ولد حنين وكان اوجد عصره في  
علم الطب وكان يلحق بابيه في الثقل ومعرفة اللغات وتعريب  
اللغة اليونانية وخدم من الخلفاء والروساء من خدمهم ابوه ثم  
انقطع الى القاسم بن عبد الله وزير الامام المعتضد بالله واخص  
به حتى ان الوزير المذكور كان يطلعه على اسراره ويفضي اليه  
بما يكتمه عن غيره

وكان هو وابوه في القرن الثالث من الهجرة  
وكان يحيى بن عدي وابن المتفيع ممن ثقل من الفارسية الى  
العربية وكذلك الحسن بن سهل وغيرهم  
وكان الوزير ابو علي الشهير بابن سينا قد برع في علم الطب  
فذكر عند الامير نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان وكان

قد مرض فاحضره فعالج به حتى برىء واتصل به وقرب منه ودخل الى دار كتبه وكانت عديمة المثل فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها ما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته فظفر ابو علي فيها بكتب من علم الاوائل وغيرها فانتخب فوائدها واطلع على اكثر علومها واتفق بعد ذلك اختراق تلك الخزانة فتفرد ابو علي بما حصاه من علومها فاتهم بانه خرّقها لينفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه الى نفسه ولم يستكمل ثلثي عشرة سنة من عمره الاّ وقد فرغ من تحصيل العلوم باسرها وكان منشأه بخارى ولما اضطربت امور الدولة السامانية خرج ابو علي منها الى كركانج وهي قصبة خوارزم واختلف الى خوارزم شاه علي بن مامون وما زال تثقل به الاحوال من بلد الى بلد الى ان استوزر لشمس الدولة وكان في اوائل القرن الخامس من الهجرة واليه تنسب القصيدة المشهورة التي وصف فيها النفس ولولها

هبطت اليك من المحل الارفع

ورقاً ذات تعزز وتمنع

محبوبة عن كل مقلة عارف

وهي التي سمرت ولم تبترق

وصلت على كره اليك وربما

كرهت فراقك وهي ذات تفجع

وكان في القرن الثالث والرابع من الهجرة ابو نصر الفارابي



صاحب التضائيف في المنطق والموسيقى اخذ علم الفلسفة عن  
يوحنا في ايام المقتدر وشرح غوامضها وكشف اسرارها وقرب  
تناولها وجمع ما يحتاج اليه منها

حكى انه لما ورد على سيف الدولة بن حمدان وكان مجلسه  
مجمع الفضلاء في جميع المعارف فأدخل عليه وهو يزى الاتراك  
وكان ذلك زيه دائماً فوقف فقال له سيف اقعد فقال حيث  
انا امر حيث انت فقال حيث انت فتخطى رقاب الناس حتى  
انتهى الى مسند سيف الدولة فزاحه فيه حتى اخرجه عنه وكان  
على رأس سيف الدولة مالك وله معهم لسان خاص يسارهم به  
قل ان يعرفه احد فقال لهم بهذا اللسان ان هذا الشيخ قد اساء  
الادب واني سائله عن اشياء ان لم يوف بها فاخرقوا به فقال له  
ابو نصر بذلك اللسان ايها الامير اصبر فان الامور بعواقبها فعجب  
سيف الدولة منه فقال له اتحسن هذا اللسان فقال نعم احسن  
اكثر من سبعين لساناً فاعظم عنده ثم اخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين  
في المجلس في كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى  
صبت الكل وبقي يتكلم وحده ثم اخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم  
سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في ان تاكل فقال لا  
فقال فهل تشرب فقال لا فقال فهل تسمع فقال نعم فامر سيف  
الدولة باحضار المغنين فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بانواع  
الملاهي فلم يحرك احد منهم آله الا وعابه ابو نصر وقال له

اخطأت فقال له سيف الدولة وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً  
فقال نعم ثم اخرج من وسطه خريطة ففتحها فاخرج منها عيداناً  
وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها  
وركبها تركيباً اخر ثم ضرب بها فبكى كل من كان في المجلس ثم  
فكها وغير تركيبها وضرب بها ضرباً اخر فنام كل من في المجلس  
حتى البواب فتركهم نياماً وخرج ويقال انه اول من وضع الآلة  
المسماة بالقانون وكان في القرن الثالث من الهجرة ابو الحسن علي  
بن يحيى بن المنصور المنجم النديم وابنه يحيى ابن النديم

وكان في القرن الخامس ابو علي يحيى بن عيسى بن جزله  
الطبيب الماهر وكان نصرانياً ثم اسلم وصنف رسالة في الرد على  
اليهود والنصارى وبين معائب مذاهبهم وذكر فيها ما قرأه في  
التوراة والانجيل في شان ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وانه  
مبعوث وان اليهود والنصارى اخفوا ذلك ولم يظهروه وما زالت  
العلوم الحكمية تداول من عصر الى عصر ومن قطر من بلاد  
العرب الى قطر حتى وجد بمدينة القاهرة الكبير المعظم والفلكي  
المفخم العلامة بن يونس مخترع البندول ( اي رقاص الساعة )  
والربع

وكان في القرن الحادي عشر جلال الدين ملك شاه احد  
الملوك السلجوقية الذي صارت الناس تؤرخ بعصره فيقولون كذا  
كذا في سنة كذا من التاريخ الجلالى

وكان في القرن الثاني عشر من الميلاد بمدينة قرطبة فتح بن  
ماجية وكان يصنع الاصطربلاب ويعلم العمل به ويقال انه لم يكن  
اطلع عليه وكان يرسم على كرة فيينا هو يسير يوماً على فرس وبين  
يديه كرة اتفق ان سقطت وداس عليها الفرس فانبسطت والعجبت به  
الصورة التي صارت الكرة اليها فاخذ في عمل الاصطربلاب على  
وفق تلك الصورة فاذا صح هذا كان من مخترعاته اذ لم يكن رأى  
قبل ذلك من عمل غيره

والبيروني وكان مشيراً وصدقاً للسلطان محمود الغزنوي  
وكان في القرن الثالث عشر من الميلاد بالموصل العالم  
الكبير والعلامة الشهير بن رشد شارح مؤلفات ارسطاليس  
وكان باصبهان ابو حنيفة مؤلف الازياج والتواقيع الفلكية  
وكان بمراكش ابو الحسن الجغرافي وكذلك ناصر الدين الطوسي  
مؤلف الازياج والتواقيع الجغرافية وكذا الغزالي احد شعراء  
الترك

وكان في القرن الرابع عشر تيمورلنك الذي انشاء ديواناً  
لمذاكرة العلوم واحيائها في مدينة سمرقند ثم ابو الفداء المؤرخ  
صاحب حماه

وكان في القرن الخامس عشر شاه رخ نجل تيمورلنك وهو  
الذي نقل العلوم الى بلاد هراه وكان بالقاهرة العلامة المقرئ  
الذي لم يسمع بمثله الزمان ومن مؤلفاته تاريخ مصر وذكر احوال

من تسلطن بها من الممالك وغيرهم المسمى كتاب المخطط وله  
قاموس تاريخي وكذا أولوغ بيك التاريخي حفيد تيمورلنك ومن  
اثره انشاء رصدخانه في مدينة سمرقند

وكان في القرن السادس عشر بمصر جلال الدين السيوطي  
ومن اثاره تاريخ مصر المسمى حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة  
وكذا خورمير الفارسي ومن اثاره خلاصة التاريخ وهو الذي عثرنا  
فيه على استعمال اهل الاسلام الورق بدلاً عن النقود في المعاملات  
وكان ذلك في القرن الخامس عشر من الميلاد بمدينة طهران

وكان في القرن السادس عشر ايضاً اظهر العلامة كاتب  
جلبي لرسالة الجغرافية وهي كتاب عجيب في بابيه حتى ان كثيراً  
من الناس ينكر كونه له اذ لم يسبق له مثال

وما ذكرناه في سرد اسماء بعض المشاهير بالنسبة لما ترك اقل  
من القليل الا انه يتوصل به من اطلع عليه الى معرفة ما كان  
للمسلمين من المصنفات العلية والعلوم الحكمية حيث لا مانع لهم من  
معرفة ما فيه فائدة تعود على الوطن فقد غاصوا في بحار العلوم  
واستخرجوا بقوة ادراكهم درره واستكشفوا غرره وهذا كله في علماء  
فرع من العلوم العقلية فما بالك بعلماء العلوم الادبية والشرعية  
ومنه يعلم ان سائر الامم الذين كانوا في الاعصر الخالية انما شغلوا  
غليل ظمائمهم بما اغترفوه من ساحل بحار معلومات اهل الاسلام  
اذ ليس لها اصل تستمد منه سوى الاعتراف من بحر معارفهم الى

هذا الزمان وكذلك شعراؤهم وعلماؤهم ومؤلفوهم لم يهتدوا الى ما اهتدوا اليه الا بمؤلفات اهل الاسلام وكذلك قواميسهم المتضمنة اخبار البلدان ومشاهير الرجال وحوادث الزمان انما تعلموها مما وقع في ايديهم من كتب العرب فخذوا حذوها فقد دون اهل الاسلام في علم التاريخ فضلا عن غيره تدوينا ممتازا به على غيرهم بقوة فكرهم وحلاوة تعبيرهم والاهتداء لطرق استنتاجهم وهذه المزايا من البرهان على تعودهم على ملاحظة الكائنات الطبيعية والتجارب والاعمال البشرية فقد يوجد نحو الالف والثلاثمائة مؤلف في خصوص علم التاريخ باللغة العربية فضلا عما ألف في ذلك باللغة التركية والفارسية

فلما وصل في الكلام على تقدم اهل الاسلام الى هذا المقام قال الانكليزي لا ريب في تقدم اهل الاسلام في كثير من الفنون وسبقهم غيرهم بفوائد جليلة اخذت عنهم واستفادت منهم فمن ذلك استعمال البارود الذي تكافأت بسببه قوى الامم او قربت من التكافؤ حتى هدأت الفتن وقل عددها وقصرت مدة ما تحرك منها فما قامت حرب الا قعدت ولا التهبت نيرانها الا بسرعة خمدت على خلاف ما كان في العصر الخالية حيث كان الناس يعتمدون على قوى ابدانهم ومضاه صوارمهم ورماحهم الى غير ذلك من آلات المكافحة فكانت الحرب خصوصا في العرب تنشا من امر صغير بين نفر يسير ثم لا تزال تزداد وتطول

من فتنة فتن يصطلي حرها خلق كثير وتطول مدتها فربما اقامت الحرب الواحدة السبب زيادة عن اربعين سنة فلما اهتدى الناس الى استعمال البارود والآلات اطلاقه خمدت الفتن وصار الغالب على الناس الامن بعد ان كان الغالب عليهم الخوف ولا شك في سبق اهل الاسلام الى استعمال البارود وان لم يعلم عين مخترعه فقد كان اهل مصر يدخلون ملحاً في بعض الادوية ويسمون ملح البارود الابيض ويبردون به الماء بدل الثلج واستعمله المسلمون في حروبهم ومحاصراتهم بعد القرن الخامس من الهجرة وما سبق اليه المسلمون ايضاً بيت الابرّة الذي يستعملونه في تحرير محارب مساجدهم فيتعرفون به جهة قبلتهم التي امروا باستقبالها في صلواتهم اذ لم تكن الشمس كافية في ذلك لغيبها ولا الاقطار لاستئثارها في بعض الاحيان وكثير من الاماكن وقد عمت منفعة بيت الابرّة سائر الناس حتى ان المسافرين برّاً وبحراً لا يستغنون عن استصحابه ليعرفوا بدلالته الاتجاه الى مقاصدهم . وما ينسب لاهل الاسلام عمل الورق فقد وجد عندهم سنة ٢٧ من الهجرة وكان اهل بخارى يعملونه من الحرير ثم عمله في حدود المائتين يوسف ابن عمر امير مكة في ايام بني العباس من القطن وكان اهل الاندلس يصنعونه من الكتان والتيل . وما سبق باستعماله المسلمون الورق بدل النقود واوراق الحوالات التي تسمى بالسفجة ياخذها المسافر من تاجر في بلدة الى تاجر في بلدة اخرى لحفة الحمل

والامن من قطاع الطريق واهل الفساد وقد رأيت في بعض التواريخ العربية من جملة اعماله العائدة بالنفع حفرم الخليج العتيق المعروف بخليج القلزم وان ذلك كان باذن من عمرو ابن العاص او من عمر بن الخطاب رضي الله عنها وذكر بعض المؤرخين ان عمرو بن العاص خطر بباله حفر برزخ السويس لاتصال البحر الاحمر بالبحر الابيض فاستأذن عمر بن الخطاب فمنعه لئلا تعبر منه الافرنج البحر الاحمر فيكثرون بالمشرق وبلاد العرب . ثم لما كانت ايام السلطان الفاخر عزم وزيره على الشروع في حفره فعرضت له موانع عاقته عنه ثم استعوض ذلك بالعزم على توصيل بحر جرجان بالبحر الاسود بان يحفر خليج بين نهري الطونة واولفة فمنعه عن ذلك ايضاً فساد اخلاق طوائف الفراق المقيمين بسواحل تلك المياه

فعند ذلك طاب خاطر الشيخ بما القاه اليه صاحبه الانكليزي اولاً واخراً اذ رآه محباً للحق وفي الحكم منصفاً وبتقدم الملة الاسلامية في سائر الفنون معترفاً وزاد حبه له اضعاف ما كان وكان الشيخ قبل ذلك يمنع نفسه من المباحث في الامور الدينية خوفاً من ان يكون ذلك سبباً في حصول النفور بينها وكان الانكليزي مراقباً ذلك ايضاً قائماً بما يجب للشيخ من الحقوق لما رأى فيه من كثرة الورع والتخلق بالاخلاق المرضية وفي ابتداء الكلام بينها هذه المرة في امر الديانة ظن الشيخ ان الانكليزي



ربما يشير الى الديانة بما يدنسها فلما قص عليه ما قص ولم يظهر من كلامه في شأن الملة ادنى نقص حيث امتنع عن الجدل ولم ينسب للملة الاسلامية من التاخير ادنى سبب بل عزا اليها استمرار التقدم بما اكتسبته في الزمن الخالي حتى صارت اساساً يعتد عليه النوع البشري في تقدمه الحالي والاستقبالي وانه لولاها لارتفعت من بين الناس موجبات الالفة والمسار وامتنعت عنهم اسباب التمدن واليسار فمن ذلك الوقت اعترف الشيخ لصاحبه بكثرة الاطلاع والوقوف علي حقائق الامور والاضاع

فخاض معه بحر هذا البحث المتعلق بالدين ثم قال وما يستطرد في هذا المقام ذكر اديان العرب قبل الاسلام كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاة . وكانت اليهودية في نمر وبنو كنانة وبنو الحارث بن كعب وكندة . وكانت المجوسية في بني تميم

واول من غير دين الحنفية عمرو بن لحي ابو خراعة وهو انه رحل الى الشام فرأى العالقي يعبدون الاصنام فاعجبه ذلك فقال ما هذه الاصنام التي اراكم تعبدونها قالوا هذه اضمات نستمطرها فتمطرنا ولستمطرها فتصمرنا فقال اعطوني منها صنماً اسير به الى ارض العرب فيعبدونه فاعطوه صنماً يقال له هُبَل فقدم به مكة فنصبه وامر الناس بعبادته وتعظيمه

واول ما كانت عبادة الاحجار في بني اسماعيل وسبب ذلك

انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم فتنفروا  
في البلاد وما من احد يظعن الا حمل معه حجراً من حجارة الحرم  
تعظيماً له فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ثم تناسلوا  
فنبوا ما كانوا عليه من دين اسماعيل فعبدوا الاوثان وصاروا  
الى ما كانت عليه الام قبلهم من الضلال

وكان لاهل كل دار صنم يعبدونه فاذا اراد الرجل سفراً  
تمسح به حين يركب وكان ذلك اخر ما يصنع اذا توجه الى سفره  
واذا قدم من سفره بدأ به قبل ان يدخل الى اهله فاتخذت العرب  
الاصنام وعكفوا على عبادتها

وكانت لقريش وبني كنانة العزى وكان حجابها بني شيبه  
وكانت اللات لتقيف بالطائف وكان حجابها بني مغيث من ثقيف  
وكانت مناة للاوس والنخزرج ومن دان بدينهم واما يغوث ويعوق  
ونسر فقبل انهم كانوا اسماً اولاد آدم عليه السلام وكانوا اتياء  
عباداً فأت أحدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً فراقوا ان يصوروا صورته  
ليذكروه اذا نظروه فصوروه من صفر ورصاص ثم مات آخر  
ففعّلوا ذلك الى ان ماتوا كلهم فصوروهم هناك واقام من بعدهم  
على ذلك الى ان تركوا الدين وعبدوها الى ان بعث الله نوحاً  
عليه السلام فنهاهم عن عبادتها فقالوا ما اخبر الله به عنهم لاتدرن  
آلهتكم ولا تدرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ( الاية )  
ولما عم الطوفان الارض طمها وعلا عليها التراب زمناً طويلاً ثم

اخرجها مشركوا العرب فعبدوها وكان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر

هذا ما كانت عليه العرب قبل الاسلام وقد صاروا بعده امة واحدة قوية والفضل في ذلك كله للقرآن المجيد ومن العجيب انكم معاشر الاوروبيين تعلمون ذلك وتعزرون الى الاسلام تاخر النوع الانساني في المدنية

فقال الانكليزي لا يخفى على سيدي عادة اهل المذاهب والاديان من التعصب والتحزب من قديم الزمان فكل يميل الى ترجيح مذهبه بما يصل به الى بلوغ مأربه ويعزو الى دينه كل فضيلة ويصفه بكل صفة جميلة فيأخذون بحواس المتدينين ويجذبون اليهم قلوب الجاهلين فلا يرون الا راي اسلافهم ولا يعلمون الا ما سطر في تآليفهم ولا يضاهون قوانينهم بقوانين غيرهم ولا قواعدهم بقواعدهم الا لمقاصد فاسدة واغراض كاسدة ولا يفرقون بين الصحيح والاصح والراجح والارجح واما انا فلست من هذا القبيل ولا اليه عقلي يميل وليست النصرانية عليّ محنمة ولا احكامها عندي محكمة بل الواجب عليّ اتباع الحق كما هو الواجب على كل عاقل من غير فرق وانا اعلم من قبل ان الله سبحانه وتعالى لم يبعث الرسل عبثاً بل ارسلهم لهداية من اتبعهم وما قصدت بفراقى بايدي واهلي واولادي وتوجهي الى بلاد المشرق واقامتي بمصر

وتعلي اللغة العربية إلا الوقوف على حقيقة الملة الإسلامية ودرجة علمائها فان مؤلفات الاوروبين في هذا المعنى مشحونة باكاذيب مضلة واخلاقات مخلة كقولهم في كتبهم ان محمداً يقول ان النساء لا يدخلن الجنة يوم القيامة

فالتفت الشيخ للخواجاء عند ذلك وقال مثل هذا لا يقال من امثالك ولئن كان معتقد علمائكم من هذا القبيل ومؤلفات قدمائكم على نحو هذا التمثيل وها هو كتاب الله بيننا يتلى وكذلك كتب المفسرين وحمل الشريعة اجمعين لم يوجد فيها مثل ذلك ادنى اشارة فضلاً عن التصريح بعبارة وقد قدمت لحضرتكم ان جميع كلام النبوة شرح للقرآن قال تعالى ( وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ) واذا تتبعنا القرآن العظيم لم نجده يذكر المؤمنين الا ومعهم المؤمنات ولا المسلمين الا ومعهم المسلمات ولا الصائمين الا ومعهم الصائمات قال تعالى ( ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها ) وقال تعالى من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون ) وقال تعالى ( ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين

الله كثيراً والذاكرات اعد الله لهم مغفرة واجراً عظيماً ( هو الجنة وما فيها ) وهكذا في غير ما آية وإن اردت ان اطلعك على مواضع ذلك من المصحف الشريف لتقف على الحقيقة بنفسك فعلت فالكتاب والسنة والاجماع على ان للنساء ما للرجال من الثواب وعليهن ما عليهم من العقاب لا فرق بين حرٍ ورقيق ومولى وعتيق وقال صلى الله عليه وسلم ايما امرأة غاب عنها زوجها فحفظت غيبته في نفسها وطرحته زيتتها وقيدت رجلها واقامت الصلاة فانها تحشر يوم القيامة عذراء طفلة فان كان زوجها مؤمناً فهو زوجها في الجنة وان لم يكن زوجها مؤمناً زوجها الله من الشهداء فكيف يتوهم فيمن اتصف بالعدل فضلاً عن اتصافه بالفضل ان يضع عمل عامل او يحرم الراعي فضله الشامل

فقال الانكليزي لو علمت نساء اوروبا بقولك لاحبين دين الاسلام لكن ربما يمنعن من شيء اخر اشق عليهن من كل شيء واضر وهو اتخاذ الرجل منكم عدداً من الزوجات

فتبسم الشيخ وقال اراك قد خرجت عما نحن فيه اذ لا دخل لتعدد الزوجية ولا لدين النصرانية في احياء العلوم الادبية ولا تقدم الفنون والصنائع الدنيوية اذ لو كان كذلك لما احتجتم الى اليونان فمن بعدهم من العرب الى الآن في الوصول الى ما وصلتم اليه فانهم لكم في كل ما علمتموه ملاذ واحنياجكم اليهم كاحياج المتعلم الى الاستاذ

واما ما كان من امر تعدد الزوجات فليس هذا خاصاً بنا بل هو عامٌ لنا ولغيرنا ولم يمنعهُ الا طائفة النصارى فقط حتى ان من قبلهم كانوا يجوزون التعدد ايضاً فقد رأيت في بعض كتب التواريخ نقلاً عن دانيال القسيس ان ملوك فرانس الاولين كانوا متزوجين بزوجات متعددة مع انهم كانوا متدينين بدين النصرانية ومن ثم كان لكل من غنطران وشريبير وداغوبير الاول ثلاث زوجات ولم داغوبير وهو قلودومير اربع زوجات في آن واحد وفي سنة سبعمائة وستة وعشرين من الميلاد كتب البابا غراغوار الثالث الى الواعظ بدسغاس حين ارسل اليه يسأله عن جواز التزوج بامرأة ثانية اذا اصبحت المرأة بدءاً بمنعها عن القيام بحقوق الزوج جازله ان يتزوج بامرأة اخرى وعليه للمصابة مؤنّها الضرورية

ولعل المحكمة في اباحة تعدد الزوجات عندنا وعند من كان على رأينا ان التدبير الالهي لما ميز الرجل بقوة البنية وطول زمن التناسل بالنسبة للمرأة وسلامته من الاعذار المعتادة للنساء في اوقات معينة كالحيض والنفاس راعى الشرع جانبه لذلك واما حكمة الافراد التي عولم عليها واستندتم في الحكم اليها فلا يمكن المجزم باطرادها في كل طبيعة ولا بانها تقطع ما تخشونه من المفسد ذريعة فقد يأتي زمن يمتنع فيه كثير من الامور الفظيعة التي لا وجود لها في بلادنا كقتل الاطفال واستنطاق الاجنة

ونحو ذلك

فقال الانكليزي هذا كلام معقول لكنني نظرت في المصحف مرة فرأيت في السورة الثالثة من سورة البقرة ما ظاهره الامر بضرب النساء مع انه يخل بشرف الانسانية

فاجابه الشيخ الا ان هذا لا يوجد الا اذا علم الزوج منها خلاف ما كان يعهد على انه ليس له ذلك من اول الامر بل يستعمل معها النصيحة فان ابت فبالهجر فان ابت ضربها بشرط ان لا يضر بها على ان حسن العشرة المأمورية في القرآن ربما جعل التشديد عليهن مذموماً وصير من عاقبن على كل ما فرط منهن ملوماً كقوله تعالى (الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان) وكقوله صلى الله عليه وسلم احملوا النساء على اخلاقهن . وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينبغي للرجل ان يكون في بيته كالصبي فاذا طلب ما عنده وجد رجلاً وقال بعض الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم ما حق زوجة احدنا عليه قال ان تطعمها اذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر الا في البيت . ومعنى لا تقبح . لا تسمعها المكروه ولا تشتمها ولا تقل لها قبحك الله ونحو ذلك الى غير ذلك مما يعظم امر النساء ويوجب رعايتهن والمبادرة الى القيام بحقوقهن وهل حرية النساء الا ان يبلغن حقوقهن على ازواجهن حسبما تقتضيه المروءة وصيانة النساء عن الدخول فيما ليس لهن من خصائص



الرجال كما نهت على خفايا حدوده وايدت ظواهرها الشرائع  
وليس فيما يقبل العقل المنزه عن العصبية ان تكون حرية النساء  
عبارة عن تخليتهن وما اشتبهن مع ما يشاهد في الاكثر من غلبة  
شهواتهن واهوائهن على عقولهن

وبينما هما يتحاوران اذا بضجة في صدر السفينة تبين انها اشارة  
للوصول الى الميناء فحي كل صاحبه بالسلامة وهما بالصعود الى  
البر وتذكر الشيخ رجاء ولده في امر يعقوب فاخبر به صاحبه وبلغ  
باجابته المرغوب فخرجوا متوجهين الى بيوت المسافرين

### المسامرة الحادية والعشرون كتاب برهان الدين

فلما استقر قرارهم واطمان بهم المنزل قال الانكليزي للشيخ  
ان غدا توجه البوستان الى مصر  
فقال الشيخ لابنه اين كتابك لوالدتك فاخرج له كتابا  
هذه صورته

حضرة الوالدة العزيزة المصونة . وحق المهد والدر الذي لا يقوم  
مقامه الشهد ومناغاي في السحر ما غاب شخصك عن خيالي ولا  
خطر التسلي عنك ببالي بل مذ فارقتك لم ترقأ لعيني دمعة ولم

تهدأ قلبي لوعة ولم اجد لعيني في النوم قراراً ولا لقلبي راحة  
 وكنت قبل ذلك اجهل الفراق والى لجهلي باحواله ومشاقه وكنت  
 اذا قرأت في بعض الكتب واطلعت على ما قيل فيه من شعر  
 العرب وغيرهم اراني لا ادوق له معنى ولا افهم ما يراد منه بل  
 كان يمر بي ككلام الساهي او اللاعب اللاهي الى ان تبين  
 الخبر بالعين وارتفع الشك فذقت مرارته ووقعت في بحر هواه  
 غريقاً

شكا الم الفراق الناس قبلي \* وروع بالنوى حي وميت  
 واما مثل ما ضمت ضلوعي \* فاني ما سمعت ولا رايت  
 فصرت اردد في الاسحار قول من تناولته يد الاسفار  
 احبابنا لو لقيتهم في اقامتكم  
 من الصباية ما لاقيت في الظعن  
 لاصبح البحر من انفاسكم يسا  
 كالبر من ادعني ينشق بالسفن

وما زادني قلناً وشجوناً وأرقاً ما اراه في عالم المثال فتارة اراك  
 تعانقيني وتقبليني وتارة اراك نائمة عن شمالي وتارة عن يميني وتارة  
 ارى انك تنصحيني وتارة ارى كأن الرياح اشتدت والأمواج الى  
 الجوف قد امتدت وإن الحق تعالى على خلقه غضب وكأن السماء  
 تمطر ماء كافواه القرب ونحن في المركب لا نسمع إلا انيناً واستغاثة  
 وحينئذ وإن الجبال قد تقطعت والقلوع تمزقت وانقلبت المركب

وغرق من بها فارى نفسي على خشبة وكأن الأمواج تدفعني الى جزيرة وكان اقواماً اخذوني وهما يقتلي فاقوم من الفراش على قدمي فاستعبد بالله وابسمل ثم اعود ثانياً بقصد الرقاد فما ارى الحال الا في ازدياد ولم ازل هكذا كل ليلة الى الصباح ففي ليلة رايت ما رايت وتوجهت الى والدي وقبلت يده فعلم اني لم اغتص بنوم فسألني عن حالتي فاخبرته بما وقع لي طول ليلتي فسكن روعي وطيب خاطري بكلام رقيق اروي لك منه ما امكنني حفظه قال مما يمنع عنك ذاك ويقيك التخيالات والاحلام ان تستحضر وانت على الوسادة ان حالة اهلك احسن من حالة كثير من العباد ولا تنظر لما في الاسفار من المشاق الوقتية والمضارب بل انظر لما يعقب ذلك من النفع العائد عليك وعلى اهلك فان ذلك يغير ما عندك من الانفعالات بضدها واصرف افكارك الى ما يسليك ويجلب لك السرور ويسهل لك معاناة الشدائد ثم عطف واخذ يورد على سمعي من الحكم والمواعظ ما انساني هي وارقى تلك الليلة فقال يا بني كن في جميع احوالك كامل العقل متسماً بسمة اهل العلم والفضل واشتغل بها بعينك متجافياً عما يشينك وبعينك قائماً بها يجب للناس من توفير كبيرهم وملاطفة صغيرهم متخلياً بصفات اهل الكمال متخلياً عما يزري بك من الاقوال والافعال واياك واصحاب الشهوات والاخلاق الذميمة ولذ بمن يصلحك حاله ويرشدك الى الخير مقالاه وغذاء قلبك بثمرات العلوم

كما تغذي جسمك بما تستطيع من المشروب والمطعم ولا تكن لكل ما تطلع عليه اسير التقليد كمن ظن الورود وهو عن الشط بعيد ولا تغتر بجلاوة الالفاظ فكل لفظ له باطن وظاهر ولا يقف على الفرق بينهما الا اللبيب الماهر فما كل ما يعلم يقال ولا كل ما حسن ظاهره يقبل على كل حال بل تارة يوافق الصواب فيمدح وتارة يضل عنه فيستعج ولا ترو شيئا من غير دليل فتكون كمن يطب غيره وهو عليل ولا تثق الا بما ترى فائدته بديهية ومنفعته عمومية ولا تتبع المقاصد الشخصية والفوائد الذاتية الوقتية وكن غالب وقتك مستفيدا فوافق رايتك فاحفظه وما لم يوافق مذهبك فالفظه واعلم ان غالب هموم الناس تخيلية وتصورات وهمية منشأها امور طرأت عليهم ولم تكن من قبل مألوفة فلعدم علمهم بكيفياتها بصورتها في انفسهم بصورة غير صورتها ولجهلهم باسبابها بلبسونها ثيابا غير ثيابها فتظهر لهم في الصورة التي رسموها وتكبر في اعينهم على قدر الهيئات التي بها وسموها فتتمكن من تخيلتهم وتحل في وجودهم كحلول الروح في الجسد فتشتغل جميع الحواس بها ويتحول الفكر بكيئته نحوها وعند ذلك لا يرى الانسان غيرها فان كان ما تخيله خيرا عظم عنده شيئا فشيئا حتى لا يرى ان هناك اعظم منه وان كان شرا رأى انه فوق ما يتصوره المتصورون ويقدره المقدرون وانه لم يتقدم مثله لاحد من ابناء الزمان وانه ليس في الامكان ابداع ما كان فيكون حزنه وفرحه في التقديرين

بقدر ما توهمه في الحالين ومن تكرر هذه الصور في القوة الخيلة  
تتزايد حتى تظهر لصاحبها كأنها من جملة الأمور المرئية وتؤثر فيه  
كأنها حقيقية وإن كان التأثير زائداً عن الطاقة فتح منه مضار جسيمة  
أما في العقل فيختل وأما في الجسم فيعتل حتى أنه في بعض  
الاحيان يرى الموت وكأنه قد كان فما رايت في نومك من التمثيل  
ليس إلا من هذا القبيل لان الفراق امر لست معتاده فصورته في  
نفسك بصورة غير صورته فتارة رايت ان السفينة قد غرقت بمن  
فيها وتارة رايت انها رست على بقعة من الارض عامرة بالناس  
والاشجار فكانت هذه الرؤيا ما ظننته وفي يظنك توهمته  
وكذلك رؤيتك لوالدتك واخوانك وعمالك سببه تصور حبك  
لم ورغبتك في صلاح حالهم وخشيتك من فقرهم وفاقتهم فلذلك  
رايت ما رايت من لعبهم تارة وبكائهم تارة اخرى في البيت فلو  
تفكرت فيما يحصل لاهلك ووالدتك والمحبين في عودتك لاسما  
اذا راوك متحلياً بجلل الادب متصفاً بصفات اهل العلم والرتب  
ولاحظت ما يصفونك به من العلم والورع والعفة واجتناب البدع  
مع ما تحوزه من الشهرة فلا اظن انك تقول بمثل هذه الوسوسة  
بل يخلو قلبك منها ويدخل عليك السرور في الغدو والروح  
وتعيش عيشة اهل التقى والفلاح الذين رموا انفسهم في بحار  
تقديره واكلوا امورهم الى تصارييف تدبيره عالمين بانه اللطيف  
بمحالم الخبير بما يصلح لهم في حالهم وما لهم واعلم يا ولدي وفلذة كبدي

ان من استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط  
الاندال حقر ومن جالس العلماء وقرو من مزح استخف به ومن  
اكثر من شيء عرف به ومن اكثر كلامه اكثر خطأً ومن اكثر  
خطأه قل حياؤه واحذر يا ولدي اذا وصلت الى والدتك وسألتك  
ماذا رايت وماذا رويت ان تقول لها شغلي حبك عن تحقيق ما  
رايت او منعني شوقي اليك عن حفظ ما رويت او تفكري في  
حال عماتي واخواتي الصغار شوش فكري انا الليل واطراف  
النهار بل قدر انك تقول لها رايت كذا ودرته ورويت كذا  
وفهمته وما كفاني ما كنت اعلمه بالنهار بل كنت اسهرتارة مع  
والدي ونارة وحدي الى الاسحار فعند ذلك تعظمك وتجلك  
كثيراً . فقبلت يده وانصرفت وعملت باشارته فاطمئن قلبي  
وانشرح خاطري وصرت من ذلك الوقت الى الان مشغلاً  
بالاستفادة مجتهداً في الاستزادة ومن تفضل الله علي اجتمعت في  
السفينة بشيخ انكليزي مع احد الملاحين له المام باللغة العربية  
فوقع بيني وبينه مزيد الالفه وارتفعت بطول الصحبة من بيننا  
اسباب الكلفة



## المسامرة الثانية والعشرون

برهان الدين وصاحبه

( تمة من الكتاب )

فصرت ارنع معه في رياض العلم واتمتع من فوائده بها لم  
اجد عنه اغنياضاً فتشبت بحبال وده وتمسكت وتعطرت بطيب  
اخلاقه وتمسكت لانه فضلاً عن كونه يعلمني درسي في اللغة  
الانكليزية قضيت معه ايام السفينة في مسامرات وجدت لها مزية  
اذ كشف لي من الامور معماها وجلا عين فكري بعد عماها فتارة  
كان يحدثني عن سابق اسفاره وتارة يطرفني بحكايات ونوادير وتارة  
يتحفني بالفاظ كأمثال الجواهر وكنت قبل ذلك لا التفت لتنوع  
اساليبه بل كان جل ميلي اليه لاجل التسلي به لكن رايت ان  
جميع ما يحكيه لا يخلو من فوائد اذا كان السامع نبهياً فقلت في  
نفسى لماذا لا اكتب ذلك عنه واحفظ ما اسمعه منه وكل كتاب  
حررته لوالدي يكون بعضه من ذلك والبعض من فكري لتعلم  
ما علمت وثقف على قدر ما حفظت وتسلّى بعباراتي عن رؤية  
ذاتي فصرت لا اسمع منه شيئاً الاّ كتبتّه حتى جمعت من ذلك



جملة تصلح ان تسمى عند المسافرين بالرحلة وجعلتها كسفينة آخذ منها ما يلزم واحرره لك وها انا اسرد عليك بعض ما نقلته عنه واستفدته منه وابدأ بذكر سبب معرفتي به وهو انه لما ازمعنا من الاسكندرية على الرحيل وصرنا بعيداً عن ميناها بنحو ميل نظرت الى الساحل والمدينة فوجدتها يصغران شيئاً فشيئاً كلما بعدنا وكنت لا استطيع صرف نظري عن هذه الجهة حيث انها مسقط راسي حتى صرت لا اراها الا كقطعة سوداء في وسط ضباب او هلال شك في خلال سحاب الى ان صرت لا انظر غير الماء والسحاب المسخرين الارض والسماء فكنت ارفع نظري الى اعلى واتامل في قدرة الخالق ولا اعلم من شي شيئاً وكنت ارى السحاب تارة ينعدم وتارة يتقطع وتارة يكون متفرقاً ثم يتجمع وتارة ارى سحابة صفراء ذات نقط زرق وخضر حلت محل سحابة بيضاء وتارة كنت ارى على سطح البحر في آن واحد جملة منها في اشكال وصور والوان مختلفة تبهر النظر وكأنها تطوف حول اخرى ثم اراها حلت محل بعضها وتبادلت او اخذت في التناقص او تكاملت وبعد برهة من الزمن ينعدم ذلك كله كان لم يكن فكنت اقلب طرفي الى الافق من جميع جهاته واتبعه في استدارته واختلاف اشكاله وهياته فارى الشمس ساطعة على وجه الماء لا يحجب نورها حاجب فعند ذلك ارى للماء الواناً لا حصر لها واذا كان البحر هادياً والبرج في سكون رايت فيه من الصور والهيئات ما لا اراه

حين يكون الغيم أو تهب الرياح فارى تلك الصور تترج مع بعضها  
وتتعايق ومنها ما يعلو بعضه بعضاً فما سفل يمر في جهة وما علا  
يمر الى جهة اخرى وعند ذلك تسمع اصوات مختلفة كالحنين تارة  
وكالابن تارة وكل هذه الحركات يتعدى اثرها الى السفينة فتارة  
تتايل مع اللطف وتارة تتحرك بقوة وعنق ولكن هذه اول سفرة  
ركبت فيها البحر واول مشاهداتي لعجائب هذه الامور كنت لا اتحول  
من موضعي الاّ ينداء والذي اما لتعاطي الزاد او لقضاء الحاجة او  
للرقاد وكنت اظن انه لو تركني وشائي لكنت اقضي الليل والنهار  
في مشاهدة هذه الآثار فيينا انا اتأمل في اسرار هذه الآيات التي  
لا يحيط بعلمها الاّ عالم الخفيات واذا برجل من ملاحي المركب  
يقول لي بلغتي ما رايت في سفر البحر وما هذه العزلة عن الناس  
فقلت له انها اسلم واشرف واحسن شيء والطيف اذ تجعل الافكار  
متجهة الى التأمل في عظمة الخالق وقدرته وتعين الانسان على  
معرفة بديع صنعته فمن اين لك بمعرفة لغتنا ولست من جهتنا  
فأبن لي جليّ امرك واصدقني فقال اني تحصلت على علم العربية  
باربع سنوات من عمري قضيتها في الاسر والعبودية عاينت فيها  
انواع الاهوال من الذل والاهانة ومشاق الاحوال وسأشرح لك  
قضيتي ان طالت معك صحبتي لكن نسيت الان اكثر ما علمته  
لعدم المسامرة فيه مع اهله لان كثرة اسفارنا كانت لبلاد غير بلاد  
العرب ومن وقت تحولي الى سفن الكومبانية المخصصة لجوب جهة

مصر والجهات المشرقية اخذت في تذكاري ما نسبت فان اردت ان اعلمك لسان الانكليز وتعلمني اللسان العربي كان ذلك مامولي وغاية اربي فرغبت في ذلك لوجهين الاول ان يكون سميري فانسلي بما يتقله من سابق مشاهداته والثاني ان اتعلم اللغة الانكليزية من غير تكلف وما حملني على الميل اليه كون والذي مع صاحبه الانكليزي دائماً في محادثاتهم العلمية فلذلك قبلت قوله لما فيه من الفائدة لي وله

فصرت اعلمه ويعلمني واظن ما استفدته منه أكثر مما استفادته مني كما سترينه وتيقنت ان ذلك سر دعاء والدي وبركة رضاها عليّ ولو ان كلام والدي فيه اكتفاء لكنت لا ادري الطريق الموصلة الى معرفة ما ارشدني اليه فعرفت من حين عرفت هذا الرجل لانه كشف لي عن امور كثيرة كنت اجهلها ومن عباراته المتنوعة وحسن لفظه اشتغلت بكتابة ما كان يلقيه وحفظه فوصلت الى درجة لم ادر مبلغها وكنت ملازماً له لا يفصل ذاتي من ذاته الاّ اداء ما عليه من خدماته فانقضت مدة البحر على احسن حال وهو باق معنا الى الان

فاتفق ان شاهدني ذات يوم وانا انظر الى البحر وتعجب من عظمتة وقدره مدبره واذا به قد نبهني بيده وقال لي فيم اطلت الفكر فقلت له في عظم هذا البحر فقال لي ليس هذا هو البحر لانه وان كان عظيمًا لكنه صغير جدًا بالنسبة لغيره من البحار اذ هو كجدول

من نهر او جعفر من بحر فقلت لا زلت ملاذا وهل هناك بحار  
غير هذا فتبسم متعجباً ونظر اليّ مستغرباً وقال كانك لم تقراء علم  
الجغرافية فقلت وايّ علم هذا فضحك وقال هو العلم بسطح الارض  
وهيئاتها في الطول والعرض وما فيها من البحار والمدائن والانهار  
وما اخص به كل بقعة منها واديان اهلها وكيفية حكومتهم وما هم  
عليه من الاخلاق والاحوال وغيرها فقلت له لم اسمع بهذا الا  
منك ولم اروه الا عنك فقال كيف هذا مع ان العرب هم الذين  
دونوه واسسوه افتراهم الان تركوه ونسوه مع ان معرفته عند جميع  
اهل الاديان من اهم الواجبات على كل انسان اذ به يعلم ما على  
الكرة من المخلوقات ويقف على حقيقة كثير من الكائنات وبدونه  
تكون معرفة التاريخ عسرة ثم قال فاذا يكون علم التاريخ عندكم  
مفقوداً فقلت له لا الا انا لا نجعله من الامور الضرورية اللازمة  
بل نعهده من ضمن القصص والاخبار اذ ليس علماً يحتاج  
الى معلم فيمكن ان يقرأ الانسان من نفسه فلما سمع ذلك مني  
عبس واعرض وطاقطاً راسه الى الارض وسكت ملياً ثم رفع راسه  
وقال الان علمت سر تهقير الملة الاسلامية وسبب ضعف اهل  
البلاد المشرقية وهوانها لما شجرت علم التاريخ بمدارسها زال من  
بين رجالها معرفة سير الماضين الذين كانوا سبباً في سطوتها وعظم  
بطشها وتمكن قوتها وحيث لا قوة للملة الا بقوة رجالها ولا تكمل  
قوة الرجال الا بالعلم كان ترك علم التاريخ وباقي العلوم مما

يضعف قوة الملة ويضيع شهرتها ويجعلها - تحت أسر غيرها فيجور عليها ويذلها واعلم يا ولدي ان فن التاريخ جم الفوائد عزيزا للفرائد اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى يقتفي اثرهم من يروم الاقتداء بهم في احوالهم الا انه يحتاج الى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبت يفضيان بصاحبها الى الحق لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل فربما لا يامن فيها من مزلة القدم ومنفعة علم التاريخ عامة للخاصة والعامة وهو مشير كل امير وامير كل مشير وسمير كل وزير وظهير كل سمير اذا سئل عن خبر اجاب وايدى فيه العجب العجيب ترتاح به الارواح الفاضلة وتميل اليه النفوس الكاملة من الحكماء والاساطين والملوك والسلاطين وهو مرآة الزمان ولاخبار الماضين كالترجمات فكم فيه من حوادث وامثال به تقف على ما كان عليه ابائنا واجدادنا ومشاهير كل ارض وامة والحوادث التي مرت بين الامم وبعضها والفتن التي اوجبت انقلاب البقاع باهلها ونرى الامم واحوالها والامراء وافعالها والعلماء واقوالها وما مر على الخلق من خير فاجب تقدمهم وشهرتهم ومن شر فاجب فقرهم وفاقته فلم يترك سيرة ملك الا احصاها ولا احوال رعية الا استقصاها فهو خزانة الحوادث كل احد ياخذ منه ما يلزم لصنعتة فياخذ منه المجاهد ما يلزم للجهاد والعالم ما يريد به شرفه بين العباد وساحب الحرفة ما يزيد الرغبة في صنعتة

فهو اليسوب لكل فن والمفتاح لكل اثر حسن وغير حسن فناخذ  
 منه ما يلزمنا فنعلم المدوح فتحبه والمذموم فنجنبه فهو المنبع والاصل  
 لاكتساب حل الفضل والحسن المانع من غوائل الجهل واهم  
 شي يجب تدريسه بالمدارس والمكاتب لتنبه ابناء الملة على صفات  
 الكمال فيرغبون في اكتساب تلك الصفات ويمجوزون بها اعلى  
 الدرجات فيعلمون صفات الابطال وما حازوه من الشرف عند  
 النزال لمحاماتهم عن اوطانهم ويطلعون على صفات الصالحين  
 الذين اورثوا ملتهم ثرات علمهم وعلمهم فيتعودون من الصغر على  
 الاتصاف بصفاتهم والافتداء بافعالهم ولا يكفي ان نتعلم الاطفال  
 كيفية النثر ونظم الشعر واصول الكلام بل الاهم من ذلك  
 اكتسابهم حب الوطن وتربيتهم على ما سبق من حوادث الزمن  
 حتى يكونوا مثالا وقدة ومن الغريب اننا نرى اغلب الخلق  
 يرغبون في الاطلاع على سير مختصرة وخرافات واكاذيب ونحو  
 ذلك من الاساليب ولا يعلمون لمن اشتهر من ابناء جنسهم اثرا  
 ولا يروون عنه خبرا فنراهم يجهلون سير المشهورين من ابناء ملتهم  
 ولا يعرفون نسبهم ولا حسبهم ويعتنون بمعرفة من مات من منذ  
 آلاف سنين اكثر من اعتنائهم بنسبة اقاربهم وجنسهم والمتصرف  
 في امرهم ويرغبون في معرفة البلاد البعيدة ولا يعتنون بمعرفة  
 ارضهم وارض المدينة القاطنين بها

فحجبت من كلامه وثمنت ان تكون تربيتي حسب مرامه

فحين رأى ذلك مني أراد ان يذهب المحجل عني . فقال لا بأس عليك فانه لم يهتد بنفسه احد وليس التقصير من قبلك وإنما اللوم والمعتبة على من نُصبت له اعلام الهداية وهو ينظر فلم يدل عليها وبانت له غاية الرشd فلم يسلك بنفسه واتباعه اليها وعلم فوائد التربية فلم يطلبها واعطي كواسب الجوارح فلم يرسلها وظهرت له الفضائل فلم يكسبها من كافل ارتفق وساد الراحة وقعد به الكسل وهو يرى نجاحه وامير اخمد هتمه الاغفال واخمل ذكر مساعيه الاهمال وكل راع عن رعيته مسئول وكل طالب ما أخذ الخيرات عليها مدلول

فقلت له نصحت فابلغت وسمعت فوعيت فلك الشكر على ما افدت واسأل الله ان يبلغني بك ما قصدت فلقد دلت طالباً ونهيت نائماً وعرفت معجولاً وانلت مسئولاً وفتحت لي ابواب الطلب وشدت يدي منه باقوى سبب وتركتني انظر الامر بعين ما كنت انظر بها فلقد انشئ بمصر مدارس لتعليم الشبان اظن ان العمل جار فيها على ما وصفت ومسلوك بابنائها في التعليم والتربية الطريق التي اوضحت

فقال ان صح ذلك فقد طابت اعمالهم وتسابقت في رضاهم امالم واستحق ولائها الثناء الجميل واستفادوا من الملك الاعلى الجزاء الجزيل وانا ان شاء الله تعالى لا آلو جهداً في ارشادك وتبليغك من المعرفة الى مرادك ان طاب مقامي وبلغت مرامي فقلت له



ما مرامك وبمّ يطيب مقامك فاطرق اطراق الحزين حتى سمعت من صدره بعض الانين ثم رفع راسه مصعداً انفاسه وقال الانسان معتن ولا عنب على الزمن فقد الجأتني الضرورة الى الاحتراف وترامت بي الحاجة فيما تراه من الاعساف فليس لي امنية غير سكنى الارض القارة ولو قدرت ما اقيمت بهذه المنازل الكارة القارة فان بلغت مقصودي بذلت في تربيتك مجهودي وارجو ان تسأل حضرة الوالد ان يكلم صاحبه في امري واني ارغب الدخول في جلته والتمكن من الاقامة بخدمته فوعده بذلك واقبلت عليه مستخرجاً بالسؤال مكنون ما لديه فبادر بالاجابة وقال ان شئت جعلنا اول مسامرة بيننا كلاماً اجمالياً من علم الجغرافيا فيما يتعلق بهذه الارض التي هي مسكننا يكون كالمقدمة المشوقة الى الاعناء بتعرف تفاصيل ذلك العلم النفيس وعند بلوغ المقصود ان شاء الله تعالى تحصل على ما يلزم لك من الآلات التي تجعلك بالنظر فيها عند التعلم كأنك تنظر من مكانك الى جميع بقاع الارض وبجارتها وانهارها وجبالها فظهرت الابتهاج بحسن نيته واثنيت على لطف اخلاقه وحسن معيته واخذت القلم لاكتب ما يمليه لاتذكر ما اسمعه منه واعيه فلم ينطق بكلمة الا كتبتها ورايت ان اثبت ذلك في هذا الكتاب الذي سطرته لكي ادخل السرور والاطمئنان على قلب اشفق الناس علي واميلهم لايقال كل خير اليّ ليزيد سرور والدني بما حصلت

عليه من المعارف. ولتاخذ في تلقيح افكار اخوتي بما يكون محمود  
 العاقبة لها ولاولادها ان شاء الله تعالى فاني علمت انه ليس انفع  
 من طرح بعض المعارف الاولى في اذهان الصغار فانه يكون  
 كالبذر يلقى في الارض النقية يرجي ان تظل اشجاره وتجننى باطراف  
 الانامل ثماره وما علي ان يطول المكتوب اذا اشتمل على اجل  
 مرغوب ومطلوب



### المسامرة الثالثة والعشرون

#### الجغرافية والتاريخ

( ثمة من الكتاب )

قال يعقوب يابني كان الناس في سالف الزمان يعتقدون  
 في أكثر الامور خلاف ما هي عليه فمن ذلك امر الارض فان  
 الناس كانوا يعتقدون انها قطعة بسيطة كالصحيفة ذات شكل  
 مربع او مثلث وسمك بالغ ما بلغ الى ان جاء الحكميم المشهور  
 ارسطو فقال ان الارض كسائر الكواكب على شكل الكرة

وبرهن على ذلك وما زال الناس مشغولين بهذه المسألة حتى صار العلم بكون الأرض كرة من قبيل العلوم الضرورية الآن فيها نوع انخساف من جهة قطبيها فهي كالبطيخة . وقطباها عبارة عن النقطتين اللتين احداها بمنزلة عنق البطيخة والاخرى بمنزلة ما يقابله منها والدائرة العظمى التي تقسمها نصفين فيما بين القطبين تسمى خط الاستواء لكونها تحاذي الشمس في السنة مرتين فيستوي عند ذلك الليل والنهار وموقعها من الفراغ على بعد ( ١٥٢٨٨٨٢٥٠٠٠٠ ) ميريامتر من الشمس وتم دورتها حول الشمس في ثلث مائة وخمسة وستين يوماً وخمس ساعات وثمانى واربعين دقيقة وتسع عشرة ثانية وتم دورتها على نفسها في اربع وعشرين ساعة وقدر نصف الخط الواصل بين قطبيها ٩٤٢٠٦٢٥٥٠ متراً وقدر نصف قطر دائرة الاستواء ٦٢٧٦٨٠١ متراً ومساحتها ٥٠٩٨٨٥٧ ميريامتر مربع ( والميريامتر ) كلمة افرنكية معناها عشرة الاف متر وهي عبارة عن ٢٨٢٢٣ قصبة وحجمها ٦٠٨٢٦٣٤٠٠٠ ميريامترمكعب وتنقسم من المركز الى السطح بالنظر للمواد التي هي مركبة منها الى قسمين الاول القسم المركزي وهو ما قارب المركز نصف قطره ( ٥٦٠ ) ميريامتر والثاني القسم السطحي وهو القشرة الباقية وهي ما فوق القسم الاول الى ظاهر سطح الأرض ويختلف سمكها من اثنين من الميريامتر الى اربعة منه فاما القسم الاول فان الناس

وان لم يصلوا الى رؤية شيء منه البتة الا انهم بحثوا فيه وتكلموا عليه وتطلبوا معرفته بالفكر والنظر العقلي والاستدلال ببعض الامور الارضية كالمياه الحارة النابعة من جوفها وجبال النار والزلازل وغيرها فقالوا ان ذلك القسم جميعه معدني شديد الحرارة ملتهب مائع واما الجزء السطحي فهو ايضا وان لم يتعمق الانسان فيه زيادة عن ستمائة متر الا انه علم تركيبه من المواد المقذوفة من افواه جبال النار المعروفة بالبراكين ومن تركيب طبقات الجبال الشائعة فالجبل الذي ارتفاعه ثمانية آلاف متر مثلا يدل على تركيب عمق من الارض بقدر ذلك الارتفاع وعلى اي حال فهذا الجزء السطحي من الكرة عبارة عن طبقات متوالية مختلفة التركيب والسلك والاتجاه وقد قسم علماء فن الجيولوجية (اي علم طبقات الارض) هذا الجزء من الكرة الى طبقات سموها كل طبقة منها باسم مخصوص وتفصيل ذلك في كتب الفن المذكور وانما الذي يلزمنا الان هو ان نعلم ان سطح الكرة ليس مستويا وان به محال مرتفعة عن الماء خارجة عنه وتسمى اليابسة والقارة ومحلات منخفضة مغمورة بالماء وتسمى البحار وهذا الارتفاع والانخفاض اما لاسباب قوية اثرت في بعض اجزاء الارض فخفضتها واما اقلية فعالة قذفت البعض الاخر فرفعته فحصل ما تراه من الارتفاع والانخفاض وعلى كل فالمرتفع من الارض اعني القارة هو المسكون ويتقسم الى سهل وجبل وجزيرة وشبه جزيرة وغير

ذلك والمنخفض منها ينقسم ايضاً الى بحر وخليج وبحيرة وغير ذلك  
 وسعة الارض اليابسة ١٢٦٦٢٩٩ ميريامتر مربع وسعة البحور  
 ٢٨٥٢٠٥٠٨ ميريامتر فجميع الارض اليابسة لا تزيد عن ربع  
 سعة البحور تقريباً ولكل من البحار والارض القارة تفصيلات  
 واقسام لها اسماء واصطلاحات ستعلمها فيما بعد ان شاء الله تعالى  
 ولا حاجة لنا الى الكلام عليها الآن وانما نقول ان الارض القارة  
 كما ارتفعت عن البحر قد ارتفعت بعض جهاتها عن باقيةها فما  
 ارتفع منها ان كان كثير الارتفاع فهو الحبل وان كان قليل  
 الارتفاع فهي الهضبة ومتى اتصلت الجبال ببعضها وامتدت الى  
 مسافات بعيدة قيل لها سلسلة جبال وقد يخرج من الجبل في  
 بعض الجهات فروع تمتد الى انحاء مختلفة ويخرج من هذه  
 الفروع فروع اخرى حتى تشغل الولاية بتمامها ولا بد لكل جبلين  
 من وهدة بينها اما صغيرة ويقال لها الشعب او كبيرة ويقال لها  
 الوادي وفي هذه الوهاد تكون مجاري الانهر والخلجان فتسير منها  
 حتى تنصب في البحار فتنابع الانهر من الجبال ومصبتها في البحار  
 ويوجد على سطح الكرة نباتات وحيوانات منها ما يختص  
 بجهة ومنها ما يوجد بسائر الجهات وهي تكثر كلما قربت من جهة  
 خط الاستواء وتقل كلما قربت من القطبين والذي علم الى الان  
 من اصناف النباتات قريب من ثمانين الفا وهي تنقسم الى قسمين  
 الاول النباتات اللازمية وهي نباتات عدية الفلقة البزرية

كالشبية والحشيش البحري والقسم الثاني النباتات البزرية وهي التي لها فلقة بزرية كالحنطة والنخل . والذي علم من اصناف الحيوان قريب من مائة الف وقد قسمت الى اربعة اقسام القسم الاول الحيوانات الفقارية وهي التي لها هيكل عظمي كالانسان . القسم الثاني الحيوانات الرخوة وهي عديمة العظام من داخل ولها غطاء من الظاهر كالمحار . القسم الثالث الحيوانات المفصلية وهي مركبة من كثيرة متحركة على بعضها كالعنكبوت . الرابع الحيوانات الشعاعية وهي حيوانات تكون فيها قوة التركيب ضعيفة وهي تقرب من النباتات ولذلك تحسب واسطة بين الحيوان والنبات ولا يعلم لها من الحواس الا اللمس وذلك كالاسفنج فانه اذا وضعت عليه اليد وهو في البحر انقبض وانكمش وتحت هذه الاقسام انواع كثيرة واشرف جميع هذه الانواع نوع الانسان لانه يعيش في جميع بقاع الارض فجميعها مسكنه ومحل سلطانه وهو وان كان نوعاً واحداً لكنه يتقسم ثلاثة اقسام الاول الابيض ويعرف بالترقاسي نسبة الى قوقاس ويقال قوة قاف (كوه قاف) اي جبل قاف وهو جبل في بلاد الجركس بين بحر الخزر والبحر الاسود وهذا القسم يمتاز ببياض اللون وحمرة الخد ورقة الانف وشممه وضيق الفم واستقامة الاسنان القواطع وحسن استدارة القحف ولين الشعر وطوله واسترساله وكثافة اللحية وعلو الجبهة ومنه سكان بلاد اوروبا ونسلهم في امريكا وسكان غربي آسيا اي العرب والفرس

واليهود والسريان والنتار وهو في شمالي اوربا وأواسط آسيا  
يندرج في القسم الثاني حتى لا يكاد ينتسب عنه وقد انتسب الى  
قوقاس لان اهل تلك النواحي اي الجراكسة والكرج اجمل اهل  
الدنيا واكمل هذا الاسم في صفاته الخصوصيه القسم الثاني الاصفر  
ويعرف بالمغولي نسبة الى المغول وهو قسم من النتار ويقال انهم  
في الاصل من جبال التائي في شمال الصين وهذا القسم يمتاز  
بكونه اصفر البشرة مربع التحف مخروطي الجبهة عريض الوجه  
مفرطحه نائي الخدين اسود العينين ضيقهما مع ميلهما الى الجهه  
الوحشية صغير الانف افطسه خفيف اللحية اسود الشعر قليلة مع  
الخشونة وهو اقصر قامه من القسم الاول ومنه اهل الصين  
والهند ويابان وشمالي اسيا وشمالي بلاد المسكوب في اوربا وشمالي  
امريكا غير ان سكان امريكا المعروفين بالاسكيمو لهم تعلق بالقسم  
الثالث حتى زعم البعض انهم نتاج اختلاط القسم الثاني والثالث .  
القسم الثالث الاسود وهو يمتاز بسواد البشرة وله ثلاثة فروع  
اولها الملقى نسبة الى شبه جزيرة ملقا ويمتاز باللون الزيتوني  
وسواد الشعر وغزارته مع جعودة قليلة وضيق الراس وكبر الانف  
ومنه سكان ملقا وجزائر المحيط وجزيرة ماداغسقر ويقال انه  
فرع من القسم الثاني المتقدم ثانيا الاميركاني ويمتاز باللون النحاسي  
وسواد الشعر واسترساله وخفة اللحية وانخفاض الجبهة وارتفاع  
عظم الخد وطول القامة ومنه سكان امريكا الاصليون الذين



وجدوا في القارتين الغربيتين قبل وصول اهل اوربا الى هناك  
 ثالثها الزنجي ويمتاز بشدة سواد البشرة وجمودة الشعر وسواده  
 وقصره وانخفاض الجبهة ومقدم التحف وفطس الانف وعرض  
 الخد واتساع الفم وضخامة الشفتين وبروز الفم على هيئة الخرطوم  
 وبياض الاسنان ومنه اكثر سكان واسط افريقية وجنوبها وهذه  
 الاقسام في بعض الجهات قد امتزج بعضها ببعض ونتج من ذلك  
 فروع عديدة يتعسر احاقها باصولها والانسان وان شارك غيره  
 من الحيوانات في كثير من الصفات الا انه اخص بامور كثيرة  
 منها حسن الصورة واعندال القامة والتسلط علي ما في الارض  
 والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط  
 به نطاق العبارة واعظم ميز له العلوم والادراكات بما ركب فيه  
 من القوى المدركة التي بها يميز الحق من الباطل والحسن من  
 القبيح فيعلم بافكاره جميع احتياجاته ويعبر عنها بالنطق فالتكلم  
 حينئذ هو الآلة التي تسوق الجمعية البشرية الى الكمال وتنامر  
 الالة وحسن النخصال



## المسامرة الرابعة والعشرون

### العبادات

( نعمة من الكتاب )

وجميع افراد النوع البشري مائلون بالفطرة الى تعظيم الخالق سبحانه لكن منهم من استدل فاهتدى ووصل ومنهم من اخطأ طريق الصواب فضل وأضل ويتسم الخلق بحسب الاعتقاد الى قسمين وكل قسم تحند طوائف ومذاهب كثيرة القسم الاول من يقول ان الاله المعبود لا يكون الا واحداً في ذاته وفي صفاته وان العبادة لا تكون الا له القسم الثاني من يقول بتعدد الآلهة وتحت هذا القسم فرق متعددة

الاولى جعلت لبعض الكواكب تأثيراً فعبدوها وكان ذلك كثيراً في الامم السالفة ولا يوجد الآن الا عند القليل الثانية جعلت صفات الالهية لبعض مخلوقات اخر فعبدوها وهم المتدينون من الامم السابقين وقد انتطع اثرهم بالكلية الثالثة تقول ان الاله يظهر في صور متعددة سماوية وبشرية

وحوانية وهم البراهمة باسيا ومن هذه الفرقة من يعتقد ان الاله عبارة عن متسع في الجو يجتمع فيه ارواح المخلوقات وفيه مجتمع اهل السعادة الذين تجردوا عن المادة وانهم ينزلون الى الارض في صورة بشرية لتطهير النوع البشري من الاوزار ويسمون هذه الارواح (بوضا) وعدد هذه الفرقة اكثر من مائتي مليون

الرابعة وان لم يتحقق لنا اعتقادها الا انها تميل الى تعظيم المادة وهي بعض سكان اسيا من جهة المشرق . فاما القسم الاول فينقسم الى ثلاث طوائف الاولى العبرانية وهذه لا تصدق الا بما جاء به موسى وانبيا بني اسرائيل ويتظرون المسيح وعدد هذه الطائفة قريب من اربعة ملايين وهي متفرقة في جميع بقاع الارض . الطائفة الثانية العيسوية يقولون بما انزل على موسى والانبيا وبما انزل على عيسى بن مريم وقد انقسمت هذه الطائفة الى فرقتين الاولى التابعون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية وعددهم قريب من مائتي مليون وهم باوروبا من جهة الشمال والثانية التابعون للكنيسة الرومية وهم باوروبا من جهة الشرق وعددهم ستون مليونا تقريبا ولا فرق بين الكنيستين الا في بعض عقائد دينية وكون البابا نائبا عن المسيح او لا وينقسم اتباع الكنيسة الرومانية المذكورة الى قسمين كاثوليكية ومعتقدم ان البابا هو رئيس الديانة فيعتقدون صدقه ويتقدون به في فعله وعددهم مائة واربعون مليونا والثاني البروتستانت وهؤلاء لا يقولون الا بما في الانجيل وعددهم ستون

مليوناً ويجيزون زواج القسيس ولا يقولون بالصور والتماثيل بخلاف فرقة الكنيسة الاولى وكذلك فرقة البروتستانية تنقسم الى مذهبين احدهما اللوتييري نسبة الى واضعه لوتير والثاني الكلفيني نسبة الى واضعه كلفين واهل المذهب الاول يقولون بحضور عيسى حقيقة في العشاء الرباني وهو عندهم عبارة عن خبز ونيذ يقدمها الكاهن للناس بعد التقديس ويقولون انها يستحيلان الى جسد المسيح ودمه بل الى لاهوته ونفسه الناطقة واهل هذا المذهب يقبلون تفاوت درجات القسس بخلاف اهل المذهب الثاني

الطائفة الثالثة المحمدية قال وانت اعلم بعقيدتهم واصول دينهم ومذاهبهم وفرقهم فلا ينبغي لي ان اشرحهم لمثلك وانما احب ان اسمع منك ان نشطت شرح بعض امورهم فقلت نعم الملة المحمدية هي دين الاسلام وهي مبنية على التصديق بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد افترقت واتقسمت كغيرها حسبما اخبر به صلى الله عليه وسلم الى ثلاث وسبعين فرقة منها الفرقة الناجية وهم الذين على ما كان عليه رسول الله واصحابه وقد كان المسلمون عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على عقيدة واحدة وطريقة واحدة الا من كان يطن النفاق ويظهر الوفاق ثم نشأ الخلاف فيما بينهم اولاً في امور اجتهادية لا توجب ايماناً ولا كفراً وكان غرضهم منها اقامة مراسم الدين وادامة مناهج الشرع

القويم وذلك كاختلافهم في موضع دفنه بمكة او المدينة او المقدس حتى سمعوا ما روي عنه من ان الانبياء يدفنون حيث يموتون فدفنوه بالمدينة وكاختلافهم في الامامة وما جرى في وقعة الجمل وصغين ثم اختلافهم ايضا في بعض الاحكام الفروعية وكان الخلاف يتدرج ويترقى شيئا فشيئا الى اخرايام الصحابة حتى ظهر معبد الجهتي وغيلان الدمشقي ويونس الاسواري وخالفوا في القدر واسناد جميع الاشياء الى تقدير الله ولم يزل الخلاف يتشعب والآراء تتفرق حتى تفرق اهل الاسلام وارباب المقالات الى ثلاث وسبعين فرقة كما ذكر وهي ترجع الى فرق كبيرة

الفرقة الاولى المعتزلة اصحاب واصل بن عطاء كان في مجلس الحسن البصري فدخل رجل فقال للحسن يا امام الدين ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة (يعني جماعة من الخوارج) وجماعة اخرى يبرجئون الكبائر (يعني المرجئة) ويقولون لا تضرع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فكيف تحكم لنا ان نعتقد في ذلك فتفكر الحسن وقبل ان يجيب قال واصل انا لا اقول ان صاحب الكبيرة مؤمن ولا كافر ثم قام الى اسطوانة من اسطوانات المسجد واخذ يقرر على جماعة من اصحاب الحسن ما اجاب به من ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ويثبت له المنزلة بين المنزلتين فقال الحسن البصري قد اعتزل عنا واصل فلذلك سمي هو واصحابه معتزلة وهم يقولون بان القدم اخص

وصف الله لا يشاركه فيه ذات ولا صفة وينفون الصفات الزائدة على الذات ويقولون بان كلامه مخلوق محدث وبانه غير مرئي في الاخرة الى غير ذلك

الفرقة الثانية الشيعة اي الذين شايعوا علياً رضي الله عنه وكرم وجهه وقالوا انه الامام بعد رسول الله بالنص اما جلياً واما خفياً واعتقدوا ان الامامة لا تخرج عنه وعن اولاده وان خرجت فاما بظلم يكون من غيرهم او بنقبة منه ومن اولاده

الفرقة الثالثة الخوارج ومنهم الذين خرجوا على عليّ عند التحكيم وكفروه فسموا المحكمة وهم اثنا عشر الف رجل قالوا من نصب من قريش وغيرهم وعدل فهو امام ولم يوجبوا نصب الامام وكفروا عثمان واكثر الصحابة ومرتكب الكبيرة

الفرقة الرابعة المرجئة لقبوا به لانهم يرجئون العمل عن النية اي يؤخرونه في الرتبة عنها وعن الاعتقاد او لانهم يقولون لا ينفع مع الايمان طاعة كما لا يضر مع الكفر معصية

الفرقة الخامسة النجارية اصحاب محمد بن الحسن النجار وهم يوافقون اهل السنة في خلق الافعال وان العبد يكتسب فعله ويوافقون المعتزلة في نفي الصفات الوجودية ونفي الروية وحدوث الكلام

الفرقة السادسة الجبرية قالوا ان المعبود مجبور في افعاله

ومنهم الجهمية اصحاب جهم بن صفوان القائلون بان العبد لا قدرة له اصلاً ولا مؤزرة ولا كاشبة وهو بمنزلة الجهادات فيما يوجد منها

الفرقة السابعة المشبهة شبهوا الله سبحانه بال مخلوقات  
الفرقة الثامنة الناجية وهم اهل السنة والجماعة الذين قال  
فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين على ما انا عليه  
واصحابي ومذهبهم خال عن بدع الفرق المتقدمة وقد اجمعوا  
على حدوث العالم ووجود الباري سبحانه وانه لا خالق سواه  
وانه قديم متصف بالعلم والقدرة وسائر صفات الجلال لا شبيه  
له ولا ضد ولا ند ولا يحل في شيء ولا يقوم بذاته حادث ليس  
في حيز ولا جهة ولا يصح عليه الحركة والانتقال ولا الجهل ولا  
شي من صفات النقص مرئي في الآخرة ما شاء الله كان وما لم  
يشاء لم يكن غني لا يحتاج الى شيء ولا يجب عليه شيء ان اثناب  
فبفضله وان عاقب فبعده لا غرض لفعله ولا حاكم سواه لا يوصف  
فيما يفعل او يحكم مجور ولا ظلم وهو غير متبعض ولا له حد ولا  
نهاية وله الزيادة والنقصان في مخلوقاته والمعاد الجسماني حق  
وكذا المجازاة والمحاسبة والصراط والميزان وخلق الجنة والنار  
وخلود اهل الجنة فيها والكفار في النار ويجوز العفو عن المذنبين  
والشفاعة حق وبعثة الرسل بالمعجزات حق من آدم الى محمد  
عليهم الصلاة والسلام واهل بيعة الرضوان واهل بدر من اهل



الحجة والامام يجب نصبه على المكلفين والامام الحق بعد رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ولا تكفر  
 احداً من اهل القبلة الا بما فيه نفي للصانع القادر العليم او شرك او  
 انكار للنبوّة او لما علم محيئه عليه السلام ضرورة او لمجمع عليه  
 كاستحلال المحرمات واما ما عداه فالقائل به مبتدع غير كافر  
 وهذه الملة الاسلامية اعمال بدنية واعمال قلبية وواجبات ومحرمات  
 ومندوبات ومكروهات فالبدنية ترجع الى خمس خصال شهادة  
 الا اله الا الله وان محمداً رسول الله واقامة الصلاة وايتاء  
 الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله والقلبية مرجعها الاخلاص  
 لله عز وجل في القول والعمل والواجب مثل ما ذكر من الاعمال  
 ومثل اداء الامانات والانفاق على ما تلزم نفقته من الاهل والعيال  
 والمحرم مثل الغش والغيبة والنميمة والحقد والحسد والاضرار  
 بأحد في نفسه او عرضه او ماله الا بحقه والمندوب مثل اصطناع  
 المعروف وانظار المعسر والمكروه مثل اخفاء عيب في سلعة لا يلزم  
 به ردها ونحو ذلك فهذه نبذة اجمالية من احوال هذه الامة  
 والتفصيل يحتاج الى التطويل واريد ان تعود الى تهيم ما بدأت به  
 من الكلام فما المعروف الا بالتأمل

المعامرة الخامسة والعشرون

الانسان وهبأة الاجتماع

( تمة من الكتاب )

فقال نعم قد قدمنا القول على اقسام نوع الانسان ودياته  
 بما انساق به القول الى هذا المقام والان تقول ان هذا النوع  
 الانساني من طبعه حب الالفة والميل الى الجمعية ولذلك يقولون  
 الانسان مدني بالطبع اي لا بد له من الاجتماع الذي هو معنى  
 المدنية في اصطلاحهم وبيان ذلك ان الله تعالى خلق الانسان  
 وركبه على صورة لا بقاء له عليها الا بالغذاء وهداه الى التماسه  
 بفطرته وتخصيله بما اودع فيه من فكره وقدرته الا ان قدرة الواحد  
 من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته وغير وافية بما يلزم لمادة حياته  
 فلو فرضنا اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الخنطة مثلاً فلا  
 يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والخبز والطبخ وكل  
 واحد من هذه الاعمال يحتاج الى مواعين كثيرة وآلات لا تتم الا  
 بكثير من اهل الصناعات كالحداد والنجار والفاخوري وغير ذلك  
 ولو فرضنا انه يأكله حياً من غير علاج فهو ايضاً يحتاج في تحصيله

حبًا الى اعمال كثيرة كالزراعة والحصاد والدرس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل وكل واحد من هذه يحتاج الى آلات متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى ومن المستحيل ان توفي قدرة الواحد بذلك كله او بعضه فحيث لا بد من اجتماع القدر الكثير من ابناء جنسه فيحصل بالتعاون قدر الكفاية لضعافهم وكذلك يحتاج كل واحد في المدافعة عن نفسه الى الاستعانة بابناء جنسه لان الله سبحانه وتعالى لما ركب الطباع في الحيوانات وقسم القوى بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القوة اكمل من حظ الانسان فقوة الفرس مثلاً اعظم من قوة الانسان بكثير وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل اضعاف قوته ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوانات جعل لكل واحد منها عضواً لدفع ما يصل اليه من تعدي غيره وجعل للانسان عوضاً عن ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع خادمة للفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المعدة في جميع الحيوانات للدفاع كالرماح النابذة عن القرون الناطحة والسيوف النابذة عن المخالب الجارحة لكن قوة الواحد من البشر لا تقاوم قوة الواحد من الحيوانات العجم لاسيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده ولا تفي قدرته ايضاً باتخاذ الآلات المعدة للمدافعة وحده مستقلاً بنفسه لكثرتها وكثرة الصنائع اللازمة لاعمالها واستعمالها فلا بد له في ذلك كله من التعاون بابناء جنسه

لتم حكمة الله تعالى في بقاءه وحفظ نوعه والّا لم يتيسر له  
غذاؤه ولا المدافعة عن نفسه فيكون عرضة للخطر وفريسة للحيوانات  
وطعمة للطيور ويطل نوع البشر فاذا وجد التعاون حصل له  
القوت للغذاء والسلاح للمدافعة فظهر بما ذكر ان الاجتماع ضروري  
للنوع الانساني ثم اذا حصل هذا الاجتماع فلا بد لهم من وازع  
ورادع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان  
والظلم اذ ليس السلاح الذي جعل دافعاً للحيوانات العجم كافياً  
لدفع عدوانهم على بعضهم لانه موجود عند جميعهم فحيث لا بد لهم  
من شيء اخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يتصور ان يكون  
من غير جنسهم لقصور مدارك جميع الحيوانات عن مداركهم فيتعين  
ان يكون واحداً منهم وان يكون له عليهم الغلبة والسلطان حتى  
يمكن بذلك من كف القوي منهم عن الضعيف ويستخلص  
للعاجز من القادر ويتصرف للمظلوم من الظالم فينكف شربعضهم  
عن بعض بعدله ويعم الأمن جميعهم تحت ظله وهذا هو معنى  
الملك فلا بد لهم منه ولا بد ايضاً ان يكون متميزاً عنهم بخواص  
حتى يقع التسليم له والقبول منه لينفذ حكمه فيهم وعلهم من غير  
انكار ولا تزيف ولكن لا يتم عز هذا الملك الا بالشرعية والقيام  
لله بالطاعة والتصرف تحت امره ونهيه ولا قوام للشرعية الا بالملك  
ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل  
الى المال الا بالعارة ولا سبيل للعارة الا بالعدل والعدل هو

الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعله له قيا وهو الملك ولذا يقال لا ملك الا بالجند ولا جند الا بالمال ولا مال الا بالخراج ولا خراج الا بالعمارة ولا عمارة الا بالعدل ولا عدل الا باصلاح العمال ولا تصح العمال الا باستقامة الوزراء ورأس الكل نقد الملك احوال رعيته بنفسه واقتداره على تاديبها حتى يملكها ولا تملكه وقد وضع في هذا المعنى دائرة جامعة لثاني كلمات حكمة سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتد اعجازها على صدورها فلا يتعين طرفها وهي هذه وقد رسمتها لك في ظهر الجواب لتحفظي صورتها مع الورق الذي عندك في الدولاب

ثم قال لي بعد ذلك ان الحكومة تنقسم الى صورتين الاولى الحكومة الجمهورية وهي ان يكون الحكم مفوضا لمجلس مركب من اعضاء تنتخبهم الرعية لادارة امور المملكة تحت قوانين يلزمهم العمل بها وعدم الخروج عنها . الثانية السلطنة والحكومة الملكية وهو ان يكون زمام الحكم والتدبير والامر والنهي بيد شخص واحد وهو الملك وهذه ايضا تنقسم الى قسمين مقيدة ومطلقة لانه اما ان يكون الملك مقيدا بقوانين وشرائع لا يستطيع الخروج عنها الى هوى نفسه وهي الحكومة الملكية المقيدة واما ان يكون غير مقيد بشي من ذلك يحكم براه ويتصرف بهوى نفسه فيكون رايه شريعة المملكة وحكمه قانونها وهي الحكومة الملكية المطلقة وتنقسم الادارة في الحكومة الى ادارة دينية وادارة سياسية وادارة عسكرية وادارة مالية

ولا بد لكل دولة من ايراد كافٍ لها وهو عبارة عن مجموع مقادير مقررة على الرعية للقيام بما يلزمها من النفقات وتكون هذه المقادير مضروبة على الاشخاص او على املاكهم وارضيتهم او على ما يتجرون فيه ويستعملونه وينضم اليه ما يحدث من بعض العوائد كالملكوس والجمارك ومتى كان ايراد الدولة غير كافٍ لما يلزمها من المصارف الضرورية او ما تريد استحداثه من الامور النافعة لعامة الرعية كاجراء الانهر وعمل القناطر استدان ما يلزم لذلك وقد كان الناس في مبادئ احوالهم قبل اختلاط الامم واتصالهم متفرقين في بقاع الارض تسكن كل امة في جزيرة او قطعة من القارة محدودة بالجبال او بالانهر لا تختلط بغيرها الا عند بعض حروب تكون بينها وبين من يليها من الناس وكانت مساكن الناس في اول الامر متبعدة متفرقة ثم تضامت وتقاربت فحدث من ذلك الكفور والقرى والبلدان والمدن فكانوا غالباً على شواطئ الانهر والبحار ونارة في المواضع المرتفعة من الاودية وفي النادر فوق الجبال وبازدياد التمدن اتصلت المدن ببعضها بواسطة المسالك والطرق وكان غالب الطرق اولاً في المواضع المنخفضة من الاودية للتوصل الى الجهات المشهورة ثم عملت طرق متاطعة لها ولم تعمل الطرق الموازية للجبال الا اخيراً ولما اتسع التمدن وكثرت علائق الاجتماع ووجدت تلك الطرق غير كافية حدثت الخللان الصناعية القاطعة للانهر والجبال وغير القاطعة لها وصار

توزيع فروق ارتفاعاتها بواسطة احواض تعمل في محلات تقاطعها واتصالها بغيرها ( وهي المعروفة بالهويسات جمع هويس محرف حوض ) ولانعدام بعض الحدود الطبيعية للارض بسبب اختراع الطرق القاطعة لها نتج اعمال الحصون والقلاع لتمييز الحدود والفصل بين المتجاورين من الامم وبعضهم ومع هذا فكانت الحدود الطبيعية احسن فائدة لان بها يتم شروط الامن والملكية واحسن الحدود ما كان بالصحاري ثم ما كان بالابحر ثم ما كان بالجبال ثم الانهر ولكن لما كانت تلك الحدود في الغالب لا تفي بتحصيل الامن بين الامم المختلفة اضطر الناس الى تكميلها بموانع صناعية فنشأ من ذلك اتخاذ الحصون لحصول هذا الغرض وهي قسمان ثابتة وغير ثابتة فالاولى هي الحصون البرية وتبنى بمصاريف كثيرة وموثة كبيرة وتكون على رؤس الاودية وسواحل البحار والانهار ومحلات تقاطع الطرق وسائر المواضع التي ليس فيها موانع طبيعية او فيها موانع غير كافية للحفظ وهذه الموانع سواء كانت صناعية او طبيعية لا تفي بالغرض المطلوب الا اذا استكملت شروطها من الاتصال ببعضها بحيث يكون بينها ارتباط يمنع العدو من الاستيلاء عليها من غير ان يكون عرضة للاسر والتلف والخطر والثانية اعني غير الثابتة هي السفن البحرية ثم كل من هذه الموانع الثابتة وغيرها لا تقوم بنفسها في صد العدو والحماية عن الدولة والامة بل لا بد من طائفة من رجال الامة يقومون عليها ويدافعون عن



المملكة واهلها وهذه الطائفة التي تقوم بامر المدافعة اما ان تكون  
عساكر مخصوصة معدة لهذا الامر مستعدة للسير والسفر الى كل  
جهة تؤمر بالمسير اليها فيكون لها علوفات ومرتبات بقدر الكفاية  
واما ان تكون رديفًا يطلب عند الاحتياج وليس لهم علوفة ولا  
مرتب وبعض هذه العساكر يكون في البر وبعضهم في السفن في  
البحر وتلتجئ البرية في تقلبات احوالها الى القلاع والحصون  
الارضية وتلتجئ البحرية الى الميناء المحصنة قال ولذلك تفاصيل  
شرحها يطول ولك الان في هذا القدر مقنع وكفاية وستصل  
ان شاء الله بالتدرج للغاية

المسامرة السادسة والعشرون  
ختام كتاب برهان الدين

فهذا آخر ما القاه علي من هذه المسائل كتبه لينتفع به  
اخوتي كما ذكرت وتعلمي درجة اجتهادي واشتغالي بما حررت  
وانا ارجوان لا تحرميني من وعظك واتحاف في برفيق لفظك ولا  
تكتم عني شيئاً من امركم فاني متشوق لجميع خبركم ونحن بفضل  
الله في صحة تامة مجتهدين في تعلم اللغة الانكليزية والذي مع  
صاحبه وانا مع صاحبي وفي بعض الاوقات احضر مع والذي  
بعض دروسه وانتقل ما اجد في كراريسه واما الخواجا فانه  
رجل ذو لطف وادب لم يتغير عن اسلوبه لحظة ولم اسمع منه  
ما يخل بشرفنا لفظة ملتزماً معنا حسن السيرة ورأفته بنا لا توصف  
ومعاملته معنا قل في غيره ان تعرف لا يترك فرصة فيها سرورنا الا  
جانبها ولا يعلم تغير طبعنا من خصلة الا اجنبها أحلّ والذي  
في رأيه وغرضه محل سته وفرضه فشكر الله مسعاه ووفقه لطريق  
الصواب وهداه وان سألت عن اقامتنا في السفينة فاقول ان  
القمرة التي كانت اعدت فيها لنا عبارة عن خزانة صغيرة تزيد في

الارتفاع عن قامة الانسان بقدر مدّ الذراع وطولها طوله سواء  
بسواء وبها كوة لدخول النور والهواء ولكنها في غالب الاوقات  
مقفولة خوفاً من دخول الماء وبكل فمرة فرش للجلوس والنوم  
على حسب عادة القوم وفيها اباريق وآنية معدة لما عساه يحصل  
من القيء وما يعتري الانسان في بعض الاوقات من الشئ  
ولكن القيء لم يحصل لنا الا قليلاً لان البحر مدة السفر كاد ان  
يكون ساكناً فلم يحصل لمركبنا اضطراب الا في اوقات قليلة  
فكنت ارقد وادفع ضرره بهذه الحيلة وانما حصل لوالدي مرتين  
وذلك في ابتداء الامر وكاتنا خفيفتين وعند دخولنا السفينة  
وصعودنا على ظهر البحر شممنا له روائح مائية رديئة اعدمت منا  
شهوة الاكل فتركناه بالكلية الى ان قال لنا الانكليزي على وجه  
النصيحة بسبب ما يعلمه بالتجربة لكثرة اسفاره لا بد لراكب  
السفينة من الاكل ولو بتكلف لانه اذا كانت معدته خالية  
اصابه الدوار بسبب اضطراب السفينة وفترت قوته فالاولى  
للانسان ان يتحامل على ان يتناول من الطعام ما يقوي بدنه  
ليشتد ويقوى على حركة البحر واضطراب السفينة فامتثلنا وفعلنا  
واسترحنا بذلك الى ان وصلنا وانما كانت القمرة تضائقنا وترتيب  
فراش النوم لا يوافقنا لاننا كنا ننام على شيء شبيه بالدرج على  
قدر الانسان لا يكاد يزيد عنه وكان محلي فوق محل والدي  
وكنت اردت اولاً ان امتنع من ذلك فأبى والدي حفظه الله

الا ان انام كما رتبوا وقال لي الضرورات تبيح المحظورات واما  
 الطعام فكان في الكثرة فوق المرام لاننا كنا ندعى للاكل في  
 اليوم والليلة خمس مرّات وكانت الاطعمة حسنة نظيفة الا انها  
 قليلة الملح والتنج فكنّا نعافها لعدم اعنيادنا على مثلها في بلادنا  
 وكان ائتماننا في اغلب الاحيان بالجبن والزيتون والسك  
 المعروف بالسردين واشباه ذلك وهكذا خبزهم لا يشبه خبزنا فلا  
 ادري أهو من المخبطة ام غيرها ولو وجدنا سواه ما اكلناه وكثيراً  
 ما سمعت والذي يقول لو علمت حال الخبز من قبل لتزودنا  
 خبزاً غيره من الاسكندرية ولما رأى الانكليزي عدم رغبتنا صار  
 يعيده لنا في النار ويشويه ويأتي لنا كل يوم بدجاجة فيذبحها  
 والذي وانا اتولى طبخها بيدي وأكثر لنا من المربيات  
 فكنّا نأتم بها في بعض الاوقات وبالجمله فقد اتقضت ايام  
 السفر ولم يحصل لنا في السفينة ادنى ضرر والان وصلنا نغر  
 مرسيليا وبعد ثلاثة ايام تقوم ونركب عربة السكة الحديد  
 وتوجه الى مدينة باريس وهي قاعدة بلاد الفرنسيين فاذا  
 وصلنا الى هناك بعون الله ومشيتته سطرت لك خطاباً غير  
 هذا اضمنه ما اراه وما اسمعه بعد الآن ورجائي ان يدوم لي حسن  
 رضاك في جميع المحال والاحوال فهو لي نهاية الامال ورأس مال  
 القبول والاقبال وارجو ايضاً ان تبلي اذكي التحيات الى اخواتي  
 وعماتي واقبل يد خالي العزيز ادام الله بقاءه ويسر لي لقاءك

ولقاءه وارجو منه ان يقرأ لي الفاتحة بمقام الامامين لعل الله تعالى  
يردنا سالمين بلغنا الله واياكم الامال وجمعنا في احسن  
الاحوال امين والحمد لله رب العالمين

ثم انه ختم الجواب وظرفه واذا بالخوارجا دخل عليه وسأله  
عن الوالد فقال له ان عنده بعض فتور وقد اضطجع في فراشه  
ليستريح فان شئت ذهبت اليه لانيه فمنعه عن ذلك وقال  
اني متظره في حجرتي فاذا قام فاخبره فاجابه برهان الدين لذلك  
ثم اراه ذلك الكتاب في ظرفه وقال له هذا كتاب سطرته الى  
والدي بمصر باذن والدي واريد ارساله اليها فارجوكم ان تتفضل  
بتوصيله الى البوسطة فقال حبا وكرامة واخذه وتكفل بتوصيله  
وانصرف

انتهى الجزء الاول



## فهرست الجزء الاول

من كتاب

علم الدين



صفحة	المسار	في
٠٠٢		مقدمة الكتاب
٠٠٩	الاولى	المفر
٠٢٢	الثانية	المفر والعودة
٠٢٨	الثالثة	الزواج
٠٢١	الرابعة	العيلة
٠٣٤	الخامسة	محاورة
٠٦٩	السادسة	الساخ الانكليزي
٠٨٨	السابعة	السكة الحديدية
١٢٢	الثامنة	طنطا
١٢٩	التاسعة	الموالد والاعياد والمواسم
١٦٤	العاشر	شنى
١٨٥	الحادية عشر	الخانات والوكندات
١٩٩	الثانية عشر	النساء
٢١٥	الثالثة عشر	البوسنة

صفحة	المسامرة	ب
٢٢٠	الرابعة عشرة	المكانة
٢٢٧	الخامسة عشرة	الملاحة
٢٤١	السادسة عشرة	التعلم والتعليم
٢٥٨	السابعة عشرة	البحر وعبأته
٢٨٥	الثامنة عشرة	البراكين
٢٠٢	التاسعة عشرة	شذور
٢٢١	العشرون	العرب
٢٤٧	الحادية والعشرون	كتاب برهان الدين
٢٥٢	الثانية والعشرون	برهان الدين وصاحب (تمة من الكتاب)
٢٦٢	الثالثة والعشرون	الجغرافية والفارنج (تمة من الكتاب)
٢٦٩	الرابعة والعشرون	العبادات (تمة من الكتاب)
٢٧٦	الخامسة والعشرون	الانسان وهياة الاجتماع (تمة من الكتاب)
٢٨٢	السادسة والعشرون	ختام كتاب برهان الدين





## تقريظ الكتاب

ما تمنع الأيدي بيد وإنما يبقى لنا ما تمنع الأفلام  
الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين  
وبعد فاني تصفحت هذا الكتاب بل العجب العجائب الذي نسبت للشيخ علم  
الدين روايته وأسندت للسائح الإنكليزي حكايته فوجدته نزهة للناظر وسلوة  
للخاطر فيه للقلوب ارتياح وللخواطر نشاط وإنشراح تعرب مبانيه عن لطف  
معانيه وتقصع روائع الناطقة الرائقة عن بدائع مضامينه الفاتقة وبشهادة مولفه  
بعلو المقدار وإصنفه بحسن الاختيار جمع فيه من غرائب الفنون ونقائض  
المجد والمجون الضب والنون وقرن الى اسنى المقاصد اشرف المطالب فصع  
انه المرغوب لكل طالب اظهر فيه ما خفي من اسرار الصنائع وكشف عن  
وجه مخدرات العلوم البراقع وإضاف الى ذلك من حكم الحكماء ما اغفلته  
القدماء وشحه باطائف النوادر وما تفردت به الأواخر وإظهرته في هذا  
الدور الآخر فهو مخترع لجميع المخترعات جامع وبديع في بيان معاني  
المبتدعات نافع يتنقل من فصل الى ضد وبحكم الوصل بما أبداه من عند  
فكان مولفه المفضل يقول فيه بلسان الحال

تهديت في اتعاب فكري لجمعه فجاء كتاباً في اليها لا يشارك  
وكنيت بحمد الله فيه موفقاً فإسني عليّ في الانام مبارك  
فله در من انشاء وبطراز الحسن والاحسان وشاه فانه اجاد وسلك  
طريق السداد وبلغ به ما فوق المراد بلغه الله تعالى امانيه وكبت حاسه  
وشانيه ولا زال متواصل البقا دائم الارتقا بهجة للياليه وإيامه بزین الوجود  
بآثار افلامه مقتنيا للثناء الجميل والاجر الجزيل بحرمة سيد الانام الذي  
يحسن بذكره البد والخنام

وكتبه الفقير المعترف بالتقصير تراب اقدام العلماء عبد انجيل بن  
عبد السلام زاده المدني في واسط شعبان المعظم سنة اربع وتسعين ومائتين  
والف بالمحرسة حامداً مصلحاً

